مكتبة
مؤمن قريش

٢١

كتاب قضايا إسلامية معاصرة

نزعة التغريب

جلال آل أحمد

جلال آل أحمد

نزعة التغريب

ترجمة: حيدر نجف
مراجعة: عبدالجبار الرفاعي

كتاب قضايا اسلامية معاصرة

الكتاب الحادي و العشرون ١٤٢٠ ـ ٢٠٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب قضايا اسلامية معاصرة

سلسلة دورية تتناول الهموم الثقافية للمسلم المعاصر
تصدرها قضايا اسلامية معاصرة
الأفكار الواردة في هذه السلسلة تعبر عن آراء مؤلفيها

رئيس التحرير
عبد الجبار الرفاعي

مؤسسة الأعراف للنشر

جلال آل قلم و نزعة التغريب

يعلم من له أدنى معرفة بحيثيات الساحة الثقافية...الأدبية في ايران، أن من أبرز أعلامها، وأحد ألمع الاسماء فيها، وأكثرهم تأثيراً وإثارة للجدل، هو جلال آل أحمد.

فقد برع هذا الكاتب والمفكر الايراني المعاصر في عدة حقول كتابية، وتوزعت نتاجاته على مجموعة من المجالات أهمها الرواية والقصة القصيرة، والنصوص النقدية السياسية ـ الاجتماعية، فضلاً عن المذكرات، وكتب الرحلات، والترجمة لكبار الأدباء العالميين.

أسمه الحقيقي محمد حسين حسيني طالقاني..ولد في الأول من كانون الأول عام ١٩٢٣م في محلة پاچنار بطهران، في أحضان عائلة متدينة محافظة، ربُّها رجل دين معمم، يتولّى إدارة عدة مساجد ومكاتب عقود شرعية، وبهذا نشأ جلال فيما يشبه الأجواء الارسطوقراطية، لكن هذه الحال سرعان ماتغيّرت، عندما قررت وزارة العدل الاشراف على كل مكاتب العقود، ورفض والده الرضوخ لإدارة الدولة وطوابعها وتعميماتها، خسر بذلك مواقعه، ومنع حتى من التدريس، واكتفى ببقايا الوجاهة في محلّته.

كان جلال تاسع أبناء العائلة وثاني البنين..وعندما أنهى دراسته الابتدائية، منعه والده الذي كان يعتبر المدارس الحديثة ساحة لإنحراف الشباب وفسادهم، عن مواصلة الدراسة، وزجَّ به في السوق ليكون خليفته!..لكن جلال التحق بالصفوف المسائية في مدرسة «دار الفنون» المعروفة بطهران، دون علم والده، وإلى جانب أعماله الحرة في تصليح الساعات ومد الأسلاك الكهربائية، واستطاع إتمام دارسته الاعدادية بهذه الطريقة.

بعد ذلك أوفده والده إلى مدينة النجف حيث يقيم أخوه المعمم السيد محمد تقي، وذلك

لدراسة العلوم الدينية، كان جلال يرغب بالسفر من هناك إلى بيروت، لكنه لم يوفق لذلك وعاد إلى ايران، بعد أن بقي شهراً كاملاً في العراق تجوّل خلاله في مختلف المدن العراقية.

في تلك الآونة بدأت تنتابه حالة شك وارتياب، أوجدتها لديه نزعته الذاتية للتمرد، واطلاعه على مؤلفات أحمد كسروي، فأخذ يشكك في جوانب من العقيدة والسلوك الديني، الأمر الذي سبب له مشاكل عائلية غير قليلة.

وتفاقم تمرده الايديولوجي ليقترب به من التيار الشيوعي الذي كان ناشطاً بدرجة عالية في تلك الآونة. ففي حوالى عام ١٩٤٣م أسَّس مع مجموعة من أصدقائه الشباب «جمعية الاصلاح» ذات الميول اليسارية، وأقام تحت مظلتها دورات مجانية لتعليم اللغة الفرنسية والعربية ومبادئ الخطابة، وترجم من العربية كراساً باسم «مراسم العزاء اللامشروعة» فبيعت جميع نسخه خلال أيام معدودة! وفرح جلال ورفاقه لأن الجمعية استطاعت القيام بمشروع اقتصادي ناجح، لكنهم علموا فيما بعد أن التجار المتدينين اشتروا جميع النسخ بالجملة وأحرقوها!

كانت «جمعية الاصلاح» جسراً انتقل منه آل أحمد وغالبية الاعضاء إلى الحزب الشيوعي الايراني «توده»، تاركاً وراء ظهره كل أنماط التوجه الاسلامي.

كان ذلك في عام ١٩٤٤م، وبتأثير من المد الشيوعي العالمي الذي جاء نتيجة الانتصارات السوفيتية في الحرب العالمية الثانية. وسرعان ما ارتقى آل أحمد مدارج الرتب الحزبية.. فتحول في ظرف أربعة أعوام من عضو عادي إلى عضو في لجنة طهران وممثل في المؤتمر، وتولّى شتى المهام الثقافية في الحزب، والاشراف على العديد من إصداراته ومسؤولية مطبعته و...

في سنة ١٩٤٥م نشر أول قصصه القصيرة باسم «الزيارة» في مجلة «سخن» (الكلام) التي كان يشرف على إصدارها القاص الايراني المعروف صادق هدايت، بعدها صدرت هذه القصة مع قصص اخرى في مجموعته «الزيارات المتبادلة».

وفي ١٩٤٦م أنهى دراسته في الآداب بدار المعلمين العليا، التي كان قد التحق بها في وقت سابق، ليبدأ عمله في التدريس الذي استمر فيه لعدة سنوات.

في نهاية ١٩٤٧ أو بدايات ١٩٤٨ إنشق مع مجموعة من الشيوعيين بقيادة خليل ملكي عن حزب توده احتجاجاً على عدم استقلاليته وافتقاره للديمقراطية، وكان دوماً متبرماً بتبعية الحزب لدولة اجنبية (الاتحاد السوفيتي آنذاك). وأسّسوا (حزب توده الاشتراكي الايراني) الذي لم يكتب له النجاح والاستمرار.

وفي سنة ١٩٤٩ تزوج من سيمين دانشور التي ستكون هي الأخرى إحدى القاصات والشخصيات الأدبية البارزة في ايران...

أما أول رواياته فهي «قصة الخلايا» التي يعالج فيها الوضع الحركي في حزب توده باسلوب رمزي مشبهاً البشر بالنحل. ويشير فيها إلى الكثير من الحقائق السياسية التي عاشها آنذاك، ومنها انشقاقه عن حزب توده، وقضية تأميم النفط في بداية الخمسينات.

في عام ١٩٦٠ نشر كتابه «جزيرة خارك.. درة الخليج اليتيمة». وفي ١٩٦١ أصدر قصته المعروفة «نون والقلم».

وخلال الفترة مابين ١٩٦١ و ١٩٦٤ كتب «ملف السنوات الثلاث» و «ثلاث مقالات أخرى» و «نزعة التغريب».

في «ثلاث مقالات أخرى» يركّز آل احمد على أن غالبية المجلات والصحف الايرانية ماهي الاّ نشرات «مزوّقة»، الغرض منها إشغال الناس وإلهاؤهم وخداعهم بالسفاسف من الأمور.

في ١٩٦٧ نشر آخر رواياته باسم «لعنة الأرض» التي فضح فيها سلبيات الاصلاح الزراعي، ومايسببه من تدمير للزراعة التقليدية في ايران.

ومن أفضل أعمال آل احمد كتاب المستنيرون.. خدمات وخيانات»[1] الذي جاء إثر الصدام الدامي بين الحوزة العلمية في قم بزعامة الامام الخميني ونظام الشاه في عام ١٩٦٣م. فقد أزعج آل احمد جداً صمت المتنورين عن هذه الأحداث، وافتقارهم لموقف مناسب يكون بالطبع مناوئاً للسلوك القمعي الذي انتهجه النظام الشاهنشاهي.

---

(١) در خدمت وخيانت روشنفكران

نشر آل احمد كتاب «المستنيرون» على نطاق محدود جداً في بداية عام ١٩٦٥، ثم نشر فصلين منه في مجلة «جهان نو» (العالم الجديد) التي كان يصدرها صديقه الاديب المعروف رضا براهني، وصدر بنصه الكامل في ١٩٧٧ بعد وفاته بثماني سنوات.

يعتقد آل احمد في هذا الكتاب أن المتنور الحقيقي لابد أن تتوفر فيه خصلتان رئيسيتان؛ الاولى أن لايكون ملكاً لبطنه وجسمه والحاجات الدنيوية الأخرى، والثانية أن يكون بمنأىً عن العصبيات العمياء، لكنه يرى أن المتنورين الايرانيين في وقته كانوا يمتازون بثلاث خصائص هي:

١ ـ التغرّب

٢ ـ اللادينية (والزهد حتى في التظاهر بالدين)

٣ ـ التعليم العالي.

ويغور آل أحمد في كل التفاصيل المتعلقة بمقولة التنوّر وابعادها التاريخية والسياسية والثقافية والاجتماعية ليكون كتاب «المستنيرون» أضخم أعماله حجماً (٥١٠ صفحات).

كما أنجز آل أحمد خلال مشواره المضغوط ترجمات لأدباء عالميين كبار، مستعيناً بخبرته في اللغة الفرنسية. ومن أبرز ترجماته «الايدي القذرة» لسارتر، و «الغريب» و «سوء التفاهم» لكامو، و «المقامر» لدوستوفسكي، و «موائد الأرض» و «العودة من الاتحاد السوفيتي» لاندريه جيد. وقد أشار هو ضمنياً إلى بعض ترجماته في الفصل الأخير من هذا الكتاب. ويبدو هناك أن ترجماته جاءت موجهة وهادفة، شأنها شأن كتاباته وقصصه.

وإذا أردنا الاحاطة باعمال هذا الكاتب كنّا أمام اللائحة التالية:

القصص والروايات	تاريخ النشر
الزيارات المتبادلة	١٩٤٥
عن الهمّ الذي نعاني	خريف ١٩٤٧
الجيتار	شتاء ١٩٤٩

المرأة الزائدة	صيف ١٩٥٢
قصة الخلايا	شتاء ١٩٥٩
مدير المدرسة	١٩٥٩
نون والقلم	خريف ١٩٦١
لعنة الارض	شتاء ١٩٦٨
خمس قصص	١٩٧١
حجارة على قبر	١٩٨١

المشاهدات:

اورازان	ربيع ١٩٥٤
فقراء «بلوك زهرا»	خريف ١٩٥٨
جزيرة خارك.. درة الخليج اليتيمة	ربيع ١٩٦٠

كتب الرحلات:

قشّة في الميقات	١٩٦٦
السفر إلى ولاية عزرائيل	شتاء ١٩٨٥
رحلة روسيا	١٩٩٣

الكتب:

سبع مقالات	١٩٥٤
ثلاث مقالات أخرى	١٩٦٢

نزعة التغريب	١٩٦٢
ملف السنوات الثلاثة	١٩٦٢
التقييم المتسرّع	١٩٦٣
المستنيرون.. خدمات وخيانات	١٩٧٧
بئر وحفيرتان	١٩٧٨

الترجمات:

«الغريب» لألبير كامو (مع د. اصغر خبره زاده)	١٩٤٩
«سوء التفاهم» لألبير كامو	١٩٥٠
«الايدي القذرة» لجان بول سارتر	١٩٥٢
«العودة من الاتحاد السوفيتي» لاندريه جيد	١٩٥٤
«موائد الأرض» لاندريه جيد (مع برويز داريوش)	١٩٥٥
«وحيد القرن» لأوجين يونسكو	١٩٦٦
«اجتياز الخط» لارنست يونغر (مع د. محمود هومن)	١٩٦٧
«الجوع والعطش» لأوجين يونسكو (مع منوچهر هزارخاني)	١٩٧٢
«الاربعون ببغاء» (مع زوجته سيمين دانشور)	١٩٧٢

تمتاز مؤلفات جلال آل احمد بقيمة تغييرية كبيرة.. فقد كان لهذه الأعمال في حياة مؤلفها وبعد وفاته أصداءٌ واسعة في اوساط النقاد والنخبة وعموم الجماهير على السواء، واستطاعت أن تنبّه المجتمع آنذاك إلى الكثير من السلبيات التي يتقلّب فيها دون شعور، وتعبّئه ضد هذا الواقع الفاسد، وضد الحكومة التي فرضت عليه ألوان الخضوع والتغريب، والابتعاد عن هويته الدينية والثقافية. لذلك يمكن بحق اعتبار آل احمد إلى جانب مفكرين آخرين من قبيل الشهيد مرتضى مطهري وغيره من الممهدين الرئيسيين

للثورة الاسلامية، والمعدّين الدؤوبين لأرضيتها الفكرية. ولعل أوضح مؤشر لعمق تأثير هذا الكاتب الثوري ومكانته المرموقة في نفوس الشعب الغاضب، هو أن كتبه و كتب الدكتور علي شريعتي كانت تندرج في كتب المؤلفين الاكثر مبيعاً وتداولاً خلال عقد السبعينات الذي سبق انتصار الثورة الاسلامية في ايران.

لقد كان آل احمد في كل ماكتب سياسياً ساخطاً أشد السخط على السلطة الشاهنشاهية في ايران، وربما بلغ ذروة كتابته السياسية الرامية إلى فضح النظام، في كتابه «نزعة التغريب» الذي يوجّه فيه سهامه بشكل تلميحي جريئ حتى لشخص الشاه محمد رضا بهلوي.. وهذا ماأدّى بالكتاب إلى المنع من الصدور في البداية.

وعلى صعيد القصة كان أيضاً هادفاً ومصلحاً اجتماعياً وسياسياً شجاعاً، ومن الطراز الأول للقاصين الايرانيين المبدعين. وقد اكتسبت قصصه شعبية واسعة واهتماماً بالغاً من قبل الادباء والنقاد. وأخذ الكثير من الشباب ولحد الآن يقلدون أسلوبه وطريقته الفريدة في السرد القصصي.

ومنذ أن توفي في الثامن من ايلول عام ١٩٦٩ ولحد اليوم، كتب عنه مايصعب إحصاؤه من الكتب والبحوث والمقالات والمقطوعات الأدبية.

وحياة جلال ككتاباته تتسم بالغرابة والإثارة والتنقّل عبر مراحل وقناعات مختلفة. وقد مر بنا أن أهم هذه المنعطفات تحوّله إلى الشيوعية، ثم انشقاقه عن الحزب الشيوعي الايراني مع استاذه خليل ملكي. لكن التحوّل الأغرب في حياته حصل بشكل تدريجي في آخريات سنواته. حيث بدأ يميّز بنظرته الثاقبة أن الاصلاح الحقيقي الدائم لايأتي من الخارج بل ينبع من الذات المتمثلة بالأصالة الإسلامية، فأخذ يذكر نمط الحياة الدينية بتعابير وأوصاف ايجابية.. ويكرر تلميحاً في مناسبات عديدة أن طريق الخلاص من الأزمات يكمن في تعهد ورعاية وإنماء الذات الاسلامية وتطهيرها من شوائب الخرافة والشكليات الفارغة.. وإعادة الدور الريادي للدين وعلمائه في عملية الإصلاح.

وهكذا كان يتجه للانضمام إلى فئة الكتاب والمفكرين الداعين إلى الاسلام، أو المتعاطفين معه على أقل تقدير. وربما أدهش هذا الشيوعي القديم المجتمع العلماني

والاسلامي على السواء، بأدائه فريضة الحج عام ١٩٦٤ التي عاد منها برحلته الشهيرة «قشّة في الميقات»[١].

تكتب زوجته الدكتورة سيمين دانشور ضمن مقال عن وفاته بعنوان (غروب جلال):

«... لم يكن مادياً.. بل كان أصيلاً، وإذا كان قد اتجه للدين، فقد اتجه عن وعي وبصيرة، لأنه اختبر قبل ذلك الماركسية والاشتراكية، وإلى حد ما الوجودية. وكانت عودته النسبية إلى الدين وامام الزمان، طريقاً للتحرر من الامبريالية وصيانةً للهوية الوطنية، وسبيلاً إلى الشرف الانساني والتراحم والعدالة والمنطق والتقوى.. كان جلال يحمل همَّ مثل هذا الدين...» (غروب جلال سيمين دانشور ـ نشر خرم ـ الطبعة الرابعة ـ ١٣٧١ش (١٩٩٢م) ـ ص٢١ و ٢٢).

ومما يميّز جلال عن غيره من الكتّاب والشخصيات الإصلاحية أسفاره الدائمة في مختلف مناطق ايران، ورغبته الشديدة في الاطلاع عن كثب على اوضاع المناطق والقرى النائية، ومعرفة مشاكل المواطنين هناك وطبيعة حياتهم ونشاطهم، وحرصه البالغ على معايشتهم ميدانياً، والتحدث معهم، ومشاركتهم همومهم وقضاياهم. وكان يجهد نفسه ويضغط على جسمه النحيف في هذا السبيل. وقد استفاد من مشاهداته هذه في تكوين صورة المشاكل التي تعاني منها البلاد، ولاشك انها انعكست بشكل أو بآخر على آرائه المتوزعة في قصصه وكتاباته.. هذا بالاضافة إلى اصدار ثلاثة كتب عن هذه الجولات اوردناها في قائمة مؤلفاته.

وكانت لجلال اسفاره إلى الخارج، والتي كتب عنها بشيء من التفصيل شقيقه شمس آل احمد، في مقدمة رحلة جلال إلى فلسطين المحتلة التي عنونها «السفر إلى ولاية عزرائيل» فيذكر شمس هناك أن جميع تلك الأسفار أثمرت كتابات ومذكرات نشر بعضها في حياة جلال ونشر بعضها بعد وفاته، ولم ينشر البعض الآخر لأنه بقي مجرد مذكرات متفرقة تحتاج إلى ترتيب واعداد للنشر لم يحتمله العمر القصير لجلال.

---

(١) خسي در ميقات

ويمكن تلخيص أسفار جلال إلى خارج ايران كما يلي:

١ ـ السفر إلى العراق عام ١٩٤٢

٢ ـ السفر إلى اوروبا في عام ١٩٥٧

٣ ـ السفر إلى اوروبا عام ١٩٦٢ ـ ١٩٦٣ والذي استغرق أربعة شهور زار خلالها باريس وجنيف والمانيا وهولندا وبريطانيا، وقد عاد من هذه السفرة بـ ١٥٥ صفحة من المذكرات اليومية، كان يعدّها للطبع في منفاه بشمال ايران صيف ١٩٦٩ عندما وافته المنية في ظروف غامضة.

٤ ـ السفر إلى اسرائيل عام ١٩٦٣ والذي استمر اسبوعين، عاد منه بمذكراته التي نشرها شقيقه شمس عام ١٩٨٥ بالكامل، وكان جلال قد نشر اجزاءً منها في مجلة شهرية عام ١٩٦٤ وفي مجلة اسبوعية عام ١٩٦٧.

حول هذه الرحلة التي يقدم فيها جلال تحليلاته للقضية الفلسطينية، يقول شقيقه شمس آل أحمد أن السيد على الخامنئي قائد الجمهورية الاسلامية الايرانية الحالي كتب رسالة من أربع صفحات لدار رواق (الذي كان يشرف عليها شمس والمعنية بنشر اعمال جلال) قبل أن يستلم زمام رئاسة الجمهورية (أي في حوالى ١٩٨٠م) استجابة لطلب الدار قال فيها: «مع الشكر لدار رواق، أولاً لإحيائها أسم جلال آل أحمد، وكشف أستار الغربة عن رجل كشف يوماً ما أستار الغربة عن تيار التنوّر الجماهيري الاصيل، وثانياً لطلبكم رأيي بعد أن قضيت أفضل سنوات شبابي محبّاً ومريداً لجلال آل قلم... لا أتذكر تحديداً أية مقالة أو كتاب عرّفني جلالاً. «نزعة التغريب» و «الأيدي القذرة» كانت من أقدم كتبه التي شاهدتها واقتنيتها. لكن معرفتي الأعمق كانت بواسطة وببركة مقالة «ولاية عزرائيل» التي أثارت عتابي وعتاب الكثير من الشباب الطموح آنذاك. جئت إلى طهران (لاخصيصاً لهذا الامر) واتصلت به تلفونياً وعاتبته عتاب المريدين.. ورغم أنه لم يرد عليّ بجواب صحيح، لكن شيئاً من اعجابي لم ينقص.. وبقيت تلك المحادثة التلفونية ذكرى عامرة في نفسي.. فى النقاش الذي دار بيننا كان يتجلى الذكاء وسرعة البديهة والصفاء والإخلاص من رجل كان يقف يومها على قمة الأدب المقاوم...» (السفر إلى ولاية عزرائيل ـ

الطبعة الاولى ١٣٦٣ش (١٩٨٥م) ـ انتشارات رواق ـ ص ٣٥ و ٣٦).

ولعل في هذه الشهادة من شخصية كالسيد علي الخامنئي خير دليل على الأثر العميق لآل احمد في الجيل الذي صنع الثورة.

٥ ـ السفر إلى مكة المكرمة للحج عام ١٩٦٤ ـ والذي عاد منه بأحد أجود أعماله (قشّة في الميقات)، وهو من أمتن كتب الرحلات في الأدب الفارسي.

٦ ـ السفر إلى الاتحاد السوفيتي عام ١٩٦٤ للمشاركة في مؤتمر علم الانسان. وقد كانت ثمرته «رحلة روسيا» وهو كتاب رحلة ذو طابع نقدي يكتسب أهميته من كون المؤلف كان يوماً ما أحد دعاة المدرسة الماركسية. لكن لم يتسنَّ اصدار هذا العمل الاّ في عام ١٩٩٣م بعد انهيار المعسكر الشيوعي.

٧ ـ السفر إلى امريكا عام ١٩٦٥ بدعوة من الندوة الدولية الأدبية السياسية في جامعة هارفاد، وقد عاد جلال منه بـ ١٨١ صفحة من المذكرات اليومية التي نشر اجزاءً منها في مجلة «جهان نو» (العالم الجديد) وضمن كتابه «ملف السنوات الثلاث» لكنه لم يجد الفرصة الكافية لإعدادها بالكامل للنشر بصورة كتاب مستقل.

* * *

أما «نزعة التغريب» فمن الصحة بمكان أن يعتبر أهم أعمال آل أحمد على الإطلاق.. وقد كانت لهذا الكتاب أصداء واسعة في اوساط المجتمع الايراني لاسيما الشريحة الشبابية.. حيث لعب دوراً تغييرياً كبيراً باتجاه عودة المجتمع إلى الذات، وحقق لنفسه مكانة خاصة في ايران والشرق، حتى اعتبره بعض النقاد أهم رسالة ايرانية نوقشت على المستوى العالمي.

في نزعة التغريب يؤكد آل أحمد في أكثر من موضع على الأهمية «المشروطة» للدين والمؤسسات الدينية باعتبارها آخر الحصون أمام التغرب، ونقطة الانطلاق التي بالامكان البدء منها للوقوف بوجه هذا المد الجارف، ودفع الجماهير صوب تحررها الثقافي والسياسي.

لاشك أن آل أحمد يستخدم في كتابه لغة حادة قاسية ذات طابع تهكمي شديد الوطأة،

لكن ذلك سيبدو طبيعياً جداً اذا حاولنا تصور الظروف الشاذة التي فرضها نظام الشاه على الجماهير آنذاك، بحيث مسخ البلاد والشعب إلى منطقة نفوذ سائغة للامركيين.. فجاء «نزعة التغريب» كردّة فعل عنيفة لابد منها إزاء ذلك الوضع غير الطبيعي.

وضمن هذا الإطار أيضاً يمكن أن نفهم ماأشتمل عليه الكتاب في بعض المواضع من آراء متسرّعة وتطرّف ونظرة تشاؤمية مجافية للمنطق. ومع هذا يبقى «نزعة التغريب» من أصدق العلامات وأهم الوثائق الدالة على طبيعة تلك الحقبة من التاريخ الايراني. وتشتد في «نزعة التغريب» ميول آل أحمد للكتابة بلغة شبه عامية ساعدت على مزيد من التواصل بين المؤلف وقرائه.. بيد أن هذه الميزة ذاتها جعلت تعريب الكتاب عملية في غاية الصعوبة. والواقع أن النتيجة لم تأت مرضيةً لي مئة بالمئة رغم كل مابذلته من الجهد، ورغم التصرّف والاضافة والحذف، الذي أضطررت اليه في مواضع كثيرة من الكتاب، والتهميش بتوضيحات تشرح ماقد يشكل على القارىء العربي غير المطّلع على تفاصيل الثقافة الايرانية. وقد ذيّلت هذه الهوامش بكلمة «المترجم» لتمييزها عن الهوامش التي أوردها المؤلف.. كما أدرجت التاريخ الميلادي بعد التاريخ الايراني داخل أقواس ضمن النص نفسه... ويبقى رأي القارىء، هو الذي أرجو أن يكون متسامحاً معي أكثر مما كنت مع نفسي.

ولابد لي هنا أن أشكر الصديق الايراني العزيز غلام عباس بزركر، أحد محرري المجلة الأدبية الشبابية التي تصدر باسم كاتبنا الكبير (جلال)، لما أبداه من مساعدة قيّمة في توضيح بعض التعابير والكنايات العاميّة التي يستعملها جلال بكثرة في أعماله، وفي «نزعة التغريب» على وجه الخصوص، وهي تعابير نادرة الاستعمال أحياناً، ومشتقة من صميم لغة الشارع والثقافة الشعبية الايرانية.

كما لابد لي أن أتقدم بالشكر لصديق ايراني آخر هو عباس جمكراني على ماقدمه من توجيهات، في نفس المجال. وكذلك للاستاذ عبد الجبار الرفاعي رئيس تحرير مجلة «قضايا اسلامية معاصرة» لما أسداه من توجيه بشأن تحرير الكتاب ومراجعته وإخراجه في أفضل صياغة عربية ممكنة.

وبخصوص عنوان الكتاب «غرب زدگي» ينبغي القول إن هناك مجالاً واسعاً لتعريبه بأشكال مختلفة، منها: «التغرّب» و «الإصابة بالغرب» و «الإصابة بالتغرب» و «الإصابة بالتغريب» و «نزعة التغرّب» و «نزعة التغريب» و «التأثر بالغرب» و «التسمّم بالغرب» و «وباء التغرب» و «التضرر بالغرب» و «التغريب» و... الخ، وهذا الأخير هو المستعمل عادة في الكتابات العربية.

لكن الترجمة الحرفية لهذا المصطلح هي «الإصابة بالغرب»؛ لأن «زدن» الفارسية تعني «الضرب» و «زد» هو الفعل «ضرب» الذي له استعمالات ذات تنوع مدهش في الفارسية، لاسيما الفارسية العاميّة، و «زدگي» تعني «تلقي الضربة» أو «الإصابة»، فيقال مثلاً «زلزلة زدگي» أي «التضرر بالزلازل» أو «الإصابة بالزلازل»، و «سيل زدگان» أي «المنكوبون بالسيول»، أو يقال «طاعون زدگي» بمعنى «الإصابة بالطاعون»، أو «سياست زدگي» بمعنى «النزوع السلبي أو المفرط نحو السياسة»، وهنا لابد أن أضيف أن «زدگي» كلمة تحمل طابعاً سلبياً دائماً، فقد تكون «سياسي بودن» أي «النزعة السياسية» أو «كون الانسان سياسياً» ذات معنىً ايجابي يدل على الاهتمامات السياسية أو الوعي والهمّ السياسي وما إلى ذلك... أما «سياست زدگي» فمصطلح يدل من فوره على النزعة والميول السياسية الضارة المفرطة، ولايستعمل إلاّ لهذا الغرض.

وبالتالي فقد سبّب لي هذا المجال الواسع رغم رحابته شيئاً من الحيرة.. غير أن سفينة الرأي استقرت أخيراً على «نزعة التغريب» للعنوان الرئيسي على الغلاف، والاكتفاء بـ«التغريب» وتصريفاتها داخل النص...

حيدر نجف

(١)

كمقدّمة

ستة عشر طناً

ولدت صباح اليوم الذي كانت الشمس فيه مطفأة
حملتُ مسحاتي وسرتُ إلى المنجم.. واستخرجتُ ستة عشر طناً من الفحم.. من الدرجة التاسعة
قال لي مسؤوليَ القميئ: «بخٍّ، بخٍّ.. يعجبني جِدُّكَ»

*

إنكَ تستخرج ستة عشر طناً من الفحم، مقابل أن تشيخ يوماً آخر، وتزدادُ قروضُك !
آه يابطرس القدّيس، لاتفكر في هداية أرواحنا، لأننا بعناها لمخازن الشركات !

*

عندما ترونني قادماً.. خيرٌ لكم أن تتنحّوا جانباً
فالكثيرون ممن لم يفعلوا ذلك سحقوا..
إحدى قبضتيَّ من حديد، والأخرى من الفولاذ
إذا لم تصبكم اليمنى.. أصابتكم الشمال

*

البعض يعتقدون أن الانسان خُلقَ من تراب..
ولكن.. هناك رجلٌ مُعدَمٌ مصاب بالجنون
خُلِقَ من دمٍ وعضلات..

من دمٍ وعضلات وجلدٍ وعِظام..

ومن دماغ ضعيف وظهر قوي !

*

إنك تحمل ستة عشر طناً مقابل أن تشيخ يوماً، وتزداد قروضك

آه يابطرس القديس، لاتطلبنا إلى الموت...

فليس بوسعنا أن نأتي..

لقد أودعنا أرواحنا مخازن الشركات !

شعر: ميرل تريفيس Merle Travis

ألحان: إرني فورد Ernie Ford

نقلاً عن ص ٣٣ «دور ـ ساخت» «كابيتال ريكوردز» الامريكية

(مع الشكر الجزيل لـ«بتي توكلي» التي ترجمت لي هذه الأشعار).

(٢)

مَدْخَل

كانت الصورة الاولى لما ستقرأونه في هذا الكتاب تقريراً قدّمته لـ «مجلس أهداف الثقافة الايرانية»، خلال اجتماعين من اجتماعاته، انعقدا بتاريخ ٨ آذر[١] ١٣٤٠ [٢٩ تشرين الثاني ١٩٦١ م]، و ٢٧ دي[٢] ١٣٤٠ [١٧ كانون الثاني ١٩٦٢م].

وقد نشرت وزارة الثقافة تقارير أعضاء المجلس في بهمن[٣] ١٣٤٠ [٢١ كانون الثاني حتى ١٩ شباط ١٩٦٢م]، لكن هذا التقرير لم يكن طبعاً ضمنها. فلا هو لائق بتلك المجموعة، ولاكان من الممكن نشره أساساً. والواقع أن مؤسسات وزارة الثقافة لم تبلغ من القدرة لحد الآن ما يخوّلها إصدار مثل هذه الكتابات بصفة رسمية.

وهكذا لم ينشر التقرير، وظلّت أيادي الأصدقاء والأعزاء تتداول نسخته المكتوبة بالآلة الطابعة، فقرأوه بدقة، وسجّلوا ملاحظاتهم حوله. وكان الدكتور «محمود هومن» أحد هؤلاء الأعزاء، وقد حثّني بعد قراءة التقرير، على مطالعة بحث للكاتب الألماني «ارنست يونغر» عنوانه «اجتياز الخط». ورغم أن بحث يونغر يدور حول النزعة العدمية، إلاّ أن الدكتور هومن وجد أن كلينا (أنا ويونغر) ناقشنا ظاهرة واحدة، بعينين مختلفتين، وكتبنا عن حالة واحدة بلغتين متفاوتتين. ولأنني لاأجيد الألمانية، فقد استعنتُ به نفسه لأستفيد من خبرته، وأتتلمذ على يديه طوال ثلاثة أشهر، حيث كنا نجتمع كل اسبوع يومين

---

(١) الشهر التاسع من اشهر السنة الايرانية.«المترجم»

(٢) الشهر العاشر من اشهر السنة الايرانية.«المترجم»

(٣) الشهر الحادي عشر من أشهر السنة الايرانية.«المترجم»

على الأقل، ونقضي في كل يوم حوالى ثلاث ساعات. وكانت النتيجة أن ترجمتُ «اجتياز الخط» بحسب إملاءات الدكتور هومن.

وفي تلك الأثناء، أي في بدايات عام ١٣٤١ [ربيع ١٩٦٢] بدأ إصدار «كتاب الشهر» عن «كيهان»، فتضمّن الكتاب الأول، الفصل الأول من «اجتياز الخط» والثلث الأول من «نزعة التغريب». وكان هذا «الثلث» كافياً لأن يحتجب «كتاب الشهر» عن الصدور. وانتهى الأمر إلى اكتمال نواة «نزعة التغريب» وإصدار «كيهان الشهري» التي لم تستمر هي الأخرى أكثر من عدد واحد.

ومع هذا فقد نشرتُ «نزعة التغريب» في مهر[١] من عام ١٣٤١ [٢٣ ايلول حتى ٢٢ تشرين الأول ١٩٦٢م]. وبين ايديكم الآن نصه الكامل، بما أدخلت عليه من إضافات وحذف وتغيير.

وينبغي أن أذكر هنا أنني استعرت مصطلح «نزعة التغريب»[٢] من المفكر الكبير الأستاذ أحمد فردید[٣]، الذي كان أحد أعضاء «مجلس أهداف الثقافة الايرانية»، والذي جرت بيني وبينه مساجلات ونقاشات مثيرة، ضمن ماشهده ذلك المجلس من مساجلات ونقاشات حامية الوطيس. ولابد من التأكيد هنا أن للدكتور فردید آراءً شيقة للغاية في هذا الموضوع «نزعة التغريب» وأرجو أن تكون هذه الصفحات حافزاً له على إذاعتها.

وقد خرجت الطبعة الثانية هذه بتفاصيل أوسع من الطبعة الأولى، حيث حررت النص المفصل في أواخر عام ١٣٤٢ [اوائل سنة ١٩٦٤م]، ليخرج بطبعته الثانية بالقطع الصغير وبعدد اكبر من النسخ. لكنه ضُبط وهو تحت الطبع، وأفلست دار (جاويد) التي

---

(١) الشهر السابع من أشهر السنة الايرانية.«المترجم»

(٢) غرب زدگي

(٣) احمد فردید، مفكر من دعاة العودة إلى الذات، ومناهضة التغريب، ولد في يزد عام ١٩١٢م وتوفي عام ١٩٤٤م في طهران، وكان له تأثير حاسم على أفكار المثقفين الايرانيين، منذ بداية الستينيات، بالرغم من أنه لم ينشر أي مؤلف حتى عُرِف بالفيلسوف الشفاهي.«المترجم»

تصدت لطباعته. وكانت حصيلتي الخجل الممض من مسؤولي الدار.

ولأن الانسان مضطر للانتضار بعض الأحيان، أعدت تحرير النص في فروردين[1] من عام ١٣٤٣ [٢١ آذار حتى ٢٠ نيسان ١٩٦٤م] وبعثته إلى الخارج، ليتولى الشباب الجامعيون (الايرانيون) هناك طباعته ونشره، إلاّ أن هذا لم يتم أيضاً، وأحاق الكيد السيء بأهله.[2]

وأعتذر لأنني لاأتوفر على المزاج والحافز لإعادة كتابته من جديد. وإلاّ لكان بين أيديكم الآن عمل آخر.

طوال هذه المدة، طبع النص الأول للكتاب ونشر عدة مرات في طهران، على شكل استنساخ، وكذلك في كاليفورنيا (مرة واحدة)، وذلك بطريقة سرية طبعاً، وبدون استشارة المرحوم الكاتب[3]. وأهدر الناس الكثير من أموالهم لشرائه[4]. وحفظ الله الرقابة، التي تسلب الانسان حقوق نشر عمله، وتمنحها لأصحاب الجرأة ممن يستطيعون التسويق بأية طريقة ممكنة، ولا تهمهم سوى مصالحهم الآنية.

وقد أثير من الضجيج حول هذه الاباطيل[5] أكثر مما كتب عنها. وأدت إلى شهرة بعض الاسماء، قبل أن تتسبب في إعادة حق إلى نصابه. أما النقاد القلائل الذين استفدت من كتاباتهم وأخذت بالملاحظات الصحيحة في نقودهم، فقد استيقظوا من غفوتهم متأخرين بشكل فاضح، وإلى درجه جعلتني أزداد إيماناً بصحوة هذه السطور.. آمنت بأن هذه الصفحات المشوّشة، وخلافاً لتوقعات كاتبها، جديرة بأن تبقى لحد الآن، بعد ستة أو سبعة أعوام، مثيرة للنقاش والجدل. فقد كنت أتصور أنها ليست اكثر من بحث حول

---

(١) الشهر الأول من السنة الايرانية ـ المترجم.

(٢) تعابير ساخرة.«المترجم»

(٣) تعابير ساخرة.«المترجم»

(٤) تعابير ساخرة. «المترجم»

(٥) تعابير ساخرة.«المترجم»

قضية آنية، ولن يستطيع المقاومة لأكثر من سنة أو سنتين، على أحسن التقادير. ولكن، ترون أن الوجع مازال يقسو على الجوارح، والمرض يزيد من دائرة انتشاره يوماً بعد آخر. ولهذا وافقتُ على نشره رغم كل مافيه من آراء وتصورات متسرّعة. وعذراً إذا ماظلَّ القلم جريئاً بعد كل تلك المراجعات والرقابة الذاتية.

آمل أن تحفظوه من مخالب خناسي العصر، أعوان الشياطين.

(٣)

وباء التغريب

أقول التغريب كما أقول الكوليرا، وإذا كان هذا التعبير جارحاً، فكما أقول ضربة الشمس أو نزلة البرد، وإن لم تكن هذه ولاتلك، تمثيلاً دقيقاً، فهو في أقل تقدير ظاهرة كآفة القمح. ربما تعلمون كيف تنخر هذه الآفة حبة القمح؟ تنخرها من الداخل..

فتبقى القشور صحيحة، كأنْ لم يصبها شيء، لكنها في الواقع قشور فارغة، بالضبط كالقشور التي تبقى عن الفراشات على الاشجار.

حديثنا هنا عن مرض من الامراض..عن عارض وفد من الخارج، ونما في بيئة مستعدة للاصابة، ومانرمي إليه، هو دراسة خصائص هذا الوباء وأسبابه، وإذا سنحت الفرصة، فقد نتطرق إلى سبل علاجه.

للتغريب طرفان: أحدهما الغرب، والآخر نحن المتغربين في الشرق.

فالحديث إذن عن طرفين متقابلين في عالم اليوم.

جغرافياً، يمثل الغرب تخوماً تشمل اوروبا بأكملها، والاتحاد السوفيتي، واميركا الشمالية، ولكنه جوهرياً، يتشكل من البلدان المتقدمة، او البلدان الصناعية، أو قل جميع البلدان التي بوسعها تحويل الخامات إلى منتوجات معقدة بواسطة الآلة، وعرضها بعد ذلك في الأسواق العالمية، وليست هذه الخامات مادية فقط، كخامات الحديد أو النفط، أو أمعاء الحيوانات، أو القطن وما إلى ذلك، بل هي الأساطير أيضاً، وأسس العقيدة والموسيقى والعوالم الروحية للأمم.

أما الطرف الثاني من المعادلة، والذي يسمى اصطلاحاً بالعالم الشرقي، فإنه يتشكل جغرافياً من بلدان آسيا وافريقيا، ويكتسب ماهيته من الواقع المعاش في كل البلاد

المتخلفة، أو مايسمى بالبلدان النامية، أو البلدان غير الصناعية، أو مجموعة البلاد المُستهلِكة للصناعات الغربية..الصناعات التي سافرت خاماتها من عندنا، لترجع إلينا في شكل سلع ليس بوسعنا إلّا استهلاكها.

فالنفط يسافر من سواحل الخليج، والتوابل وألياف الخيوط من الهند، وموسيقى «الجاز» من افريقيا، والحرير والافيون من الصين، وعلم الانسان «الانثربولوجيا» من جزر المحيط الهادئ، وعلم الاجتماع من افريقيا، وهذان الأخيران من اميركا الجنوبية أيضاً..أي من قبائل الـ«آزتك» والـ«آنكا» التي راحت عن بكرة أبيها ضحية التبشير المسيحي!

لاتتسع هذه الصفحات لإعطاء تعريف متكامل لكل واحد من هذين الطرفين، ودراستهما من النواحي الاقتصادية والسياسية والمجتمعية والنفسية والحضارية، فهذه مهمة دقيقة تحتاج إلى ألوان مختلفة من التخصص، ولكننا بالطبع سنضطر في خضم البحث، إلى الاستعانة ببعض معطيات هذه العلوم، بحسب ماتسمح به معلوماتنا.

النقطة المهمة التي ينبغي الاشارة إليها في هذا المضمار، هي أن الشرق والغرب ليسا في رأيي مفهومين جغرافيين، فقد يكون الغرب بالنسبة للاوروبي أو الاميركي، عبارة عن اوروبا واميركا، والشرق بالنسبة له، يعني روسيا السوفيتية والصين ودول اوروبا الشرقية. أما الشرق والغرب من وجهة نظري، فلايحملان مضموناً سياسياً أو جغرافياً، بل هما مفهومان اقتصاديان، فالغرب يعني البلدان المتخمة، والشرق يمثل البلدان الجائعة، وعلى هذا الاساس، تكون حكومة افريقيا الجنوبية قطعةً من الغرب، بالرغم من أنها تقع في أقصى الجنوب الافريقي، وغالبية بلدان اميركا اللاتينية هي في الواقع جزءٌ من الشرق، مع أنها جغرافياً في النصف الغربي من الكرة الارضية.

من المعروف أن أفضل وسيلة لتسجيل شدة الزلازل وخصائصها، هي تلك الاجهزة المتطورة المتوفرة في المختبرات والجامعات. ولكن من المعروف أيضاً أنه قبل أن تسجّل هذه الأجهزة أي شيء عن الزلزال، تلوذ خيول المزارعين (مهما كانت قذرة) بالفرار إلى الصحاري الآمنة. وكاتب هذه السطور، يحاول أن يرى ويسمع ويذيع أشياءً

تجاوزها الآخرون بكل سهولة، أو أنهم لم يجدوا في الإفصاح عنها فائدة لمعاشهم ومعادهم.

إذن، لنعرِّف بلدان الفئة الاولى بهذه الخصائص؛ الأجور العالية، الوفيات القليلة، الولادات القليلة، الخدمات الاجتماعية المنتظمة، المواد الغذائية الكافية (٣ آلاف سعرة في اليوم كحد أدنى)، دخل فردي يزيد على الثلاثة آلاف[1] تومان في السنة، مظاهر ديمقراطية، بتراث من الثورة الفرنسية الكبرى.

وفي المقابل، تمتاز بلدان المجموعة الثانية بهذه الخصائص: الأجور المنخفضة، معدل الوفيات العالي، معدل الولادات المرتفع، الخدمات الاجتماعية؛ لاشيء (أو أنها ذات طابع استعراضي فقط)، الفقر الغذائي (ألف سعرة في اليوم كحد أعلى)، دخل فردي دون الخمسمائة تومان في السنة، جهل كامل بالديمقراطية، بتراث من الصدر الأول للاستعمار.

ولاحاجة بنا للتذكير أننا ننتمي للفئة الثانية..لمجموعة البلدان الجائعة، في مقابل المجموعة الاولى التي تمثلها البلدان المتخمة، حسب تعبير «خوزه دوكاسترو» في كتابه «جغرافيا الجوع». وتلاحظون أن الذي يفصل بين هذين القطبين ليس مجرد مسافة مكانية شاسعة فحسب، وإنما (وعلى حد تعبير «تيبورمندي») هاوية سحيقة تزداد عمقاً واتساعاً يوماً بعد آخر، حتى إن الثراء والفقر، القوة والضعف، العلم والجهل، العمارة والخراب، والحضارة والتوحش في دنيا اليوم، أصبحت ظواهر قطبية، قطب بيد المتخمين والأثرياء وأصحاب القوة والصناعة والتصدير، والقطب الآخر من نصيب الجياع والفقراء والضعفاء والمستهلكين والمستوردين. في ذلك الطرف من العالم تبدو وتائر التطور والتقدم تصاعدية دائماً، وفي هذا الطرف تبدو جميع المؤشرات متجهة صوب الانحطاط والعدم.

---

(١) تعادل حوالى ٤ دولارات اميركية، وكانت قيمتها عند تحرير الكتاب أضعاف أضعاف ذلك.«المترجم»

فوارق لا يمكن القول إنها وليدة الفواصل الزمكانية، ولايمكن قياسها بالكم..لأنها تمثل تبايناً نوعياً بين قطبين متباعدين متنافرين، في ذلك الطرف، عالم يفزع من سرعته، وفي هذا الطرف عالمنا الذي أُقفلت في وجهه كل الأبواب، فلم يعد يدري أين يمارس نشاطاته، التي غالباً ما تذهب سدىً[1].

لقد مضى دون رجعة زمن تصنيف العالم إلى معسكرين، شرقي وغربي، أو معسكر شيوعي وآخر رأسمالي. ومع أن المادة الأولى من القانون الأساسي لأغلب حكومات العالم ماتزال تدعي هذه الأكذوبة. إلاّ أن التواطؤ الذي انزلقت إليه اميركا والاتحاد السوفيتي (الزعيمان المطلقان للمعسكرين المذكورين كما يُتَصوّر) فيما يخص قضية السويس وكوبا، أكد أن زعماء القريتين المتجاورتين يمكن ان يجلسوا بسهولة على طاولة واحدة، لتتمخض عن ذلك معاهدات حظر التجارب النووية، وماإلى ذلك من المخادعات.

كما أن عصرنا لم يعد عصر الصراع بين الطبقات الفقيرة والطبقات الغنية، أو عصر الثورات الوطنية العارمة، ولا هو عصر السجال بين النظريات والايديولوجيات الكبرى.

لذلك ينبغي عند ملاحظة أي اضطراب أو انقلاب أو تمرد في زنجبار أو سورية أو أروغواي، البحث فيه عن الأصابع التآمرية للشركات الاستعمارية. بل لم يعد من الممكن اعتبار الحروب الاقليمية في عصرنا حروباً عقائدية، ولو بالمعنى الظاهري للكلمة. فاليوم يستطيع أي طالب ابتدائية أن يرى خلف كواليس الحرب العالمية الثانية، نزعات تطوير الصناعات التكنولوجية، التي كان يحملها الطرفان المتحاربان. وحتى في قضايا كوبا، والكونغو، وقناة السويس، والجزائر، يمكن أن نرى على الترتيب معارك السكر والألماس والنفط. أو في مذابح قبرص، وزنجبار، وعدن، وفيتنام، نستطيع بسهولة ملاحظة نزاعات الحصول على محطات لحماية الطرق التجارية، التي تعد المؤثّر الأول في تحديد سياسات

---

(١) بتصرف عن «عالم بين الخوف والرجاء» لتيبورمندي ـ ترجمة: خليل ملكي ـ طهران، ١٣٣٩ش (١٩٦٠م).

الدول.

عصرنا، لم يعد عصر تخويف الجماهير في الغرب من الشيوعية، وفي الشرق من البرجوازية والليبرالية. فاليوم يستطيع حتى الملوك أن يظهروا بمظهر الثوريين، ويطلقوا العبارات الرنّانة الجوفاء. كما يستطيع خروشوف استيراد القمح من الولايات المتحدة !! فجميع النظريات والايديولوجيات اليوم، ماهي إلاّ جسور للوصول إلى عرش الصناعة والتكنولوجيا. ولعل أغرب حالة على هذا الصعيد، هي انحراف البوصلة السياسية لليساريين والمتظاهرين باليسارية في العالم، صوب الشرق الأقصى، وتغييرها المؤشر ٩٠ درجة من موسكو إلى بكين. فالاتحاد السوفيتي لم يعد «رائد الثورة العالمية». وإنما مفاوض من الطراز الأول تعرفه طاولات القوى النووية العظمى. بل إن الضرورة تقتضي وجود اتصال تلغرافي مباشر بين الكرملين والبيت الابيض. وبذلك تنتفي الحاجة حتى للوساطة الانجليزية بينهما. واليوم أدرك حتى زعماء بلادنا أن الخطر السوفيتي قد تراجع. فالمرتع الذي كان يقتات عليه الاتحاد السوفيتي لم يكن سوى فتات مائدة الحرب العالمية الاولى. أما الآن فالعهد عهد مكافحة الستالينية. وإذا براديو موسكو يطلُّ علينا بتأييد اصلاحات السادس والعشرين من يناير ! وعلى كل حال فقد تبوأت الصين الشيوعية المكانة السابقة التي كان يتربع عليها الاتحاد السوفيتي. لماذا؟ لأنها الآن بالضبط كروسيا عام ١٩٣٠، تدعو جميع الجياع في العالم إلى الوحدة، على أمل بلوغ جنة الميعاد. وإذا كانت نفوس روسيا آنذاك مائة ونيّف مليون نسمة، فالصين الآن ٧٥٠ مليون إنسان.

صحيح أننا اليوم (على حد تعبير ماركس) لدينا عالمان متنازعان، لكن هذين العالمين لهما حدود أوسع بكثير مما كان في زمانه. والنزاع اليوم أعقد بكثير من صراع العامل ورب العمل في الماضي. عالمنا الراهن، عالم ثنائية المعدمين والموسرين، وعالم قطبين متعاكسين تماماً: أحدهما للصناعة والابداع وتصدير الآلة. والثاني للاستيراد والاستهلاك والتبذير.. الأول صانع والثاني مستهلك. أما المسرح الذي ينهض بهذه التمثيلية المحزنة، فهو أسواق العالم بأجمعها. وأما الأسلحة المستخدمة لفرض هذه

المأساة، ففضلاً عن الدبابات والمدافع والقاذفات والصواريخ التي هي من صنع الغرب طبعاً، هنالك اليونسكو والفاو ومنظمة الامم المتحدة وباقي المؤسسات التي تسمى دولية، وتعتبر في الظاهر عالمية وللجميع، ولكنها في الواقع أقنعة غربية، تتحرك لاستعمار العالم الآخر في اميركا الجنوبية وآسيا وافريقيا. وهنا يكمن أساس التغريب الذي منيت به شعوب العالم الثالث.

ليس الحديث عن إلغاء الآلة أو استبعادها، كما ذهب لذلك أنصار «اوتوبي» في بدايات القرن التاسع عشر.. أبداً.. فعولمة الآلة حتم تاريخي لامفر منه. وانما الحديث عن أسلوب التعامل مع هذه الآلة، وارضيتها التكنولوجية.

المسألة هي أننا شعوب البلدان النامية (أو بلدان الفئة الثانية) لانصنع الآلة. غير أننا يجب أن نبقى، بحكم سطوة الاقتصاد والسياسة، وثنائية الفقير والغني، مستهلكين طيبين ومسالمين للمنتوجات الغربية. أو في أفضل الحالات، لابد أن نكون مصلّحين متنوعين خانعين للمكائن التي تتدفق علينا باستمرار من العالم الغربي. ومجرد هذا يقتضي أن نخضع لسلطان الآلة، وننسّق انظمتنا الحكومية والثقافية وحياتنا اليومية، وكل أمورنا بالشكل الذي يتناسب وإرادة هذا المارد الجديد. وإذا كان صانع الآلة قد تعود تدريجياً طوال مئتين أو ثلاثمائة عام على هذا الإله الجديد، واستطاع أن يكيّف نفسه مع شرائعه وقوانينه، فماذا يفعل ذلك «الكويتي» المسكين، الذي لم تأته الآلة إلاّ البارحة، أو ذلك الافريقي، أو أنا الايراني؟ كيف نريد أن نقفز على هذه الهوة التاريخية الممتدة طوال ٣٠٠ عام من الزمان؟!

القضية المركزية التي أحاول التأكيد عليها في هذا الكتاب، هي أننا لم نستطع صيانة شخصيتنا الثقافية ـ التاريخية قبال الآلة وهجماتها المحتّمة، وإنما سُحِقنا وذبنا تحت عجلاتها[1]. وأصل المشكلة هي أننا عجزنا عن اتخاذ موقف مدروس حيال هذا الغول

---

(١) قدّمت نموذجاً محدداً لهذه الحالة في كتاب «جزيرة خارك» ـ انتشارات دانش ـ طبعة طهران ١٣٣٩ش [١٩٦٠]

المعاصر.

إننا مالم نعِ ماهية وأساس وفلسفة الحضارة الغربية، ومادمنا نصر على تقليد حركات الغرب بصورة ظاهرية وسطحية (عبر استهلاك منتوجاته)، فلن نكون اكثر من ذلك الحمار الذي لبس جلد الأسد، وكلنا يعلم ماذا كان مصيره. وإذا كان صانعو الآلة قد علت أصواتهم اليوم، وبدأوا يشعرون بالأزمة، فإننا لانطلق حتى أنيناً بسيطاً من وطأتها، لأننا في الواقع من خدامها، بل وممن يتفاخر بخدمتها. ومازلنا منذ مئتي عام، كأننا غراب يريد أن يخلع على نفسه شكل القُبّرة.

نخلص من كل ماسلف إلى أننا مادمنا مقتصرين على الاستهلاك، ومالم ننتقل إلى صنع الآلة، فنحن متغرّبون. والمضحك هو أننا حين نصنع الآلة سنعود متغربين أيضاً، بالضبط كالغرب الذي يستغيث اليوم من انفلات التكنولوجيا والماكنة.(١)

إننا لم نكن نتحلّى حتى بعزيمة اليابان، التي شمرت عن ساعديها قبل مائة عام لإكتشاف اسرار الآلة. ولأنها حلمت بمنافسة الغرب في هذا المجال ومجالات سياسية أخرى، ووجهت ضربات موجعة لقياصرة روسيا في عام ١٩٠٥ ولأميركا في عام ١٩٤١، وكانت قبل هذا قد انتزعت منهم أسواقهم، فقد قصفوها بالقنبلة الذرية، لتعلم «أي ارتجافٍ يعقِب أكل البطيخ !»(٢)، واليوم حيث نرى الامم الغربية «الحرة» تفتح جانباً مما تحتكره من أسواق، أمام البضائع اليابانية، فلأنهم أصحاب استثمارات في جميع الصناعات اليابانية، وأيضاً بهدف التعويض عن التكاليف الباهظة للسيطرة العسكرية على الارخبيل، الذي ثاب زعماؤه إلى رشدهم بعد الحرب العالمية الثانية، فعادوا بدائيين في تسلّحهم وقواتهم ومعداتهم العسكرية.

وربما كان السبب هو أن السذاجة الاميركية، أرادت إخماد تأنيب الضمير، الذي قاد

---

(١) كمثال يراجع France contre Les Robots للكاتب الفرنسي جورج برنانوس.

(٢) مثل فارسي يطلق على العاقبة السيئة تكون أبهظ من فائدة الشيء الأولية، فالذي يأكل البطيخ، تأخذه الرجفة بعد ذلك من برودته. «المترجم»

إلى جنون قائد تلك الطائرة الجهنمية[1]، التي أحيت قصص عاد وثمود في هيروشيما وناكازاكي.

وهنالك بديهية أخرى، مفادها أن «الغرب» لم يطلق علينا اسم «الشرق» إلا بعدما استيقظ من سباته الشتوي الذي امتد به طوال القرون الوسطى، وجاء إلى الشرق يبحث عن الشمس، والتوابل، والحرير، والامتعة الاخرى، فدخل أولاً بزي زوّار الاماكن المقدسة المسيحية، في بيت لحم والناصرة، ثم جاء بعدها متقلداً سلاح الحروب الصليبية، وبعدها ثياب التجار، ثم متمرساً داخل سفنه المكدسة بالامتعة، ثم بذريعة التبشير المسيحي، وأخيراً باسم الدعوة للتحضّر..وكان هذا الاخير اسماً منزلاً من السماء، فالاستعمار له جذوره في كلمة «العمران»...ومن يعمل في «العمران» يرتبط بالمدنية والتحضر من قريب أو بعيد.

ومن بين كل البلاد التي اغتصبها هؤلاء السادة، كانت أفريقيا الأطوع والأبعث على الأمل في نفوس المستعمرين..أما السبب، فهو فضلاً عما يتوفر في هذه القارة من المواد الخام (الذهب والألماس والنحاس والعاج والكثير من الخامات الاخرى)، فإن أهاليها لم يكونوا راسخين في مدنية تقليدية معينة، أو ديانة كبرى، بل كان لكل قبيلة إلٰهها الخاص، وزعيمها وآدابها ولغتها..وهل هذا إلا التعثّر والقابلية للاستعمار؟! والأهم من كل ذلك أن الافارقة يسرحون في الأرض عراةً، بسبب الحر الشديد الذي يمنع الانسان هناك من لبس شيْ من الثياب، وحينما عاد السائح الانجليزي (استانلي)، وكان صاحب نزعة انسانية إلى حدٍ ما، حينما عاد إلى بلاده، أقيمت احتفالات وابتهاجات حاشدة في مانشستر.

ذلك ان تمدين قبائل الكونغو، بخلع ثلاثة أمتار من الثياب في السنة، على كل واحد من

---

(١) اسم هذا الطيار «كلود اتيرلي»، راجع الكتاب أدناه الذي يضم مراسلاته مع كاتب نمساوي بتقديم برتراند رسل. وقد ترجم عام ١٣٤٢ش [١٩٦٣م] على شكل حلقات في مجلة «فردوسي»، ترجمة ايرج قريب تحت عنوان «تدمير هيروشيما».Avoirdetruit Hiroshima - Ed Robert Laffont Paris

رجالهم ونسائهم، وسوقهم كل يوم أحد إلى الكنيسة، كان يعني تسويق ٣٢٠ مليون يارده من أقمشة مانشستر في السنة[1]، ونعلم أن طليعة الاستعمار هم المبشرون المسيحيون، الذين كانوا يبنون كنيسة فارعة بجوار كل وكالة تجارية في العالم، ويدعون الأهالي المحليين لحضورها بلطائف الحيل.

ومن الاسباب الاخرى التي جعلت أفريقيا اكثر تقبلاً للرضوخ، وأدعى إلى طموح المستعمرين، هو أن سكانها ذاتهم، كانوا عبارة عن مواد خام لنوع آخر من المختبرات الغربية، فبالامكان إرساء قواعد علم الانسان (الانثربولوجيا)، والاجتماع، وعلم الأجناس البشرية، وعلم اللغات، وألف علم آخر على أرضية الخامات البشرية في افريقيا واستراليا، والهدف من كل هذا بقاء اساتذة كمبريج والسوربون وليدن متهالكين على مقاعدهم، وليبصروا الوجه الثاني لحضارتهم، في البداوة الافريقية.

أما نحن سكان الشرق الأوسط، فلم تكن لنا القابلية للاستعمار، ولاتلك القدرة على بعث الأمل في قلوب المستعمرين...

لماذا؟

إذا أردنا الإجابة بصراحة أكثر، مع التركيز على بعض الخصوصيات، أمكننا إعادة صياغة السؤال بالشكل الآتي: لماذا لم تكن لنا نحن الشرقيين المسلمين مثل تلك القابلية؟

وهكذا نجد الجواب مُدرجاً في منطوق السؤال، فنحن في داخل «كُلّنا الاسلامي» لم نكن مادة سهلة للدراسة، لذلك وجد الغرب نفسه في التعامل معنا مضطراً للاصطدام بهذا الكلّ الاسلامي، ويتجلّى هذا في ظاهرة تشجيع الدموية أبان العهد الصفوي، وفي زرع الخلاف بيننا وبين العثمانيين، وفي تبنّي البهائية أواسط العهد القاجاري، وفي تفتيت العثمانيين بعد الحرب العالمية الاولى، وبالتالي في مجابهة علماء الدين الشيعة خلال ثورة المشروطة «الدستور» فما بعد، وليس هذا فحسب، بل حاول الاستعمار تمزيق

---

(1) Du Zamdeze au Tanganika 1858 - 72 Par:Lirvingstone at stamley,Paris,1958

ماتبقى من هذه الوحدة الظاهرية، التي يعلم هو علم اليقين، أنها متهرئة من الداخل، وذلك ليجعلنا كالأفارقة، خامات صالحة للدراسة في مختبراته.

ومن هنا كانت «دائرة المعارف الاسلامية» أهم موسوعة دوّنها الغربيون عن الشرق. ولقد كنّا نغطُّ في سبات عميق، عندما أخذ الغربي دائرة المعارف هذه إلى المختبر.

وكانت الهند أجدر بتصنيفها ضمن البلاد الأفريقية لما فيها من كثرة اللغات، وتراكم الاجناس البشرية، والفرق الدينية، أما أميركا الجنوبية، فقد تحوَّلت إلى المسيحية عن بكرة ابيها بسيوف الاسبان.

وأقيانيا (المحيط الهادئ) كانت في الواقع أرخبيلاً مناسباً جداً لزرع بذور الخلافات والتفرقة، وهكذا لم يكن سوانا، بكلّنا الاسلامي، من يشكل سداً مقابل تيار الاستعمار المسيحي القادم بأقنعة الحضارة الغربية، وبكلمة اخرى لم يكن سوانا من يقف مقابل اكتشاف اسواق جديدة للسلع الغربية.

إن المدفع العثماني الذي توقف في القرن التاسع عشر خلف بوابة فيينا، كان نهاية حادثة بدأت في الاندلس عام ٧٣٢ ميلادي[١]. وإذا لم نسمِّ هذه القرون الاثني عشر من التناحر والتنافس بين الشرق والغرب بـ«صراع الاسلام والمسيحية»، فماذا نسمِّها إذن ؟!

وعلى كل حال، ففي الوقت الحاضر، أجد نفسي أنا الآسيوي المتبقي عن ذلك الكل الاسلامي، أقف على مستوىً واحد مع ذلك الافريقي، أو الاسترالي المتبقي عن البداوة والتوحش، في قابلية الرضوخ للشعوب الغربية المتمدنة ـ صانعة الآلة، وفي الرضا بالسكن في متاحف العلوم المختلفة، وبأن أكون مجرد شيء للدراسة في المتحف أو المختبر، ليس إلاّ.

بل إن القضية اليوم، لم تعد تتعلق بالاستغلال الاستعماري لنفط خوزستان أو نفط

---

(١) أشير إلى إنكسار عبد الرحمن الداخل (مؤسس الخلافة الاسلامية في الاندلس) مقابل القائد الفرنسي شارل مارتل في (بواتيه)، وتوقف اتساع الخلافة الاسلامية الغربية في بداية القرن الثامن الميلادي، ولاتنسوا أن مارتل هذا اليوم اسم كونياك معروف!!

قطر أو أن المستعمرين فعلوا كذا بألماس «كاتانغا» ولم يفعلوا كذا بأحجار «الكروميت» في كرمان. وإنما القضية اليوم هي أنني أنا الآسيوي أو الافريقي، يجب أن أصون آدابي وثقافتي وموسيقاي وديني، وكل مايتعلق بي، من أي تصرف أو تطوير، وأحفظها كما تحفظ الآثار المستخرجة من تحت التراب، ليأت السادة الغربيون، فينقبوا فيها ويأخذوا ويضعوا في المتاحف مايروق لهم، لتسجل باسمهم اكتشافات جديدة[1]!بعد كل هذه المقدمات، اسمحوا لي كإنسان شرقي يقف على أرضية التراث الواسعة، أن أصف التغريب بمايلي: مجموعة الأعراض التي تطرأ على حياتنا في جوانبها الثقافية والحضارية والفكرية، من دون أن يكون لها أية جذور في التراث، أو أي عمق في التاريخ، وبدون أن يكون دخولها تدريجياً يسمح بالاستعداد لها.. وإنما تداهمنا دفعة واحدة لتقول لنا: أنا هدية الآلة إليكم.التغريب إذن، مؤشر حقبة من تاريخنا، لم نضع فيها اليد على الآلة، ولم تكن لنا معرفة بنظامها وبنائها. ولم نتوفر خلالها على مقدمات الآلة، أي العلوم الحديثة والتكنولوجيا، والتغريب بعد ذلك، خصوصية فترة من تاريخنا، اضطررنا فيها، تحت وطأة جبر السوق والاقتصاد، وتداول النفط، إلى استيراد واستهلاك الآلة.

كيف حلّت هذه الحقبة؟ ولماذا ابتعدنا تماماً عن تطورات وتكامل الآلة، في حين هرع الآخرون إلى الصناعة والعمل، فبلغوا أهدافهم، ولم نستيقظ إلاّ حينما كان كل برج من ابراج الشركات النفطية الاجنبية، مسماراً موجعاً مضروباً في هذه الأرض الطيبة؟! كيف أصابنا التغريب؟! لنعد إلى التاريخ...

---

(١) لصديقي الموسيقار ثمين باغجه بان مقالٌ غير منشور حول مؤتمر الموسيقى المنعقد في فروردين ١٣٤٠ش بطهران (نيسان ١٩٦١م)، يقول فيه: «ليس أهم بالنسبة لداينه لو (الفرنسي) من أننا كنا نعيش في عهد الملوك الساسانيين وأننا مناسبون بالنسبة له كقادم من القرن العشرين للدراسة والبحث. فيكون قد دخل بأجهزته الدقيقة ومسجلاته المتطورة إلى البلاط الساساني ليسجل فنون باربه ونكيسا، ثم يعود من المطار المجاور لعاصمة الساسانيين، والمقام خصيصاً للمستشرقين وخبراء الشعر والرسم والموسيقى، إلى باريس بطائرة الجت ايرفرانس».

(٤)

بدايات الوَبَاء

تدل الحقائق التاريخية، أننا كنا ننظر إلى الغرب دائماً. وحتى كلمة «الغربي» وضعناها نحن قبل أن يسمينا الغربيون «شرقاً». وبالامكان مراجعة ابن بطوطة «المغربي» للتأكد من صحة هذا القول.

منذ فجر الحضارة الإسلامية، وحتى انهيار كل القيم أمام جيوش التكنولوجيا الجرارة، كنّا في هذا الطرف من العالم باعتبارنا جزءاً من كم حضاري هائل، ننظر إلى العالم وفق رؤيتنا الخاصة، ونقيّم الأمور بمعاييرنا الذاتية. ولو عدنا ألفاً أو ألفي عامٍ إلى الماضي، وألقينا نظرة شاملة لتاريخنا، لوجدنا أن منطقتنا هذه بالذات (الشرق الأوسط) كانت مهد كلدة، وآشور، وعيلام، ومصر، واليهودية، والبوذية، والزرادشتية، وهذه كلّها حضارات ظهرت في رقعة واسعة من الأرض، تمتد من وادي السند الىٰ وادي النيل، وهي فوق ذلك حضارات أسست للمحتوى الذي شكل بعد ذلك الحضارة الغربية، وهذا بالطبع ليس من باب التفاخر والغرور.

ولم تكن هذه الـ«نحن» المتعددة، لتهتم طوال تلك العهود والعصور، بالشرق الاقصى الذي يأتيها منه؛الخزف،والطباعة، والكرسي، والتصوّف، والرسم، والرياضات الخاصة كـ«الزِن zen»، والزعفران، والتوابل و... الخ، لم تكن تهتم بـه بقدر اهتمامها بالعالم الغربي.. وبسواحل المتوسط، واليونان، ووادي النيل، وليديا (في تركيا الحالية)، وبالمغرب الأقصى، وبحر الشمال الغني بالعنبر.

أمّا لماذا كنّا هكذا ؟ فليس بوسعنا الإجابة عن هذا السؤال إلاّ حدساً وتخميناً.. ولابد هنا من تضييق نطاق البحث، وحصره بنا نحن الايرانيين.

ربما كان السبب كامناً في نوع من الهروب من أصولنا الهندية. أي أن اهتمامنا بالغرب كان وليد نوع من القوة الطاردة عن المركز.. وهذا مايجب أن يقول فيه كلمة الفصل خبراء الأجناس البشرية، وعلماء اللغات (خصوصاً الهند اوربية)، ودعاة الآرية.. ولكن، لا أحد يشك، على كل حال، في حقيقة الأحضان الأمومية التي كانت تستقبلنا بها بلاد الهند في أيام الشدة والعسر. فالهند هذه كانت تارة ملجأً لفلول الزرادشتيين، الذين ارتكبوا حماقتهم الكبرى، عندما لم يرضوا حتى بالجزية الاسلامية، وهربوا لاجئين إليها، محطّمين خلفهم كل جسور العودة. والفرس الهنود اليوم هم أخلاف أولئك، وهم الذين أعانوا الغزو الانجليزي للهند بكل خسّة، خلال عهد الاستعمار. واليوم نراهم يقبضون بكل قوة على الأرستقراطية الصناعية في تلك البلاد. وتارةً أخرى، كانت الهند ملجأً آمناً للايرانيين عند هجوم المغول. وتكررت الحالة عندما جُنَّ جنون السيف الصفوي البتار، الخارج من غمد الطرق الصوفية. وفي المرتين الأخيرتين، أدى الهروب إلى صيانة ثروات فكرية هائلة، وحفظ أرصدة إنسانية وثقافية مهمة. ومع أن هذا الحجر الأمومي الدافىء كان دوماً ملاذاً لنا نحن الأطفال المشردين، ولكن؛ هل سمعتم بطفل بلغ أشدَّه وهو في أحضان أمّه ؟! حتى الاسلام لم يكتب له أن يحقق شيئاً في مكة، لذلك كانت الهجرة إلى المدينة. وبعدها بسنوات أرسى هذا الدين الجديد، دعائم امبراطوريته الكبرى في بغداد ودمشق والقاهرة، وفي اشبيلية وقرطبة. أما المسيحية التي انطلق نداؤها من الجليل والناصرة، فلم ترفرف راياتها إلاّ في مركز العالم الوثني بروما. والمانوية التي اندلعت من طيسفون[1]، قضت نحبها في تورفان. وبوذا الذي طلعت براعمه من التراب الهندي، إنتهى به المطاف في أرض الشمس الساطعة. وعلى هذا المنوال توجّهنا نحن إلى الغرب، بعد أن فررنا من أمّنا الهند (إن كان هذا صحيحاً) وأدرنا لها ظهر المجنّ. ورغم ذلك فقد بقيت تربطنا بها بعض العلاقات، منها العلاقات الايجابية الطيبة، كتردد بزرجمهر، أو تأملات الصوفية، أو زيارة «سرنديب». ومنها العلاقات السلبية، التي تمثلت في غزوات محمود

---

(١) إحدى المدائن السبعة في العراق على بعد ٣٢ كيلو متراً من بغداد.«المترجم»

الغزنوي، وغارات نادر شاه. إلاّ أننا في كل هذه العلاقات لم نكن أوفياء أبداً، ولم نقصد صلة الرحم على الإطلاق، وأنا أعتقد أن أحد أسباب مانسميه اليوم بالتغريب، هو هذا النفور من المركز، الذي ربما كان أيضاً هروباً من حرارة الشمس.

ومن الممكن أن يكون اهتمامنا الدائم بالغرب، قد برز نتيجة الضغوط التي مارسها ضدنا بدو الشمال الشرقي. فكما جاء الآريون ليدحروا عفاريت الشاهنامه من مازندران إلى سواحل الخليج.. ومنهم «التوارنيون»[1] و«الهياطلة»[2].. كذلك واصلت القبائل الرحّل (سواء كانت تركية أو فارسية) حمل مساكنها على ظهور الخيل، لتخبُّ نحونا بين الحين والآخر، بحثاً عن المراتع التي تعوّض بها عن الجفاف المزمن، الذي يفاجئوها بين الآونة والأخرى. وقد قضى «كوروش» نحبه في تلك الصحاري البعيدة (شمال شرق ايران) اثناء حربه مع «السجيين»![3] ومن تلك البيداء أيضاً انطلق الغزنويون والسلاجقة والمغول في هجماتهم ضدنا. وفيها أيضاً قُتِل «سياوش» على يد «أفراسياب».

وعموماً ليس ثمة عهد من عهودنا التاريخية أو الأسطورية لم يحمل على جبينه آثار حوافر القبائل الزاحفة من الشمال الشرقي لايران. وجميع سلالات السلاطين في العهد الاسلامي، باستثناء حالة أو حالتين، أسسها هؤلاء الأشقياء البدائيون. ومثل هذا يمكن أن يقال حتى عن عصور ماقبل الاسلام، وإلاّ فَمن هم البارتيون[4]؟ بل إن القبائل هي التي

---

(١) من الأقوام المذكورة في ملحمة ابو القاسم الفردوسي «الشاهنامه». كانوا يقطنون مناطق تركستان أو ماوراء النهر (نقلاً عن «فرهنگ جامع شاهنامه» للدكتور محمود زنجاني ـ ط اولى ١٣٧٢ش (١٩٩٣م) منشورات عطائي ـ ص٣١٩). «المترجم»

(٢) أقوام توجهت في زمن الملك الساساني پيروز من الصين إلى طخارستان وهزموا وأسروا پيروز (م. س ـ ص ١٠٥٠). والهياطلة هو الاسم الذي أطلقه العرب على قبائل الهون.«المترجم»

(٣) قبائل كانت تسكن شمال شرقي ايران القديمة، وتسببت دائماً في استفزاز الحكومات المركزيه الايرانية قبل الاسلام. «المترجم»

(٤) ايرانيون من خراسان وگرگان شمال شرق ايران، برز منهم من ثار على الاحتلال اليوناني لإيران

صنعت تاريخنا، دون السلالات والعوائل. وكنا كلما شيّدنا صرحاً، وأقمنا الاحتفالات لافتتاحه، واقتطاف ثمرة أتعابنا، إذا بفرسانٍ جياعٍ من الشمال الشرقي، يهجمون علينا، ليهدّموا كل مايرونه أمامهم! فكانت مدننا دائماً مباحة أمام هؤلاء الفرسان الجياع، يتلاعبون بها كما يتلاعبون بأحجار الشطرنج[1]. وبذلك لم تتوفر الفرصة إلاّ لعدد قليل من حواضرنا، كي تنمو وتزدهر في شبابها، وتنضج بتعاقب السنين، وتنحدر بالتالي صوب الموت والاضمحلال في شيخوختها، وتتجدد بعد ذلك، كما تجددت طيسفون، التي نهضت من خرائبها عاصمة عظيمة اسمها بغداد، فكان موتها «طيسفون» كموت «ققنوس»[2] وسط النيران.

= وأسس الدولة الاشكانية التي حكمت ايران القديمة من ٢٤٦ ق. م حتى ٢٢٤ ميلادية. «المترجم»

(١) ومن الحقائق التاريخية غير المعترف بها هي أنه على الرغم من كل مايخوّفوننا به من الشيوعية والاتحاد السوفيتي طوال مايزيد على الأربعين عاماً منذ ثورة اكتوبر ولحد الآن، إلاّ أن حضارتنا لم تنج من الهجمات المزمنة للصحراويين الشمال شرقيين إلاّ بعد استقرار الاتحاد السوفيتي وجمهورياته التابعة له، مثل تركستان وقرغيزستان وطاجيكستان. إذ إن استقرار الجمهوريات السوفيتية الجديدة بعد ١٩١٧ كان من شأنه إسكان البدو الصحراويين وإعمار البوادي، وتنمية المدن بالمعامل والمزارع والمدارس وباقي المؤسسات المدنية. فلم تبق ثمة قبائل ليكون هناك غزو أو هجمات، وحتى لو كان، فلاحاجة إلى الخيل وقطع آلاف الفراسخ للوصول إلى خراسان، وانما سيتوقفون عند أقرب مدينة أو قرية أو مزرعة ليجدوا لأنفسهم أعمالاً هناك. وهكذا فقدت الغارات القبلية مبررها من الأساس، وحلّت محلها مع بدء القرن العشرين الغارات الصناعية وهجمات المتمدنين الأجانب من الغرب والجنوب الغربي.

(٢) طائر اسطوري يقال إنه يجلس إذا أراد التكاثر في عشه، ويخفق بجناحيه حتى يشتعل بالنيران ويحترق بالكامل ويتحول إلى رماد يتكون منه طائر ققنوس آخر، فققنوس رمز للفناء من أجل البقاء. «المترجم»

بهذه الطريقة، أصبحنا زاهدين لا أباليين. وانهالت على رؤوسنا صخرة «لكلٍّ منا أيامٌ معدودات»[١]، وأضحى شعارنا «كل من مَلَكَ، أرسى بنياناً جديداً»[٢]. ويمكن القول إننا طوال تاريخنا، قلّما توفرت لنا فرصة الاستقرار في المدن. وبمعنىً دقيق للكلمة؛ لم نصل يوماً ما إلى حالة التمدّن والحضارة الحقيقية. وإذا كنا اليوم، تحت وطأة الآلة وعنجهيتها، نجرب التأقلم التدريجي مع الحياة الحضرية وحيثياتها، فلأنها ظاهرة حديثة سريعة الانتشار، ولها بالتالي شكلها السرطاني البشع، فمدننا اليوم تنمو نمواً سرطانياً خبيثاً. والويل لنا يوم يتحرّش هذا السرطان بقرانا وأريافنا.

حول استمرارية الحضارة في ايران، إذا كنّا نرى بعض الاستثناءات في الماضي القديم، كالذي حدث بالنسبة لحضارة شوش[٣]، أو إصفهان، أو كاشان، أو الري، فينبغي التأكيد أنها استثناءات لاتعني شيئاً. ذلك أن صرحنا التاريخي، لم يكن في يوم من الأيام قائماً على الأسس والأعمدة والجدران والمنازل والأسواق، وباقي مظاهر الازدهار المدني، لأن كل سلالة ملكية كانت تلمُّ مائدة السلالة التي سبقتها قبل أن تمدَّ مائدتها. فالساسانيون غادروا آثار الأشكانيين أحاديثَ تذكر، والقاجاريون لم يتركوا شيئاً من أبنية الصفويين على حاله. ولحد اليوم تراهم يقيمون البنك الوطني في محل المقر الحكومي الأثري، ويشيدون وزارة المالية مكان مضطجع «كريم خاني»، أو يبنون المدارس مكان المساجد والمزارات ذات القيمة التاريخية.

إنني أتعجب؛ لماذا نحن ضيّقوالنظر رغم كل هذه الآفاق الرحيبة؟! ففي العهدين الأخميني والصفوي كان الابناء يتمّمون مابدأه الآباء. أما في بقية العصور فـ«كل من مَلَك، أرسى بنياناً جديداً»، وبطابوق أبنية الماضين. فحتى الأمس، كانوا يقتلعون رخام مقابر

---

(١) شطر من بيت شعري فارسي لحافظ الشيرازي سار مسار الامثال. «المترجم»

(٢) شطر من بيت شعري فارسي لسعدي الشيرازي، يستعمل كمثل. والشطر الثاني من البيت «ذهب وترك منزله لغيره».«المترجم»

(٣) موقع أثري في محافظة خوزستان (جنوب غرب ايران). «المترجم»

المسلمين في ابرقو[1]، لينقلوها إلى القصور الملكية في طهران. وحيثما نظرت، ترى جدران كل الابنية مرصوفةً من أحجار قبور الماضين.

وبهذا فإن صرح حضارتنا «المرقعة» أبعد مايكون عن بناءٍ أسّس له الأجداد، وشيّده الآباء، وزيّنه الأحفاد، وزاد من سعته من جاء بعدهم. وإنما صرح حضارتنا، بناء قائم على أعمدة الخيام، ومحمول على ظهور الحمير والبغل. فقد كان الاخمينيون والساسانيون كثيراً مايصطافون ويشتون في مناطق مختلفة من هذه الارض الواسعة، لذلك ظهرت إلى الوجود مدن «شوش» و«هغمتانه[2]» وصارت كل منهما عاصمة. وهناك أيضاً طيسفون وفيروز آباد.[3] وقد بلغ الأمر بعلماء الآثار إلى القول بوجود تشابه كبير بين أطواق الأبنية في مختلف عصور تاريخنا، وبين شكل الخيام.

ولا ننسى أننا طوال تاريخنا، كنّا نقضي الليل على سطوح المنازل، وتحت أطواق النجوم.

صحيح أننا نعيش في بيئة جافة، ومناخ قاسٍ، لكنها قساوة سببها الجفاف، وهي بالتالي ليست عسيرة على المكابدة، هذا باستثناء شتائنا القصير. وأقول قصيراً لأنه ليس بين مدننا الكبيرة ماتهطل عليه الأمطار والثلوج لأكثر من ثلاثة أشهر. وإذا كان الأمر كذلك، أفلايكون «تيبور مندي» على حق حين يقول؛ إن الحضارات الكبرى التي تتوفر على التقدم التكنولوجي، لاتظهر إلاّ في النواحي الباردة من الكرة الأرضية، ومابين مداري رأس السرطان ومدار القطب الشمالي.[4]

وبالطبع لم تكن الغارات، تُشنُّ ضدنا انطلاقاً من صحاري الشمال الشرقي فقط، فهناك الاسكندر الذي زحف من الشمال الغربي. وهناك الإسلام الذي جاء من صحاري

---

(١) مدينة اثرية في محافظة يزد (وسط ايران). «المترجم»

(٢) موقع اثري يعود إلى عصور ماقبل الاسلام وسط مدينة همدان الحالية (غرب ايران). «المترجم»

(٣) موقع اثري في محافظة فارس (جنوب ايران). «المترجم»

(٤) راجع الترجمة المذكورة لتيبورمندي.

الجنوب الغربي. وعلى الرغم من فترة تواجد الاسكندر وأعقابه في ايران، مما أفرز أول ألوان التغريب في تاريخنا، إلاّ أنه من الضروري القول إن الاشتباك بالاسكندر وجنوده لم يكن من نوع الاشتباك بالقبائل الرحل. بل كان اشتباكاً مع مغامرين ومرتزقة (Mercenaire) من مدن سواحل المتوسط، دفعتهم نحونا قصص «آنابازيس» لغزي‌نوفون. وكانوا طامعين في الثروات الأسطورية للملوك الايرانيين. فركبوا سروجهم وزحفوا بأفواه يسيل منها اللعاب، للاستيلاء على كنوز «هغمتانه» و «شوش» و «استخر»[1]. وكان هؤلاء أول المستعمرين بعد الفينيقيين ! ونعلم أنهم جميعاً كانوا يعيشون عقدة بناء المدن. وإذا كانوا قد هدموا «صور» و «استخر»، فقد بذروا عدة «اسكندريات» من مصب النيل إلى مصب الهند. وما تزال اثنتان منهما قائمتين الىٰ اليوم، تتلهّف لتردد الأثرياء الجدد علىٰ سواحل المتوسط الزرقاء. وإذا كانت قد حدثت أعمال سلب ونهب، عند الاشتباك بهؤلاء الجنود، فقد كانت من قبلنا أولاً[2]. إذ كنا كلما تلقينا صفعة من بدو الشمال الشرقي، سددناها إلى سكان الابيض المتوسط. وهكذا احترقت «اثينا» ليكون حريق «استخر» جوابها.

وأما الإسلام، فإنه لم ينهض لسفك الدماء مطلقاً. صحيح أننا سمعنا الكثير عن سيف الاسلام. لكن ألا تتصورون أن هذا السيف، إن كان له دور حقاً، فقد لعبه اكثر مالعبه مع العالم المسيحي في الغرب؟

ويبدو أن هذه السمعة جاءت بسبب تصدي الجهاد الاسلامي للتظاهر المزيّف بالمظلومية عند المسيحيين. فالمسيحية ذاتها، بمجرد أن توفرت لها أسباب الاستقرار والقوة، لم تترك شنيعة دون أن تقترفها. سواء في عهد محاكم التفتيش في اسبانيا، أو عند الاستيلاء على اميركا الجنوبية والوسطى، أو في إطار استعمار القارة الافريقية، أو في

---

(١) موقع أثري في محافظة فارس الحالية (جنوب ايران). «المترجم»

(٢) راجع مقالة: «الاسكندر الكبير» بقلم برويز داريوش في العدد الأول من كتاب «كيهان» الشهرية - خرداد ١٣٤١ش (٢٢ أيار حتى ٢١ حزيران ١٩٦٢م).

جنوب شرق آسيا عند تدمير حضارة «الخمير».[1]

ومهما يكن من أمر، فإن التحية الإسلامية تبقى اكثر الشعارات الدينية التصاقاً بالأخوة والسلام. مضافاً إلى أن الاسلام، قبل أن يأتي لمواجهتنا، كنا نحن الذين دعوناه إلى أنفسنا. ولندع جانباً رستم فرخ زاد، الذي دافع دفاعاً يائساً عن الفروسية الساسانية، والتقاليد الزرادشتية المتحجرة. فأهالي المدائن وطيسفون إستقبلوا العرب الذين كانوا يسيرون لنهب القصور الملكية وسجاد «بهارستان» بالخبز والتمر. وكان سلمان الفارسي قد هرب من «جي» بأصفهان إلى المدينة، قبل سنوات طويلة من فرار يزدجرد إلى مرو، لينضمّ هناك إلى الكيان الاسلامي، وليكون له في تشكيل الاسلام، دور لم يتهيّأ أبداً للمنجمين المجوس في تكوين المسيحية.

وهكذا، لا أعتقد أن بالإمكان القول بفتوح إسلامية، كما نقول بفتوح الاسكندر. فالمرتزقة المتوحشون الذين التفوا حول ذلك القائد المقدوني، إنما حكموا على أنفسهم بالنفي عن بلادهم ومدنهم، للفوز هنا بالغنائم والكنوز، ولم تكن سيوفهم تضمر ذلك الإيمان الذي دفع العرب الحفاة إلى ضفاف سيحون وجيحون.

لقد كان الاسلام تمثيلاً لحاجة سكان الفرات الأوسط والشام إلى الاستقرار المدني، فقد كانت هذه المناطق قد ملّت الحروب الطويلة مع ايران والروم، وباتت منهكةً تماماً، ومستعدة لمعاضدة أية نهضة تحاول ترسيخ السلام الدائم في تلك النواحي.

ثم هل يمكن الدعوة لدين ما، بأسهل من «قولوا لاإله إلاّ الله تفلحوا»؟

وبالتالي؛ ألم يكن اندفاعنا نحو الإسلام، نوعاً من التوجه نحو الغرب؟ لا يمكن الإجابة

---

(١) حول محاكم التفتيش راجع أي تاريخ للحضارة الاوروبية. وحول اميركا الجنوبية راجع سيرة فاتحيها (Conquistador) الذين جاءوا كدعاة للحب والسلام المسيحي ليقتلعوا من الأرض حضارة «الانكا» و «الآزتك». وحول افريقيا وجنوب شرق آسيا راجع على الترتيب «العودة من تشاد» لاندريه جيد، و «الطريق الملكي» لاندريه مالرو. والاهم من ذلك كتاب صغير باسم «مقال حول الاستعمار» لأميه سيزر، ترجمة هزارخاني، وإصدار «نيل» في طهران.

عن هذا السؤال إلاّ حينما نقف على المآسي التي تعرض لها الايرانيون تحت وطأة التقاليد الساسانية المتحجّرة.

وربما كان من دوافع اهتمامنا بالغرب، هو أننا في هذا السهل الجاف، كنا ننتظر غيوم المتوسط دائماً. صحيح أن النور انبثق من المشرق، لكن الغيوم المحملة بالأمطار كانت تأتينا من المغرب دوماً. وبموازاة اهتمامنا بمصدر الغيوم والمياه والعمارة، كنا نتهرب من صحاري الجنوب والشمال الشرقي. على العكس تماماً من الاوروبيين، الذين دفعهم حب الخلاص من البرد والرطوبة والصقيع إلى الجنوب والبحار الحارة، ليجدوا هناك لأعضائهم السفلية مايقوّيها من التوابل. وقد كان هذا التجاذب المزدوج مشهوداً وواضحاً على امتداد التاريخ. ويمكن اعتبار نزوح الآريين إلى ايران، بحد ذاته، مؤشراً على التبرم بالشمال والثلوج المزمنة، في «ورجم كرد» و «آرياويج». وحتى الروس، لو كان بامكانهم الوصول إلى المياه الدافئة، ليحققوا بذلك حلم بطرس الكبير، ولو كانوا يستطيعون، عن طريق الغزو والاستعمار، الرفع من أجور عمالهم في «سان بطرسبورغ» و «بادكوبه»، لتبلغ مستوى الاجور في «مانشستر» و «ليون»، ولو لم يكونوا مضطرين للتكيّف مع سيبريا وثلوجها، أو مع تركستان ورمالها المتحركة، لما أطلّوا على العالم في ١٩١٧م بتلك الثورة العارمة. فتصدير شعارات الثورة الروسية إلى افريقيا وجنوب شرق آسيا، خير دليل على الطموح الروسي الذي ظل لسنوات متمادية مقموعاً، وانطلق بعد الثورة في ثوب جديد.

ولو دققنا في الموضوع أكثر، لانتبهنا إلى وجود محفزات أخرى في نزعتنا إلى الغرب. صحيح أن «ماء الحياة» كان أحد أسرار الشرق المشمس، ولكن الاسكندر الذي سار للبحث عنه كان غربياً، بينما كان نظامي كنجوي[1] شرقياً منّا، ورغم ذلك نراه يخلع على الاسكندر صفات النبوة، ويوحد بينه وبين ذي القرنين. وجنات عدن غربية هي الأخرى، والعنبر يأتينا من بحار الشمال الغربي. وبغداد، التي كانت كعبة الزنادقة المانويين، تقوم

---

(١) أحد أشهر شعراء الفارسية، عاش في القرن السادس الهجري. «المترجم»

في أقصى الغرب بالنسبة لهضبة ايران. ثم لابد أنكم قد سمعتم بجيشي الزنج والروم، وتشبيههما بالليل والنهار، أو بشَعْر ووجوه الحسناوات. وربما لهذا السبب لم يخلُ حريم ملكي في الشرق من الجواري الروميات، باعتبارهن بشائر القوة والبياض وحسن الحظ. وحتى التصوّف، بالرغم من كل خصوصياته الشرقية، إلاّ أنه لم يعصم شيخ صنعان الزاهد من الوقوع في هوى جارية رومية، والارتداد، والتحوّل إلى عازف متسكّع ! وعلى هذا المنوال يمكن ذكر الكثير من القرائن.

المسلّم به، هو أن طريق الغرب كان مفتوحاً دائماً بوجه الايرانيين، الذين لم تأسرهم العصبيات الساذجة في يوم من الايام. وحتى حينما كنّا نحجُّ إلى مكة، فقد كنا نسلك إليها (كسعدي الشيرازي)[1] طريق طرابلس، لكي نشتغل هناك بالأعمال الحقيرة، أو نختار طريق النجف وكربلاء، لنخفف في الأضرحة المقدسة من أوزارنا. أما اليوم فإننا نقصد اوروبا مباشرة للترفيه والمتعة.

وقد يبدو التواصل مع الغرب، أمراً طبيعياً، بالنسبة للأمة التي تريد أن تعيش يومها أفضل من أمسها، وتتعلم اكثر، وتموت بهدوء. إنها ليست ظاهرة غريبة على كل حال، بل هي عادية كتبادل الزيارات بين الجيران. وهي أشبه بسياحة الانسان وسعيه في فضاءات وتجارب الآخرين.

لكن الغريب في الأمر، أن هذا الاهتمام بالغرب، كان إلى ماقبل ثلاثمئة سنة، اهتماماً له مبرراته وأسبابه ووجهته المعينة. فقد كان وليد الحقد والحسد والتنافس. بينما اكتسب خلال الثلاثمئة سنة الأخيرة مبررات وأسباباً أخرى... وصار وليد الحسرة والشعور بالدونية ! فإلى ماقبل القرون الثلاثة الأخيرة، كنّا نحسد الغرب أو نحقد عليه أو ننافسه، لما نشاهد لديه من أراضٍ خصبة، وموانىء مزدحمة، ومدن هادئة، وأمطار غزيرة، وكنا نتصور أننا نستحق أيضاً مثل هذه النعم، ونرى تقاليدنا ومعتقداتنا صحيحة مئة بالمئة، وكان يقيننا يتمادى بنا أحياناً إلى اعتبار الغربيين كفاراً، ووصمهم بالضلال والتضليل،

---

(١) من أبرز شعراء الفارسية، عاش في القرن السابع الهجري. «المترجم»

هذا على الرغم من استقبالنا الحار لعلمائهم الفارين من الاسكندرية والقسطنطينية، ونحن في أوج العصبية الزرادشتية ـ الساسانية. لكن المفروغ منه هو أننا كنّا نقيّمهم بمعاييرنا، وقد يبلغ بنا الأمر، بعض الأحيان إلى درجة إباحة أموالهم ودمائهم.

وعلى كل حال، فقد كان الحسد والحقد والتنافس يحفزنا للتلطيف عن بشاعة التماثيل الآشورية، ويدفعنا لأن نأتي بالسدر من لبنان، وبالذهب من ليديا، ونترجم لأرسطو وننتصر له في القرون الوسطى، ونستحسن نظام المحافل الرومانية، أو نتعلم هندستهم المدنية.

وكانت النتيجة النهائية لكل هذا التعاطي مع الغرب والذي استمر لأكثر من ألفي سنة، وتضمّن الكثير من الهزائم والانتصارات والسلبيات والايجابيات، التي تحملها الجانبان(وهذا من أسرار الحياة)، كانت النتيجة النهائية، انتصار الجانبين، إذ لم يخسر أيٌّ منا شيئاً. وإذا لم يكن مادار بيننا وبين الغرب، نوعاً من الصداقة، فهو بلاشك ضرب من التنافس..وماذا أفضل من هذا؟! أعطينا النفط والحرير، وكنّا جسراً إلى الهند والزرادشتية ومهر[1]، وسافرنا إلى الأندلس، في الانفجار الاسلامي، وتوّجنا قادة الاسلام بالعمائم الهندية والخراسانية، وأبدلنا عظمة الآلهة الفارسية بهالة النور التي طوّقنا بها رؤوس القديسين من النصارى والمسلمين، وما إلى ذلك من المعاملات الحضارية.

أما في القرون الثلاثة الأخيرة، فقد انقلبنا رأساً على عقب..ولم تعترِنا ونحن نقف أمام العالم الغربي، سوى الحسرات والشعور بالدونية..فارقتنا تماماً مشاعر التنافس والاعتداد بالنفس، ولم يبق في صحراء روحنا، إلّا الشعور بالعجز والعبودية. إننا اليوم لانعتبر أنفسنا مستحقين لشيء، أو على حق في مواقفنا، بل ولانمتلك إلّا السكوت ونحن نراهم يمتصون نفطنا، لأننا نراه من حقهم، بسبب عدم كفاءتنا في استخراجه، ونتخارس تأيضاً حين يدبرون لنا أمر سياستنا، لأن أيدينا قصيرة، ولانشعر بأي حرج عندما

---

(١) إحدى الآله المقدسة في إيران القديمة. «المترجم»

يسلبوننا حريتنا، لأننا غير جديرين بها. وليس هذا وحسب بل إذا بادرنا إلى إدارة شأن من شؤوننا المعاشية أو العقيدية، استخدمنا معاييرهم وأدواتهم، وتحركنا بدساتير مستشاريهم وخبرائهم، بهذه الطريقة ندرس..وبهذه الطريقة نجري الاحصائيات..وبهذه الطريقة نضع بحوثنا العلمية. وقد يكون لكل هذا مبرره المعقول، إذ إن العلم اكتسب اليوم مناهجه الدنيوية الثابتة. والمناهج العلمية الحديثة لا تنطبع بأي طابع وطني لكن العجيب أننا نقلد الغربيين حتى في معاشرة نسائنا. ومثلهم بالضبط نتمظهر بالحرية، ومثلهم تماماً نطلق أحكامنا على الدنيا، ونرتدي الملابس تبعاً لهم، ونكتب المقالات وفق رؤاهم.. بل إن مساءنا وصباحنا، ليس مساءً وصباحاً، ما لم يخبرونا هم بذلك! وكأن معاييرنا ومقاساتنا نُسخت عن بكرة ابيها، وربما بلغ بنا الأمر غداً إلى التفاخر على الكائنات بأن نكون زائدتهم الدودية.. أجل.. فمن ذينك المتنافسين القذيمين لم يبق سوى كنّاس الساحة وصاحب العروض فيها..وأية عروض؟ عروض الأعضاء السفلية، والتحميق، والتفاخر، والهيمنة الرامية إلى نهب الثروات النفطية.

ولكن ما الذي حصل خلال هذه القرون الأخيرة؟ وماذا حدث حتى انقلبت الآية كل هذا الانقلاب الكبير؟!

لنعود مرةً ثانية إلى التاريخ...

(٥)

مَكوِّنات السَّيْل

في القرون الثلاثة الأخيرة تشكّل العالم الغربي في رحم الثورة الصناعية، وترك الإقطاع مكانه للمدنية، ومن ناحية أخرى، انكفأنا نحن، في هذه الزاوية من الشرق، داخل شرنقة الوحدة الوطنية القائمة على أساس التشيّع..وأخذنا نزيد من خيوط الشرنقة كل يوم..وإذا كنّا قد قمنا ببعض الانتفاضات، فلم نقم بها إلّا بثياب الباطنية والنقطوية والحروفية والبهائية.

فمقابل كل مدرسة أو مختبر شيّد في الغرب، شكّلنا محفلاً سرياً، واستعذنا بالرموز السباعية والاسم الأعظم، في هذه القرون الثلاثة ضاعف الغرب من منتوجاته، بحيث أصبح في حاجة إلى أسواق عالمية واسعة لتصريف بضائعه، ولكي يحصل هناك على مايلزمه من المواد الخام. وفي هذه القرون الثلاثة ذاتها كنّا نلبس الدروع على الدروع من خوف العثمانيين، وغفونا في داخل دروعنا رغداً.

أما الغرب فقد سارع لابتلاع الدولة العثمانية، وجعل كل واحد من أوصالها هراوة تنفعه في أيام الشدة، عندما تنتفض الجماهير في العراق ومصر وسورية ولبنان.

هنا بالضبط تكمن جذور التغريب..في تضخم الصناعة الغربية من ناحية، وفي عجز حكوماتنا الوطنية ذات الركائز التقليدية القائمة على اضطهاد الأمة، من ناحية أخرى، فمنذ أن تجاهل علماؤنا المساعي غير المحمودة التي بذلها المنحطّون للتنفّذ في بلاط السلاطين، كُتب علينا أن نكون مبحرين نائمين في سفينة الكلّ الاسلامي، أو مجرد سدنة مقابر، أو متطفّلين على موائد الشهداء والاولياء، ومنذ تركنا إمكانية الاستشهاد، واكتفينا بتكريم الشهداء، أصبحنا نواطير قبور ليس إلّا، وهذا ماأشرت اليه في «نون والقلم».

فيما يتعلق بالاسباب التي أدت إلى تحوّل الغرب إلى الصناعة، يجب أن أعترف أن هذا ليس من اختصاصي، وقد أسهب الغربيون أنفسهم في تحليل هذه القفزة وتشخيص عواملها وإرهاصاتها.

وأعدنا نحن المتغربين هذه الأسطوانة البائسة لسنوات طوال، وأطلقناها عبر أبواقنا وإذاعاتنا وصحافتنا ومدارسنا، وطاب لنا أن نلوك الاحاديث حول النهضة الاوربية، واختراع البوصلة، وفتح اميركا، والعبور من رأس الرجاء الصالح، واكتشاف الطاقة البخارية، والوصول إلى الهند، واختراع الكهرباء و...الخ.

ولكن يجب أن لايغيب عن أذهاننا أن الغرب المسيحي في القرون الوسطى، عندما كان يعاني أسوء أنواع الحصار الذي ضربه عليه العالم الإسلامي، أي حينما كان مهدداً بالفناء مقابل قوة الأقاليم الاسلامية، التي كانت تضغط عليه من عدة جهات (الشرق والجنوب والجنوب الغربي)، مما اضطره إلى التقرفص في بضع ولايات شمالية على ساحل المتوسط، عندها فقط إستيقظ مذعوراً، وبدأ هجماته اليائسة، وكأنه قطٌ، أغلقت عليه سبل الهرب، وكان ذلك أواخر القرن السادس الهجري (١٢ الميلادي)، أي حينما كانت جامعة قرطبة تشمخ في غرب العالم الاسلامي، بينما تنتصب في الشرق مدارس بلخ وبخارا. وكانت جميع أراضي القدس وكل سواحل الأبيض المتوسط، الشرقية والجنوبية والغربية، في أيدي المسلمين. بل وكانت صقلية أحد معاقلهم. بعد هذا مباشرة تحوّل المسيحيون المسالمون الساخطون على الجهاد الاسلامي، إلى مقاتلين من الطراز الأول. ووضعوا خلال الحروب الصليبية اسس الاقتباس من الفنون والمعارف الإسلامية، وهو ماجعل الغرب المسيحي، بعد خمسة أو ستة قرون، صاحب رساميل وفنون ومعرفة رائدة. وجعل من الغربيين بعد سبعة أو ثمانية قرون أبطالاً لايشق لهم غبار في ساحات التصنيع والتكنولوجيا.

وإذا كان الغرب المسيحي قد استيقظ فجأة على أجراس خطر الاندثار والاضمحلال، على أيدي العملاق الاسلامي، وأخذ يتخندق ويهاجم ليستطيع إنقاذ نفسه في آخر المطاف، أفلم يحن الوقت لنشعر نحن بالخطر من قوة الغرب، ونخشى من الفناء، فننهض

ونتخندق ونهاجم؟

وبخصوص عجزنا وإغفائنا الذي جاء في غير محله، هناك نقاط ربما لم تسمعوا بها:

النقطة الأولى: هي أن هضبة ايران كانت إلى ما قبل اكتشاف الطرق البحرية، الممر الأهم بين الشرق الأقصى والغرب الأقصى (هذا إنْ لم نقل الممر الوحيد) وكانت الطريق السالك مَن الصين والهند إلى سواحل المتوسط، والجسر المتين لعبور الحرير والتوابل والورق والبضائع إلى العالم الغربي. وعلى جوانب هذه الجادة الكبرى التي عبدتها القوافل المثقلة بالثروة، ارتفعت مدننا الكبيرة، وشيدت أبراجها إلى عنان السماء، وظلّلت بأروقتها الوارفة قوافل العالم، ووفرت لهم الأمن والراحة. إنه الطريق التاريخي الذي كان يربط قندهار وهرات وطوس ونيشابور والري وقزوين وتبريز وخوي وأرض روم، بطرابوزان وديار بكر وطرابلس.. إنه طريق الحرير الشمالي.

وبالطبع كان ثمة طريق آخر، يربط ضفاف السند عن طريق البحر بجزيرتي هرمز وقشم ثم ينتقل إلى البر ليصل إلى كرمان ويزد وإصفهان وورامين وساوه وهمدان وكرمانشاه والموصل، ولينتهي أخيراً بالموانىء الشرقية للبحر الابيض المتوسط.

وبغض النظر عن حضارات سواحل مازندران، وسهل خوزستان، فإن أقدم الحضارات في هضبة ايران قامت في المدن التي ذكرتها أو بالقرب منها، وقد دفنت عبر العصور في باطن التلال الكبيرة.

ولكن، منذ أن اكتشفت الطرق البحرية، واكتسب الملاحون الشجاعة الكافية لركوب المحيطات، لم يبق من مدننا وحضارتنا سوى القشور الفارغة، والأطلال الخاوية على عروشها.. أطلال دور الضيافة.. أطلال المدن.. أطلال التقاليد والثقافة.. أطلال الدين والعقيدة، وأطلال النظم الاقتصادية. وعندئذ كشّر الفقر لنا عن أنيابه بكل بشاعة، وأصبحنا منسيين في عالم الأحياء، أو مقبرة تحتضن بترابها ذكريات وخواطر طيبة عن الطرق المشرعة، والقوافل المعبئة بالخير[1]. فمنذ أن حسرت الثروة ظلالها عن مدننا،

---

(١) مانزال نمتلك العديد من هذه المدن، كهرمز وبندر عباس وبوشهر وكرمان ويزد وابرقو وسواها..

ووجدت طريقها بين الصين والغرب عبر المحيطات، لم يكن نصيبنا سوى أن نُنسى، وعندها بالضبط سجنّا أنفسنا في شرنقة التصوف، على الطريقه الصفوية، وأغلقنا على أفكارنا في طامورة الوحدة الوطنية القائمة على أساس التشيع. وبعبارة أخرى، عندما تنكّر العالم لنا تنكرّنا للعالم، واعتبرنا الغرب نجساً. وحينما تلاحم طرفا العالم مع بعضهما، من دون الحاجة للاستراحة في مضايفنا، أصبحنا منطقة محايدة على حدود الهند.. منطقة يجب أن تبقى هادئة وعديمة الازعاج، ومهمتها الوحيدة أن لا تسبب أي قلاقل للهند، ولاتهدد شركة الهند الشرقية. وقد بقي هذا الوضع قائماً حتى أفصح البترول عن نفسه في خوزستان، فعدنا تارة أخرى محطّ أنظار العالم، والساحة التي تتنازع فيها القوى العالمية الكبرى.

وعلى كل حال، فعند التنقيب عن أسباب تخلف الشرق أوسطيين خلال القرون الثلاثة الأخيرة، وتقدّم الغربيين في نفس الفترة، لم أعثر على من يشير إلى هذه النقطة، والحال أنها جديرة بكل اهتمام ودراسة.

والنقطة الثانية؛ هي أن أمراء جمهورية البندقية (طليعة المسيحيين التجار أو التجار المسيحيين) لم يكونوا أول من تواطأ مع القبائل الوثنية في الشمال الشرقي من ايران،

= وقد شاهدت بنفسي أغلبها، وادعوكم للتدقيق في هذه السطور من النسخة الخطية لـ «دليل ايران» بقلم فرّخ غفاري: «وجد الاصطخري أبرقو في عام ٣٤٠ هـ مدينة حافلة، واعتبر ابن حوقل بعد ٢٥ سنة أسواق نفس المدينة، عامرة، وهي مدينة تقع على طريق أحد التفريعات المهمة للطريق التجاري في العهد المغولي.. الطريق الذي كان يمر من هرمز بكرمان ويزد وكاشان وسلطانية وتبريز، ومن هناك إلى البحر الأبيض المتوسط... وقد شاهد حمد الله مستوفي تلك الناحية في عام ٧٤٠ هـ إلاّ أن اكتشاف الطريق البحري الهندي من قبل البرتغاليين في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي (التاسع الهجري)، ترك ذلك الطريق البري مهجوراً، فصارت دور الضيافة والبيوت والمساجد في ابرقو إلى التلاشي، وجاء هجوم الافغانيين عام ١١٣٥ هـ ليهدم المدينة بالشكل الذي جعل ابرقو اليوم من أتفه الحواضر في البلاد».

لأنهم أرادوا حليفاً قوياً لهم لمواجهة خطر المسلمين. فقبلهم عزف خلفاء بغداد على نفس الوتر، وقد تسربت دسائسهم إلى صحراء قره قوروم، لتخمد الانتفاضات في خراسان والعراق، وشيئاً فشيئاً سمحوا للقبائل والبدو من الغزنويين والسلاجقة والمغول بالعبور إلى الجانب الآخر، ومنحوهم فرص الرعي والسكن في مختلف نواحي العالم الإسلامي. ووصل الأمر في أواخر عهد السامانيين، أن كان جميع القادة العسكريين في خراسان وبلخ والعراق من قبائل التاش والاتابك والأرسلان والسبكتكين. وحتى لو لم تكن هذه سياسةً متعمدة، إلاّ أن المقطوع به هو أن الإستعانة بقبائل الشمال الشرقي، لمواجهة الكلّ الاسلامي، كانت لها جذورها قبل سنوات طويلة من بناء متاجر «جنيفا» و «البندقية[1]». وإليك مقولة أحد الأجانب حول هذه الحقيقة: «لمسيحية الاتراك أهمية بالغة. فنحن نعلم أن ولاية سغد التي سكنها الاتراك الغربيون منذ ٥٦٥م فما بعد، كانت من اكبر مراكز الكنيسة النسطورية. ومن هناك ومن ولاية بلخ انطلق الدعاة النسطوريون لتنصير آسيا.. ويبدو أن هؤلاء استطاعوا إلى عام ١٠٠٠ ميلادي تنصير البسطاء والعاديين من أبناء القبائل التركية في آسيا الوسطى. وهذه القبائل عبارة عن الأونغوثيين في مغولستان الداخلية، والقرأيتيين في مغولستان المركزية، والنايمنيين في مغولستان الغربية. مضافاً إلى الاويغوريين الذين كانوا قد تأدبوا بآداب المسيحية قبل ذلك في صحراء «غبي».. وعموماً

---

(١) عندما شعر الحسن الاسماعيلي الثاني «جلال الدين حسن» أن المغول قادمون.. بعث بدافع من الخوف سفيراً إلى فرنسا ليستنجد بأهل الكتاب في التصدي للكفار. لكن أهل الكتاب لم يكونوا متحمسين للمساعدة، وغادر السفير إلى بريطانيا عبر البحر ليبلغ نفس الرسالة. وكان وصوله إلى البلاط البريطاني في سنة ٦٣٦ هـ وقد أورد المورخ الانجليزي «ماتيوباريس» في تاريخه تفاصيل لقاء السفير بالملك البريطاني. فقد أجاب أسقف فينشستر الذي كان حاضراً في اللقاء على استشارة الملك له بقوله: «دعوا هؤلاء الكلاب يحاربون بعضهم ويأكلون بعضهم.. ومن يتبقى منهم سنقتله عندما نزحف لحرب أعداء المسيح» نقلاً عن مقالة «الشمس والضباب» بقلم مهرداد صمدي ـ ص ٦٥و٦٦ ـ كتاب الاسبوع ـ ١٤ مهر ١٣٤٢ش ـ (تشرين الثاني ١٩٦٣م).

لايمكن فهم الملامح نصف المسيحية لامبراطورية جنكيز خان بدون الأخذ بنظر الاعتبار الايمان النسطوري الذي كان يحمله الأتراك الغربيون الذين حاربوا في ركابه».[1]

وبهذا لايكون من العجيب أو الصدفة أن يتعرض العالم الاسلامي بشكل مفاجىء في القرنين السابع والثامن الهجري (الثالث عشر والرابع عشر الميلادي) إلى الخطر من جانبين: المغول (أنصاف مسيحيين) من الشرق، والصليبيون (المسيحيون حتى النخاع) من الغرب.

وماركو بولو ومن لفّ لفّه، تحركوا جميعاً ليقتحموا الميدان بكل ثقلهم. و«الاوربيون في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادي، الذين حاربوا الأتراك العثمانيين، واكتشفوا السواحل الغربية لافريقيا، وداروا حول رأس الرجاء الصالح، وقاتلوا المسلمين في المحيط الهندي، وكانوا يتصورون خطأً أنهم في الطرف الآخر من المحيط، سيجدون حليفهم التقليدي ضد المسلمين (المغول)، هؤلاء الاوربيون، كانوا جميعاً أحفاد المقاتلين الصليبيين الأوائل»[2]

النقطة الثالثة: هي أن الصليبيين الأجانب الذين قاتلوا لتطويع التراب الاسلامي، كانوا يتجمعون من كل انحاء اوربا، من السويد إلى روما، وكلهم يأتمرون بدساتير البابا الأعظم، وتسندهم أموال ومؤن وخيول وأعلاف جنوه والبندقية. ولكن ممَّ يتشكل هذا العالم الاسلامي الذي يحاربونه؟ إنه بالطبع ليس مجموعة البلدان الاسلامية، بل المماليك في مصر فقط، وهؤلاء يمكن اعتبارهم الوكلاء البعيدين للخلافة التي بدأت تذهب أدراج الرياح. ولاأتصور حتى أن سعدي الشيرازي قد تطوّع لجهاد الكفّار ووقع أسيراً في إحدى

---

(1) Rene Grousset - Laface de LAsie.Ed.Payot - Paris 1962.P.P.55

(٢) «تاريخ الحضارة الغربية وأسسها في الشرق» ترجمة برويز داريوش ـ ط طهران ١٣٣٨ش (١٩٥٩م) ـ ابن سينا ـ ص٢٣٣.

خنادق طرابلس[1].. إذ لم يكن في هذا الجانب من العالم الاسلامي، من يحمل هموم مواجهة الخطر، ويستعد للتخلّي عن لعبة «ملوك الطوائف»، أو يغض الطرف عن إشكالية حدوث أو قِدم القرآن في سبيل محق العدو. هذا فضلاً عن أن المغول دمّروا العالم الإسلامي تدميراً، لم تبقَ معه فرصة لأن ينهض فيه رجل قوي.

وفي تلك الايام كان ماركو بولو يقطع كل هذه الحواضر المهدمة، لأجل التجارة في الظاهر، وسفيراً عن البابا في الواقع يهتف في الأطلال بشعار «لمن الملك».. لينتهي إلى زعيم المغول الذي سد الطريق أمام تجار البندقية. وكانت أسرع نتائج سفارة هذا الرجل، إعادة افتتاح طرق الحرير والتوابل، التي يمكن أن تتحول قصور البندقية بفضلها إلى مسارح لروميو وجوليت. «وبفعل مساعي رؤساء القبائل المغول وتجار البندقية، افتُتح طريقان كبيران. أحدهما طريق ارمينيا الكبير (تبريز ـ خوي ـ منازغرد ـ ارزنة الروم ـ طرابوزان) والثاني طريق ارمينيا الصغير (تبريز ـ أرض روم ـ سيواس ـ الاسكندرونة)».[2]

ولكن فتح القسطنطينية من قبل المسلمين العثمانيين وانهيار حكومة روما الشرقية (بوزنتيه = بيزنطة) في سنة ٨٥٧هـ [١٤٥٣م]، قطع من جديد هذه الطرق، وبدأت اوروبا المدمنة على أنعم الشرق تبحث لها عن طريق جديد. وكنتيجة لهذا البحث، اكتشفت اميركا أولاً، ثم أمكن اجتياز رأس الرجاء الصالح. فبعد ٥٣ عاماً من فتح القسطنطينية و ١٤ سنة من تأسيس الدولة الصفوية (٨٩١ هـ = ١٤٨٦م)، عبر «بارتولوميوديان» من رأس الرجاء الصالح. وبعد خمس سنوات وصل «فاسكودي جاما» عن نفس الطريق إلى البحار الدافئة، ورست سفينته في ميناء «كاليغوت» بالهند. وبعد سبعة أعوام استولى آلبوكرك» بمدافعه

---

(١) عبارة تهكمية. «المترجم»

(٢) «دراسات حول البحرين والجزائر وسواحل الخليج الفارسي، ـ بقلم عباس اقبال ط طهران ١٣٢٨ش (١٩٤٩م)ص ٥٠

على عاصمة أمراء هرمز، وسيطر على بوابة الخليج الفارسي[1]، ليستطيع بعد ذلك إرساء أول دعائم الاستعمار في «غوا» الهندية، الدعائم التي لم تُقتلع من الأرض إلّا بعد ٥٠٠ سنة.

كل هذه أحداث تاريخية، صحيحة في محلها، لكن الغرب كان قبلها وبعدها يفكر في حلول أخرى، والنقطة الأخيرة التي أريد الإشارة إليها هي أنه لو لم تكن المؤامرات المسيحية في صحاري الشمال الشرقي من الأسباب الرئيسية لحملات المغول على العالم الاسلامي، فيمكن على الأقل ملاحظة قرائن عديدة للتحريضات الاوروبية، على هجوم تيمور باتجاه الغرب، خصوصاً وأن أوروبا كانت ماتزال آنذاك جريحة الحروب الصليبية وبحاجة إلى أسواق الشرق، وأنا لاأعتمد في هذا القول على كتابات الأجانب، لأنهم على كل متحفّظون فيما يقولونه ويكتبونه بهذا الخصوص، ولكن لنتصفّح بعض كتاباتنا، كي نرى الحماقات والسكوت المخزي بأوضح صورة.

وابن خلدون الذي التقى في أواخر أيامه تيمور، وتحادث معه، يكتب:«عندما كنت ماأزال في المغرب، سمعت نبوءات كثيرة عن ظهور تيمور..كان المنجمون يتوقعون ظهوره في عام ٧٦٦..وذات يوم رأيت في مسجد القرويين بفاس واعظ القسطنطينية أبو علي بن باديس، ورأيه حجّة، وسألته عن بعض النجوم التي ستظهر في السماء، فقال: هي علامات ظهور رجل قوي من أهالي البادية في الشمال الشرقي..ينتصر على هؤلاء الملوك ويستولي على القسم الاعظم من الربع المسكون..ومثل هذا كتبه لي«ابن زرزر» اليهودي، طبيب الملك الافرنجي «بن آلفونسو..»[2].

لاحظوا أن رواة هذه الأخبار أحدهم واعظ من القسطنطينية التي فتحها المسلمون العثمانيون لتوّهم، والآخر طبيب يهودي من بلاط أجنبي! أفلايمكن والحال هذه، أن نستنتج من هذه القرائن بأن سطوة المغول لم تكن قد حققت أهدافها بالكامل في العالم

---

(١) «جزيرة خارك» ـ جلال آل احمد ـ طبعة طهران ـ دانش ـ خرداد ١٣٣٩ [٢٢ أيار حتى ٢١ حزيران ١٩٦٠م] ـ ص٧١و٧٢.

(٢) «ابن خلدون وتيمورلنگ» ترجمة: سعيد نفيسي ونوشين دخت نفيسي ـ ط طهران (زوار)ـص٥٧.

الاسلامي؟ وكان الغربيون يواصلون الحلم ببطل عظيم يستطيع في نهاية الشوط أن يصرع البهلوان الاسلامي؟ وإذا كنتم لاتزالون في شك، فلاحظوا أن شيئاً من نيران المغول ومعاولهم ومذابح تيمور ودمويته، لم يتناوش العالم المسيحي على الإطلاق، أما روسيا، فإن النزر اليسير الذي أصابها، كان جزاء اقترافها الارثوذكسية، وعدم خضوعها لإدارة الباب الأعظم، وإذا لم يفارقكم الشك أيضاً، فدققوا في أن الحكومة الصفوية تشكّلت في أردبيل بعد خمسين عاماً[1] من فتح القسطنطينية، وكان موضعها الجغرافي خلف العثمانيين تماماً، في أفضل موضع للطعن الغادر. وكانت النتيجة أن أسفرت مذابح «جالدران»[2] التي نفذها الجانبان، عن مقتل ٥٠٠ ألف إنسان مسلم[3]!

---

(١) تُوج الشاه اسماعيل الصفوي (مؤسس الدولة الصفوية) عام ٩٠٧هـ وكان فتح القسطنطينية في ٨٥٧ هـ ولاحظوا هذه الحقيقة التاريخية الاخرى «كانت زوجة اوزون حسن ابنة كالوجان وأخت داويد، آخر سلاطين طرابوزان، واسمها دسبينا كاترينا، وقد انجبت لاوزون حسن ولداً وثلاث بنات، وتزوجت إحدى بناتها واسمها «مارتا» بالسلطان حيدر، وانجبت له الشاه اسماعيل الصفوي، وهي ابنة دسبينا كاترينا المسيحية اليونانية»، عن مقال «اوزون حسن» بقلم عبد الحسين نوائي - ص٤٣ - مجلة «فرهنگ» [الثقافة] الشهرية - العدد الرابع - سنة ١٣٤١ [١٩٦٢م].

(٢) موضع في شمال غرب ايران، وقعت على أرضه أشهر معركة بين الصفويين والعثمانيين عام ١٥١٤م. «المترجم»

(٣) «إن إذكاء الروح الوطنية الايرانية على أساس من التشيع لم يكن يستمد وقوده من الداخل فحسب، بل كانت تساعده قسوة العثمانيين وتشددهم من الخارج، حيث كانوا يعتبرون التشيع زندقة، وبلغ الأمر بالسلطان سليم الأول إلى الاعلان عن أن قتل الشيعي يعادل ثواب قتل سبعين نصرانياً، واستناداً على هذه الفتوى قتل خلال أيام معدودة أربعون ألف شيعي داخل حدود الدولة العثمانية». عن كتاب «صورة آسيا» بقلم رينيه غروسه - ص ١١٢ - ولاننسى مقتل ضِعف هذا العدد من السُّنة في =

ولا تتصوروا أنني أدافع عن الأتراك العثمانيين.. أريد أن أقول فقط أننا الشرق أوسطيين نعاني اليوم من شتى المتاعب، نتيجة مثل هذه الصراعات المحلية الدامية، والفارغة من كل أنواع البطولة الحقيقية، ونقاسي الأمرَّين من فقر الدم الحضاري الذي تسببه، أريد أن أتساءل؛ هل من حق مؤرخينا الدفاع عن تلك السياسة الطائفية؟! ربما كان من الصواب أن العثمانيين لو انتصروا علينا، أو أن الصفويين لو لم يشددوا على الاستقلال تحت لواء التشيع، لكنا اليوم إحدى ولايات الخلافة العثمانية، ولكن ألسنا إحدى ولايات الهيمنة الغربية؟ ثم ألم نكن منذ فجر الاسلام، وحتى ستة أو سبعة قرون ماضية، نعيش على هذه الشاكلة؟ أي كنّا بمجرد إقليم من أقاليم الخلافة الاسلامية في بغداد، وبعبارة اخرى، كنّا جزءاً من كل.

إلّا أنه جزء تحمَّل عبئاً هائلاً فرضه عليه الكل. ثم ألم نحمل نحن الرايات العباسية السود من خراسان إلى العراق بدافع الروح القومية، ومأأظفينا على الاسلام من النزعة الايرانية، وصبغنا الاسلام بصبغتنا إلى درجة مايزال معها المستشرقون (المبتدئون) في حيرة من ضآلة المساهمة غير الايرانية في بناء الحضارة الاسلامية؟!

إننا لابد أن نتوفر على سعة الصدر اللازمة، ونتفهم ماتمخضت عنه السياسة الطائفية من ويلات دامية خالية من أية روح بطولية، وهي سياسة ساعد على إذكائها وعاظ السلاطين آنذاك، وباركها السفراء الأجانب المسيحيون، ولم تسفر إلّا عن الويل والثبور لنا نحن الذين يسمينا الغربيون «شرق أوسطيين».

إننا اليوم مصابون بأسوء أنواع فقر الدم الحضاري المزمن، لما ورثناه من تلك العهود، ولنقرأ لكاتب أجنبي مايقوله عن تلك السياسة التي لم تكن تهدف سوى تمزيق الشرق وتضعيفه..إنه ليس سوى رينيه غروسه الذي كتب بلغة تضليلية مخادعة:«وهكذا

= ايران، والمؤسف هو أن نسمع بتهديم مقبرة «مزار شهدا» [مزار الشهداء] في اردبيل قبل مدة، وهي مقبرة كبار رجال الجيش الايراني المشارك في معركة جالدران، وقد أقاموا مكانها مدرسة «نوبنياد».

تجد إيران نفسها في مصاف الحكومات الكبرى التي تدير العالم، والمؤشر الأول لذلك علاقات البلاط الأصفهاني بزعيم القبائل المغولية من ناحية، وبالقوى الغربية من ناحية أخرى، وهذه العلاقات مع الغرب لها أهميتها البالغة، لاسيما في إطار العلاقات العالمية، لأنها جعلت من إيران، وخلافاً للامبراطورية العثمانية، حليفاً طبيعياً للعالم المسيحي، وفي سياق هذه الحقيقة التاريخية الكبرى، نجد السياح الاوربيين في القرن السابع عشر يتوجهون إلى البلاط الصفوي في إصفهان. ففي البداية توجّه من بريطانيا الأخوة «شرلي»، المغامرون المدهشون الذين حظوا بصداقة شخصية مع الشاه عباس..وأعقبهم بعد ذلك تارونيه وشاردن..»[1].

والآن لأترك القلم تارة أخرى لابن خلدون وهو مسلم منّا، فنسمعه يقول عن تيمور:«البعض يعتبره ذا ميول صوفية والبعض يتصوره رافضياً..لأنهم شاهدوه يفضّل آل علي بن أبي طالب...»[2]

وواضح أن هذا اللحن بدأ يُعزف قبل الصفويين بأمد.. ثم ماذا فعل تيمور الرافضي هذا؟! لقد وجه ضربة قاصمة للعالم الاسلامي لم تبقِ منه أخضر ولايابساً، وإذا كان هولاكو المغولي قد اقتصر على خنق الخليفة العباسي داخل أغطية من الصوف خوفاً من أن تتزلزل الأرض تحت الأقدام، ويحل بهم الغضب الإلهي، فإن هذا الشقي الثاني (تيمور) لم يكتفِ بأقل من أن يضع بايزيد ايلدوروم (= البرق أو الصاعقة) آخر سلاجقة تركيا في القفص، تزلفاً للنصارى.. ولكي يتفرّج عليه من هبَّ ودبَّ، كأنه حيوان. وبعد ذلك عمَّ الهلع والخراب والبؤس ملوك الطوائف في القرن الثامن الهجري، بحيث كان الصفويون يستطيعون أخذ البيعة حتى من دون مذابح.

ليس الغرض من كل هذا التدقيق والتعمق، التأوّه والحسرة على الماضي، أو التفاخر ببطولات الآباء والأجداد، بل القصد هو أن نعلم كيف نخرت الآفة في شجرة الاسلام،

---

(1) La facede I'Asie - PP.116 - 7

(٢) «ابن خلدون وتيمور لنگ» ص٧٣.

بحيث يقول سعدي الشيرازي قبل عام واحد من مقتل الخليفة ببغداد، وفي أوج الغارات المغولية الشرسة: «عندما كنّا سعداء وكانت أوقاتنا طيبة.. كان قد مضى على الهجرة ستمئة وستٌ وخمسون»[1]. وابن خلدون الذي دار بالمغرب الاسلامي باعتباره قاضٍ ووزير وأمين سر الأمراء، وكتب كتابه المعروف في فلسفة التاريخ، كيف يا ترى استسلم للقضاء وأصيب بالإحباط نتيجة الصراعات المتوالية بين الأمراء المسلمين في الاندلس، إلى درجة صار معها يهتم بالحكايات المفتعلة، وينتظر ذلك البطل الصنديد الذي يقال إنه سيوحِّد العالم.. حتى لو كان توحيد العالم في خرابه؟!

---

(١) بيت شعر. «المترجم»

(٦)
التعفنات الأولى

مع إطلالة النهضة في الغرب، كان شبح محاكم التفتيش يجزُّ الرؤوس في شرقنا الأوسط على غرار ماحدث في القرون الوسطى.. وأتون النزاعات والحروب الطائفية يستعر بنيران مشبوبة، مضافاً إلى ماذكرناه في صفحات سابقة، من أن القوافل التجارية هجرت بلادنا بعد اكتشاف الطرق البحرية. لذلك لم يبق لها سوى العزلة والفقر والتصوف. وطبقاً لآراء الأستاذ أحمد فريد فإننا بدأنا بالضبط من حيث إنتهى الغرب. إذ عندما نهض الغرب قعدنا.. وحينما إستيقظ على بعثه الصناعي، دخلنا في سبات أصحاب الكهف. ودع عنكَ أننا نمارس اليوم ذات اللعبة التنويرية التي بدأها الغرب أوائل القرن الثامن عشر الميلادي، بفارق أننا بدأناها مطلع القرن العشرين، في إطار ثورة الدستور، وكان العالم الغربي حينها يتّجه صوب الإشتراكية، ويميل نحو النظم الموجّهة في الاقتصاد والسياسة والثقافة.

اقرأوا صفحة واحدة مما كتبه الذين زاروا بلادنا في زمن الصفويين، كسياح أو تجار أو سفراء أو مستشارين عسكريين، وأغلبهم من اليسوعيين «الجوزيت»[1]، وسترون كيف كانوا شهوداً ومشجعين دؤوبين لتلك المظالم. ولتعلموا أية عاصفة من التصفيق

---

(١) أسماؤهم تملأ طوماراً بطوله، وخير وثيقة لمعرفتهم جميعاً كتاب «حياة الشاه عباس» بقلم نصر الله فلسفي الصادر في ثلاثة مجلدات. والعجيب أن أول وأضخم رصيد للاستشراق هو هذه الرحلات (كتب الرحلات)، غالبية المستشرقين هم النسخ المصغّرة لهؤلاء الرحالة.. اقرأوا كتاب نصر الله فلسفي لتعلموا ما أقول.

أطلقوها لمذابح الشاه عباس الصفوي، ولسخافات السلطان حسين الصفوي، ومنذ ذلك الحين أدمنت آذاننا على تشجيعات هؤلاء الاجانب، وهم في الحقيقة الاساتذة الأصليون لأمرائنا وشخصياتنا في الثلاثمئة سنة الأخيرة.. ولم تكن هذه التشجيعات والتبريكات في حقيقتها، سوى غواية تسكب في آذان الحارس، كي ينام، وتسرق القافلة.

هذه هي المكوّنات الأولى لسيول التغريب.. وللأسف فإن آذاننا ماتزال مسمّرة على هذه التشجيعات المغرضة لرجال السياسة الأجانب، الذين يفدون علينا كل بضع سنوات في زي المستشرقين أو السفراء أو المستشارين ليمنحونا شهادات مزيفة كتب عليها أن قلوبنا قلوب السباع وأنيابنا أنياب الكواسج !.. وهؤلاء السياسيون يعلمون بالطبع أننا منذ عهد خسرو انوشيروان مصابون بجنون العظمة، ونحبُّ المجاملات إلى درجة الهيام.

لقد تعرّف الاجانب على طباعنا عبر هذه الأسفار، وتعلموا كيف يبقوننا مبهورين، وكيف يمنحون القروض ثم يسيطرون على الجمارك، أو كيف يحطّمون قيمة الحرير الايراني في أسواقهم، لأن امتيازه كان في يد الملك الصفوي. وحينما بلغوا أهدافهم، كان من السهل عليهم بمساعدة الافغانيين التخلص من ذلك البطل الصفوي الأقرع،[1] لكي لايبقى منه في النهاية سوى فزاعة عصافير تافهة. ثم يأتي الدور لنادر شاه كي يهاجم الهند بكل ماأوتي من حماقة، وذلك في وقت كانت فيه شركة الهند الشرقية (أي الاستعمار الغربي) تضرب بخيامها في جنوب الهند، ومن الضروري لها أن ينشغل عنها بلاط محمد شاه في شمال الهند. وبعد أن ارتطم رأس نادر شاه بجدار قصره ومات.[2] كانت معاهدة «تركمان جاي» (١٢٤٣ هـ = ١٨٢٨م).. وبعد ذلك حرب هرات (١٢٧٣ هـ = ١٨٥٧م)، ثم جاءت محاصرة بوشهر لتنتف آخر ماتبقى من الشَعر في تلك اللحية الكاريكاتيرية. وفي الخمسين أو الستين سنة الأخيرة التي ظهر فيها النفط واستعدنا بذلك شيئاً من مبررات الوجود، عادت المؤامرات والدسائس والعمل الاستعماري المكثف لتربط مصيرنا

---

(١) الابطال التقليديون في ايران كانوا يحلقون رؤوسهم ـ المترجم.

(٢) قُتِل نادر شاه على يد بعض جنوده. «المترجم»

السياسي والاقتصادي والثقافي بشكل فاضح بالشركات الاجنبية والدول الغربية التي تحميها.

أما المؤسسة الدينية التي تعد آخر حصون المقاومة إزاء التغريب، فقد انكفأت منذ عهد «الدستور» داخل قوقعتها، وتراجعت أمام هجمات الآلة، لتعيش بسلام، مُغلِّقةً على نفسها جميع أبواب العالم الخارجي. فقد نسجت حول جسدها شرنقة لاتخرج منها إلاّ في يوم القيامة.

وخير مؤشر على هذا التراجع، إلتفاف حبل المشنقة حول عنق الزعيم الديني الداعي إلى «المشروعة» في نهضة «الدستور». وأنا أوافق الدكتور «تندركيا» الذي كتب أن الشهيد الشيخ فضل الله النوري لم يرتقِ المشنقة لأنه يعارض الدستور، إذ كان من أول الداعين إليه، ولكن لأنه دافع عن «المشروطة المشروعة»[1]. وأنا أضيف؛ ولأنه كان دافع عن التشيع الإسلامي. ولهذا كان الجميع بانتظار فتاوى النجف لقتل هذا الشهيد. هذا في الوقت الذي كان فيه زعيم المتنورين المتغربين في ايران «ملكم خان» رجلاً مسيحياً، و «طالبوف» الاشتراكي الديمقراطي، قوقازياً!

منذ ذلك اليوم طبعوا جباهنا بعلامة التغريب الحديدية الساخنة. وأنا أرى جسد ذلك الرجل العظيم فوق المشنقة كالراية المرفوعة فوق هذه الربوع، والدالة على هيمنة التغريب على رقابنا، رغم مرور مائتي عام على النضال والتوتر.

ونحن في ظل هذه الراية المشؤومة، كالغرباء عن أنفسهم، ويتجلّى ذلك في أزيائنا وبيوتنا وأطعمتنا وآدابنا وصحافتنا، والأخطر من كل ذلك في ثقافتنا، إننا اليوم لا نربّي سوى المتغربين، ولاننظر لمشاكلنا إلاّ بعقلية تغريبية.[2]

---

(١) نقلاً بالمعنى عن «سيرة الشيخ الشهيد النوري» بقلم الدكتور تندركيا. في مقدمة «آخر النسور» ط طهران ـ عام ١٣٣٥ [١٩٥٦م] ـ ص ٢١٠ إلى ٢١٩.

(٢) راجع «غزو الحضارة الاجنبية» لفخر الدين شادمان ـ ط طهران ١٣٢٦ [١٩٤٧م] الذي كان له =

وإذا كان الخطر في زمن ثورة الدستور قريباً منّا، فإنه اليوم داخل أرواحنا، إبتداءً من ذلك القروي الهارب إلى المدينة، وغير المستعد للعودة إلى الريف، لأن حلّاق قريته الجوّال لايمتلك الـ «بريانتين» في وسائله، ولأن القرية ليس فيها سينما، ولايستطيع هناك أكل الساندويشات... وانتهاءً بالوزير الذي يتحسس من الغبار والتراب، فيقضي ١٢ شهراً من السنة في مختلف أنحاء العالم.

ولكن لماذا حدث هذا؟ لأن أبناء الجيل الذي ظهر بعد ثورة الدستور في هذا البلد، حتى لو لم يكونوا غارقين في ميوعة أيام شبابهم التي قضوها في باريس ولندن وبرلين، فقد كانت آذانهم لاتصغي لسوى «المكاتيب الثلاثة» لآقاخان كرماني، التي خاطب بها جلال الدولة، وباقي الافكار التغريبية التي أطلقها ملكم خان وطالبوف وسواهم، في بدايات عهد

= فضل السبق عليّ، والذي فكر قبل سنوات بعلاج «النزعة الاستعراضية»، مقترحاً التعليم المكثف للغة الأم، وترجمة الآثار الفلسفية والعلمية والادبية الغربية. ومع انه شخّص الداء بدقة، لكنه يفتقر لوصفة مجربة. إذ منذ ذلك الحين ولحد الآن ترجمت آلاف الكتب الاجنبية، وقرأنا في كل واحد منها الكثير من المعلومات الاجنبية، إلاّ أننا ننحدر يوماً بعد آخر نحو «الاستعراضية» اكثر. ذلك أن هذه الـ «استعراضية» وحسب تعبيري «الميوعة» هي إحدى الاعراض البسيطة للداء الكبير الذي نسميه «نزعة التغريب». ولعل الشخص الذي استطاع اكثر من غيره وضع اليد على جذور المشكلة هو الدكتور محمد باقر هوشيار. ورغم أنه معروف بالبهائية، غير أنه كتب في سنة ١٣٢٧ [١٩٤٨م] : «لقد شاهدنا من فتحة الباب أن الاوروبيين جميعهم متعلمون، لكننا لم نشاهد رسوخ تقاليدهم وآدابهم، ولم نلاحظ أن نظامهم التعليمي من الابتدائية وحتى الجامعة قائم على أساس النظام الكنسي، بينما هدمنا نحن هذا الأساس في بلادنا بواسطة التنور الغربي، لأننا كنّا ملكيين أكثر من الملك!» مجلة التربية والتعليم ـ سنة ١٣٢٧ [١٩٤٨م] من مقالة بعنوان «التعليم المجاني الشامل».

المشروطة.[1] وفي رأيي فإن جميع هؤلاء السادة هم النسخ المحلية لـ «مونتسكيو». وقد سقطوا جميعاً من الجهة الأخرى للسطح[2]. وهم يشعرون في دخيلتهم بأن أسسنا الاجتماعية وتقاليدنا القديمة لاتستطيع المقاومة قبال حتمية الآلة والتكنولوجيا، فتراهم يتشبثون بـ«أخذ الحضارة الاجنبية بدون التصوف الايراني»[3]، لكن كل واحد منهم يتحرّك للعثور على العلاج في طريق يختلف عن طريق الآخر، فواحد راح يؤجج النار تحت قدور السفارات، وآخر تصوّر أن من الضروري تقليد الغرب، واتباع «لوثر» حذو النعل بالنعل، لبثّ روح جديدة في التقاليد البالية عبر حركة إصلاحية دينية، وثالث دعا إلى الوحدة الاسلامية، في وقت كانت المذابح التي ارتكبت ضد الأرمن والاكراد قد فضحت العثمانيين في كل أصقاع العالم، وأستميحكم عذراً إذا كان كلامي مغلفاً..اذ لا مجال للصراحة أكثر.

في الصدر الأول من المشروطة «مرحلة الدستور» كان السبب الرئيسي لمواقف كبار القوم أنهم ظنوا (بمخالفيهم ومؤيديهم) أن الاسلام (= المشروعة = الدين) مايزال يحتفظ بشموليته وجامعيته، بحيث يستطيع أن يكون سداً مقابل نفوذ الآلة والغرب، ولهذا نرى بعضهم نهض للدفاع عنه، فيما انتفض الآخر لمجابهته..وهكذا تبلور مصطلحا

---

(١) في كتاباتهم «الاسلام، الملا وهاتف الغيب» و «إثنان وسبعون أمّة» و «رسالة كلمة» و «السياسه الطالبية» و «سياحة ابراهيم بيك» و... الخ روّجوا للتغريب وحاربوا الخرافات المنتشرة باسم الدين. وأنا أعتقد أنهم كانوا بذلك الطلائع الأولى للتغريب.

(٢) مثل فارسي يطلق على المتطرف الذي يبتعد عن أحد أطراف السطح اكثر من اللازم، فيسقط من الطرف الآخر - «المترجم».

(٣) نص عبارة ملكم خان، من مجموعة مؤلفاته، طبعة محيط طباطبائي - طهران ١٣٢٧ [١٩٤٨م] وراجع أيضاً «فكرة الحرية» لفريدون آدميت - طبعة طهران ١٣٤٠ [١٩٦١م]. وهو يطعن بمهارة خاصة في بعض الماسونيين ويتعاطف مع بعضهم الآخر، والحال أن الماسونيين جميعهم في رأيي من صنف واحد.

«المشروطة» و «المشروعة» كمفهومين متضاربين يدل الأول منهما على اللادين، والثاني على التدين، وفي تصوري أن كلا الفريقين نفخ البوق من فتحته الكبيرة[1]، مع أننا لو كنا نعيش في ذلك العهد لكان من المحتمل أن نكرر نفس تخبطاتهم، ولما أصدرنا اليوم بحقهم مثل هذه الاحكام القاسية، فقد كان اولئك على كل حال أقرب منا إلى الفترة التي أبطل فيها الميرزا الشيرازي إمتياز التبغ الذي حصلت عليه شركة «رجي» البريطانية بفتوًى بسيطة، وبرهن للجميع على المكانة الخطيرة لعلماء الدين في المجتمع! ومهما يكن من أمر فإن جميع أولئك الخيّرين في الصدر الأول للمشروطة كانوا غافلين عن آلهة التقنية الاوروبية، التي كانت تزعم الهيمنة المطلقة بكل غرور وعنجهية، من فوق مباني البورصات والبنوك. ولم تكن لتقبل بوجود أية آلهة غيرها، بل وتضحك ساخرة من كل التقاليد والايديولوجيات التي تحاول أن تصون نفسها وسط هذا الخضمّ العاتي.

أجل، هكذا قمعت المشروطة علماء الدين، لتلعب دور الممهد للآلة والتقنية، وكان بعد ذلك أن نُفيتِ المدارس الدينية إلى مدن محددة، وانحسر نفوذها عن أجهزة القضاء والإحصاء، كما منع ارتداء الزي الديني، وفي مقابل كل هذه الضغوط، لم يبد علماء الدين أية ردود فعل مناسبة، وليس هذا وحسب، بل ظلّوا يهيمون في دوامة مقدمات الصلاة وتعقيباتها، وفي مسائل النجاسات والمطهرات..وبقوا حائرين في الشك بين الركعة الثانية والثالثة.. وفي أقصى ما بلغته هممهم حرموا الراديو والتلفزيون، اللذين أصبحا سادة الميدان في الوقت الحاضر، ولم يعد بامكان أية قوة الوقوف بوجههما، والحال أن المؤسسة الدينية كان من حقها ومن الجدير بها أن تتسلح بأسلحة الخصوم، لتحارب بمنصات بثها الاذاعية والتلفزيونية من قم ومشهد (كما تفعل الفاتيكان)، التغريب الذي تروّجه المنصات الحكومية وشبه الحكومية، ولأطلقها مُغلّفة: لو كان العلماء يعلمون أي أمل عظيم أودعوه قلوب الجماهير، وأية بذرة للثورة زرعوها في نفوس الشعب، عبر إفتائهم بعدم وجوب طاعة أولي الأمر، ولو كان بإمكانهم تنوير الناس وتعريفهم

---

(١) مثل فارسي يطلق على من يفكر أو يعمل بالمقلوب. «المترجم»

بالخصائص الأصيلة لأولي الأمر، عن طريق وسائل إعلام عصرية، كالصحف والاذاعة والتلفاز والافلام و...الخ، ولو كان بمقدورهم إعطاء مصاديق خاصة للأحكام العامة.. ولو استطاعوا تطوير وتنشيط عملهم عبر الانفتاح على المحافل الدينية العالمية، لما هاموا بالجزئيات على غرار ما نلاحظه اليوم، مما لايفضي لسوى الغفلة والابتعاد عن ميدان الحياة[1].

---

(١) ما بين الطبعتين الاولى والثانية لهذا الكتاب، صدر كتاب بعنوان «المرجعية وعلماء الدين» (١٣٤١ [١٩٦٢م] طبعة طهران ـ شركة إنتشار) تضمن كلاماً معروفاً عن علماء الدين، لكنه في ذات الوقت يدل على وعي وتبصر نسبي بهذه القضايا والمسؤوليات، وفيه بعض الحلول المقترحة، لاسيما في مقالات الاستاذ الجامعي المهندس بازرگان والسيد محمود طالقاني إمام جمعة مسجد هداية، ومن المقترحات تشكيل شورى للإفتاء بدل مرجع تقليد واحد، وإذا أذعنا أن هذا الكتاب برغم مثالبه كان نوعاً من التنبؤ بأحداث ١٥ خرداد ١٣٤٢ [٥ حزيران ١٩٦٣] (المنطلق الأول للثورة الاسلامية في إيران، حيث اصطدمت جموع من الشعب الايراني بالقوات المسلحة الشاهنشاهية إثر اعتقال الامام الخميني جرّاء احد خطاباته النارية التي ألقاها في قم. «المترجم») فإنني اليوم أجد في نفسي الجرأة لأقول لعلماء الدين:

أ ـ إذا كان من المقرر أن يغض علماء الدين الطرف عن مبادئهم..

ب ـ ويواصلوا شغفهم بالجزئيات والتحريم والتكفير..

ج ـ وينسوا أن مبدأ الاجتهاد والفتوى سند متين يستطيعون ان يفتحوا به الطريق واسعاً أمام التشيع كي يستوعب مقتضيات العصر، وهذه ميزة مهمة للشيعة على السنة (بالرغم من أن فتوى تحرير المرأة أصدرها زعيم الجامع الأزهر الشيخ محمود شلتوت، وليس أحد علماء الشيعة)، وعلى كل حال فإن علماء الدين إذا لم يتمكنوا في ضوء متطلبات العصر أن يمزقوا شرنقة الصدر الأول من المشروطة، فلن يبقى أمامنا سوى الاقتناع بأن آخر معاقل الصمود قبال التغريب فقدَ هو الآخر =

وكمثال أشير إلى الدور الذي مارسته واحدة فقط من شركات النفط خلال الستين عاماً الأخيرة، ملقية بظلالها الثقيلة على سياستنا ومجتمعنا، ثم أترك كل هذا الكلام عن الجذور التاريخية للداء.

منح الملك القاجاري إمتياز النفط في السنة الاولى من القرن العشرين (١٩٠١) للبريطاني وليام نوكس دارسي، الذي باع حقوقه بعد ذلك للشركة المعروفة، وقد اندلعت ثورة الدستور في ١٩٠٦م.

وكانت المنطقة المتعاقد عليها هي السفوح الجنوب غربية لجبال بختياري[١]، وماتزال آثار أول آبار النفط باقية في «مسجد سليمان»[٢] إذن لابد والحال هذه من إبعاد عشائر بختياري من هذه المنطقة، حتى يتسنى لأجهزة الحفر أن تنهش في جبال وسهول مسجد سليمان كما يحلو لها، وبهذا سارعت عشائر بختياري[٣] لتساعد مجاهدي تبريز ورشت على فتح طهران، وإذا ظلّت مشروطتنا ناقصة، فلأن الاقطاعيين انتفضوا لمناصرة نهضة تعادي في الأساس النظام الاقطاعي، وكنا مشغولين بالدستورية (المشروطة) والاستبداد، عندما اندلعت الحرب العالمية الاولى، لكن الشركة الاجنبية كانت قد حصلت

= مناعته وحيويته وقابليته على المبادرة، وتحول إلى متجر أثري لايصلح إلا للمتاحف، وفي أحسن الفروض أصبح ملجأً لكل القوى الرجعية.

(١) منطقة عشائرية وسط ايران. «المترجم»

(٢) إحدى مدن محافظة خوزستان جنوب غرب ايران. «المترجم»

(٣) لنتذكر أن أحد مساهمي شركة B.P النفطية هو الزعيم العشائري (سردار أسعد بختياري)، شأنه في ذلك شأن مشير الدولة (نصر الله خان)، وإذا كان سردار أسعد هذا قد قُضي عليه في زمن رضا شاه، أفلا تتصورون أنه كان صاحب طموحات في أراضي بختياري الغنية بالنفط ومنافساً للحكومة فيها؟ كما كانت للشيخ خزعل مزاعم في أراضي خوزستان، وكما كانت لجماعة (خان داودي) إدعاءاتهم في خارك، مما إنتهى بهم إلى الرمي بالرصاص..وللتوفر على معلومات أكبر حول هذه الاحداث راجعوا «الذهب الاسود أو بلاء ايران» بقلم أبو الفضل لساني.

على ما تحتاجه من النفط، وتوفرت للبحرية البريطانية التي تمتلك رسمياً إمتياز النفط، مصادر مضمونة للوقود.

تلاحظون أنني لاأكتب تاريخاً، بل استنبط النتائج من التاريخ فقط، وللقارئ أن يراجع الدلائل والأحداث في كتب التاريخ.

بعد ذلك وفي حوالى عام ١٣٠٠ [١٩٢١م] كانت الحرب قد إنتهت، وكان اصحاب الشركة من أبرز المنتصرين فيها..وحينما تخافتت مشاعل الحرب، تضاءل الاستهلاك الاجنبي للنفط، وكان لابد من العثور على المستهلك في الاسواق الداخلية ايضاً. إذن لابد من حكومة مركزية قوية تضمن أمن جميع الطرق، وترفع العقبات، ويغدو من الممكن نقل براميل النفط إلى قوجان وخوي ومكران[1]، ولابد من تأسيس مضخة بنزين في كل قرية.. والأهم من ذلك هو أن البحرية البريطانية صاحبة الامتياز لاتصبر على الاضطرابات الداخلية، ولايروق لها التفاوض مع الاقطاع والمجالس والصحافة، وتريد التعامل مع رجل واحد فقط، وهكذا كان انقلاب ١٢٩٩[2] [١٩٢١م] الذي تفتق عن حكومة عسكرية مستبدة، وعن عمليات قمع الاكراد، وعن تفاقم الوضع في «سميتقو»، والقضاء على الشيخ خزعل، الذي لو تصرف بقليل من الحكمة لكان له في خوزستان اليوم نظير مالآل خليفة في البحرين.

بعدها، أي في سنة ١٣١١ [١٩٣٢م] كان قد انقضى من مدة امتياز دراسي اكثر من النصف، وأخذ يقترب من نهايته..وكان على صاحب الامتياز (البحرية البريطانية التي تعني الحكومة البريطانية) أن تنتفع إلى أقصى حد من هذه القوة المركزية التي يحق لرجل واحد فيها أن يتحدث بالنيابة عن الجميع، ولابد أن تتجدد مدة الامتياز مادامت الامور متسقة. ولهذا يتحول تقي زاده من جديد إلى «وسيلة»، ويصادق المجلس ضمن مسرحية بائسة على لغو امتياز دراسي أولاً، ثم على عقده من جديد وبتطبيل شديد منع حتى شيوخ

---

١) مدن نائية في أطراف إيران. «المترجم»

٢) الانقلاب الذي وصل به رضا بهلوي بتخطيط من الانجليز الى سدة الحكم في إيران. «المترجم»

القوم من أن ينتبهوا إلى اللعبة الكبيرة، وحتى لو كانوا قد انتبهوا فإنهم لم ينبسوا ببنت شفة، لأننا لم نسمع لأحدهم حتى أنيناً واطئاً من تلك الحادثة، إلّا فيما بعد عندما عادت المياه إلى مجاريها، ووقف القوم بعد شهريور ١٣٢٠[١] [أواخر صيف ١٩٤١] على الجسر ليمسكوا هناك بعنان كل حمار يريد العبور[٢]، وبالطبع فإن مثل هذه الحقائق البشعة يجب أن تزوّق بمظاهر عصرية، أي ينبغي إخفاء الحقيقة. ولكن كيف؟ السبيل هو أن يوحدوا أزياء الشعب عنوة، وينزعوا القبعات التقليدية من رؤوس الرجال، والحجاب من رؤوس النساء، ليحققوا بذلك آخر الخطوات التقدمية الممكنة..ويمدوا سكك الحديد، لا بإيرادات النفط، بل بعائدات ضرائب السكر. وقد كان أهم مبررات ضرائب السكر هذه، إمداد الجبهات الخلفية لاستالينغراد في سنوات الحرب العالمية الثانية.

وفي سنة ١٣٢٠ [١٩٤١م] جثم شبح الحرب مرة ثانية على اوروبا، وبرز إلى السطح خطر رشيد عالي الكيلاني، والاقتراب الذي أبدته الحكومة الايرانية من محور روما ـ برلين (كعلامة على بلوغها، ولكن بعد فوات الاوان)، وكان الوضع حرجاً إلى أقصى غاية، ولايسمح بأي تساهل أو تسامح، وقد شاهدنا جميعاً كيف تحطّم في يوم واحد كل ذلك الاقتدار والجبروت والجيوش والشرطة والسلطة الثانية. وحينما يرضى نابليون بونابرت وهو القائد الفرنسي الكبير بجزيرة «سنت هيلانه» فمن الطبيعي أن يتكيّف قائد ايراني بسيط مع جزيرة «موريس». ثم إن الولايات المتحدة الامريكية كانت قد استيقظت قبل الحرب العالمية الأولى بأمد طويل. وكان على سفنها المحملة بالسلاح أن تتزود بالوقود في الخليج الفارسي. ولو كان الأمر بأيديكم، هل كنتم على استعداد لدفع الدولارات من جيوبكم لشركات بريطانية من أجل أن تتزود السفن الأجنبية بالوقود، في سبيل الانتصار على الفاشية (أي إنقاذ روسيا وبريطانيا) ؟!..

هنا تبدأ التمهيدات لتدخّل اميركا في قضية نفط الجنوب، خصوصاً وأن ثقل السياسة

---

(١) إشارة إلى استبدال الانجليز والاميركان لرضا بهلوي بابنه محمد رضا بهلوي. «المترجم»

(٢) يريد أنهم سيطروا على الأمور. «المترجم»

الاميركية هو الذي حرّك منظمة الامم المتحدة في قضية آذربيجان، مما دفع السوفيت إلى إخلائها.. وهكذا تعود القلاقل والنضال من أجل الحرية، والكلام عن إمتياز نفط الشمال الذي يشبه فزّاعة عصافير، لايرغب الانجليز أن تقع في أيدي الاميركان. وتبقى هذه الحرية النسبية حتى عام ١٣٢٩ [١٩٥١م] حيث يتأمم النفط وتسيطر أميركا، وتتغير مواقع أحجار الشطرنج الواحدة تلو الأخرى، فواحدة تُفنى من الوجود، وواحدة يُبطل مفعولها، كل ذلك من أجل أن تستطيع الرأسمالية الأميركية الإستيلاء على ٤٠٪ من أسهم الكنسرسيوم النفطي، التي كانت للبحرية البريطانية في السابق.

هذه هي قصة النهضة الوطنية في ٢٨ مرداد ١٣٣٢ [١٩ آب ١٩٥٣م]. وهذا ماأسميه التبعية في السياسة والاقتصاد، للغرب وللشركات النفطية والدول الغربية.. إنه المظهر الأكبر للتغريب في زماننا.. حيث تتكالب علينا الصناعة الغربية، وتسوسنا، وتحدد مصائرنا كما تشاء. وحينما تسيطر الشركات الاجنبية على مقدرات سياستنا واقتصادنا، فستعرف عندها ماينبغي أن تبيع لنا، أو تعرف على الأقل مالاينبغي أن تبيع لنا. والأفضل لها باعتبارها المنتجة الدائمية للبضائع أن لانستغني عنها أبداً. وحفظ الله لنا آبار النفط، يأخذون منها وقود الحياة ويعطوننا في مقابله كل مانريد، من حليب البلابل إلى أرواح البشر، إلى أطنان القمح والرز.

ومثل هذه الصفقات القسرية يمكن ملاحظتها حتى على الصعيد الثقافي، وفي المجالات الادبية واللغوية.. وبالإمكان تصفُّح بعض إصداراتنا الادبية ذات المستوى الجيد (كما تسمى) لنتأكد من صحة ذلك.. فهل نقرأ فيها من أخبارنا شيئاً أو من أخبار الشرق بصورة عامة، عن الهند أو اليابان أو الصين؟.. أبداً.. فكل الأخبار عن «نوبل»، وعن تغيير «البابا» وعن فرانسواز ساغان، وجوائز «كان» وآخر مسرحيات «برادوي»، وأحدث أفلام «هوليوود».. أما صحافتنا التجارية الملونة، فلها قصب السبق في هذه الترهات.. وإذا لم نسمِّ كل هذا تغريباً، فماذا نسميه؟!

(٧)
كشكول المفارقات

والآن، ها نحن والتشبّه بالاجانب، وبتقاليد غريبة عنا، وبثقافة ليست لها أية جذور في أرضنا، ولا أية ثمار أو فائدة لنا، إنه تشبّهٌ يلاحقنا في حياتنا اليومية، وفي مواقفنا السياسية والثقافية، ولهذا تبقى كل أمورنا بتراء ناقصة. ولنا أن نتساءل؛ من «نحن» أساساً؟ حوالى ١٩ أو ٢٠ مليون نسمة[١]، يعيش ٧٥ بالمائة منهم في القرى أو تحت الخيام، وبتقاليد بدائية جداً، على غير اطلاع بالقيم الجديدة، وإنما تحكمهم أعراف الإقطاع والرعية، لم يبصروا الماكنة في حياتهم، فأدواتهم في غاية البساطة والبدائية، وكل مايستعملونه من طعام ووقود وثياب ومنازل، يتسم بخصائص بدوية صارخة.. ومن ذلك؛ المحراث، وخبز الشعير، وفضلات المواشي، والجلابيب التقليدية، والاكواخ البالية، وما إلى ذلك من مؤشرات التخلف.. الشيء الوحيد الذي دخل القرى من عالم الغرب هو الخدمة العسكرية و «الترانزيستور»، وهذان وحدهما يكفيان للتدمير أكثر من أي ديناميت.

الخطوة الأولى التي تلزمنا هي التحوّل نحو التقنية، ولو باستبدال «الكرسي»[٢] بالمدفئة. لكن الناس في قرانا لاتعرف حتى الفحم، ناهيك عن النفط. ورغم أننا بلاد نفطية تسعى لتنمية استهلاك هذه المادة، بيد أن استهلاك الفرد الواحد منا للبنزين والنفط لا

---

(١) نفوس ايران بداية عقد الستينات. «المترجم»

(٢) طريقة تقليدية للتدفئة، خاصة بالعوائل الايرانية، وقد انقرضت في المدن حالياً أو تكاد - «المترجم».

يتجاوز في السنة ٢٥٠ لتراً.. هذا على الرغم من كل هذه السيارات السكراب التي تسيح في المدن وتتصادم هنا وهناك.[١] وبهذا المقدار من النفط لايمكن طبخ حتى وجبة من الـ «أشكنه»[٢].. ومع هذا فإن التغريب يقتضي أن نرمي بأريافنا، تحت أقدام الجرارات المعقدة، التي نضطر لشرائها بأموال النفط ! وماذا يفعل هذا الجرار؟ إنه يبعثر كل الحدود والاعتبارات الموروثة. وقد سبّب هذا المحراث العصري الأعمى، ماسبّب من المذابح والنزاعات الدامية في القرى، لأنه خرج ثلاثة أشبار من أراضي «كل مدولي» ليدخل بنفس المقدار في أراضي «كل عباس علي». وقد جمعتُ أرشيفاً كاملاً لهذه المعارك والصدامات، لأحررها مستقبلاً على شكل قصة.

وفي مثل هذه الظروف، يعتبر أهل الحل والعقد أن آخر السبل لتغيير حال الأرياف هو توزيع الاملاك والأراضي، وتضخيم طبقة الملاكين الصغار.. أي تبديل كل أرض صالحة للزراعة بيتاً عنكبوتياً تحصره الحدود الفردية، التي تشل كل الآلات الزراعية، وتسلبها فاعليتها. ثم تعال وانظر كيف أصبحت مزارعنا مقبرة لأجساد هذه الجرارات.. حيث لامراكز للتصليح تشرف على عملها، ولامساحات مفتوحة، ولاأراضي واسعة يمكن استخدامها فيها، ولاطرق معبدة لنقلها إلى المدينة للتصليح.. وبهذا نرى سكان القرى عاطلين عن العمل لثلاثة أشهر من السنة على الأقل، مضافاً إلى مايقاسونه من البرد والسيول وقلة المياه والجفاف والجراد.. فمتى سترتفع كل هذه المشكلات؟!

إذا كان ٩ إلى ١٥ بالمائة من سكان بلد صناعي متقدم، مسؤولين عن توفير الغذاء لكل سكان البلاد، فإننا نستخدم ٦٠ بالمائة من ابناء بلادنا لخدمة بطوننا، ورغم هذا نستورد

---

(١) مجمل استهلاك النفط (عدا القير والادوية الكيمياوية المستخلصة من النفط) لكل ايران في عام ١٣٤٢ش [٢١آذار ١٩٦٣م حتى آذار ١٩٦٤م] لم يتجاوز الـ ٥ ملايين طن. وإذا قسمنا هذا الرقم على ٢٠ مليون نسمة سيكون نصيب كل فرد ٢٥٠ ليتراً في السنة، أي نصف ليتر في اليوم الواحد.

(٢) من الأطعمة الايرانية البسيطة. «المترجم»

القمح كل عام من اميركا، والسكّر من فرموزه[1]، ومع هذا نُسمّى بلداً زراعياً. وحتى التسعة أشهر التي يعمل فيها القرويون الغيارى، ماهي نتيجتها؟ حصاد الأعلاف وتجفيف فضلات المواشي واخذ الأغنام إلى الساقية، وإقامة صلاة الاستسقاء.. «وهل نسمي هذا عملاً؟!.. الترانزيستور يقول إن الناس تعبُّ الأموال في المدن أواخر الأسبوع.. إذن، فلنمضِ إلى هناك على بركة الله !».

وهكذا يفر الناس جماعات جماعات من القرى إلى المدن،.. إلى المدن التي كانوا سابقاً يأخذون إليها شباب القرى الكفوئين، لينخرطوا في الخدمة العسكرية والحِمَالة والسخرة.. إلى المدن التي تحفظ الـ ٢٥ بالمائة الأخرى من المواطنين من حدثان الدهر، تحت سقوفها.. إلى مدن أغلبها قرى خربةٌ متضخمةٌ. أو على حد تعبير صديقي حسين ملك؛ عُقَدٌ مصطنعة في حبل الطريق. ثم إن كل واحدة من هذه المدن ليست في الواقع سوى سوق للصناعات الاجنبية. حيث تجد إنتاج خمسين عاماً من الدراجات الهوائية لمصنع «رالي» البريطاني في يزد[2]. وإنتاج شهر كامل لمصنع «ميتسوبيشي» في «تربت حيدرية»[3] وإنتاج عشر سنوات لمعامل «فورد» و «شوفرليت» و «فيات» في طهران. وبعد كل هذا لايجد الانسان قطعة من الزبدة في مدينة كرمان![4] وفي تبريز[5] عليك أن تأكل المعلبات الاسترالية! أنا شخصياً جرّبتُ كل هذا.

أجل.. نفرُّ من تلك الأرياف إلى هذه المدن، التي هي أشبه شيء بغابات خالية من الأشجار، ولن يكون لنا من عمل هناك سوى حراسة السيارات وبيع صكوك السعادة! وإذا كنا محظوظين جداً فسنحصل على أعمال حقيرة شاقة، بأجور لاتزيد عن ١٠ تومانات في

---

(١) الاسم الصيني لجزيرة تايوان. «المترجم»

(٢) مركز محافظة بنفس الاسم في وسط ايران. «المترجم»

(٣) إحدى مدن محافظة خراسان (شمال شرق ايران). «المترجم»

(٤) مركز محافظة بنفس الاسم في جنوب شرق ايران. «المترجم»

(٥) مركز محافظة آذربيجان الشرقية في شمال غرب ايران. «المترجم»

اليوم، مع طعام الغداء.. الأجور التي تمنح لساعة واحدة من العمل في البلدان الصناعية.

صحيح أن مدننا آخذة بالاتساع على حالها هذه، ولكن متى كان بامكان المدينة أن تعيش بغير الريف؟! وعلى هذا المنوال ستكون لنا غداً، بدل القرى والمدن، تلال عامرة من سكراب المكائن، كل واحد منها يشبه الـ «جنك يارد»[1] الاميركي الذي لايقل حجمه عن مساحة طهران، ثم إن الآلة ليست كالمدفع، يمكن حمله على ظهور البغال والتنقل به لأغراض عسكرية إلى هنا وهناك. وحتى لو اشتريت سيارة «بيجو»، فأنت مضطر لتوفير موقف آمن لها في الليل، وإلّا فإن البرد سيقضي على جهاز التبريد فيها، ثم من أين ستدفع أقساطها؟ ولهذا تجد لدينا العديد من سوّاق الأجرة في المدن ينامون ليلهم في البانسيونات بتومانين للسرير الواحد، في حين تنام سياراتهم في الموقف الفلاني بتومان واحد لليلة الواحدة..وطقسنا ومناخنا على ما تعرفون.

حتمية استخدام الآلة يستتبع الحياة في المدن، وهذه الحياة ماهي إلّا حصيلة الاجتثاث من الأرض، فمن أجل أن تهاجر إلى المدينة، لابد أن تهرب من القرية، أو تتعب من حل وترحال القبيلة فتفرّ إلى المدينة، وهذا اجتثاث للنفس من تربة الآباء والأجداد.

وهو أول تناقض ينجم عن التغريب، فمن أجل أن نلبّي دعوة الماكنة للعيش في المدن، نجتثُّ الناس من أصلهم القروي، لنقذف بهم إلى مدنٍ لاتتوفر فيها لهم أعمال، ولامساكن، ولامأوىً ولاخدمات ولا...في حين أن الماكنة ذاتها بدأت تتسرب إلى الريف، ومع أن كل آلة تؤدي عمل عشرين إنساناً، لكنها في الريف ليست بغنىً عمّن يقوم بخدمتها، ولابد لخادمها أن يكون تقنياً ماهراً، ومن أين نأتي بهذا؟ وهكذا ترون أن القضية شائكة بأفضع صورة!!

وهناك مفارقات أخرى تنجم عن هذا التغريب؛

أولى الاهتمامات التي تشغل الإنسان في المدن هي البحث عمّا يلبّي حاجة المعدة، ثم

---

(١) مقابر السيارات العاطلة (Jank Yard)

ما تحت المعدة، ولأجل تحقيق الثانية لابد من الاهتمام بالهندام والمظاهر[1]، ففي القرية لم يكن بامكاننا الحصول على كل هذا، وهكذا فإن المصادر الرئيسية للبرجوازية الجديدة تتمثل في الصناعات الغذائية (كالسكر، والبسكويت، والسمن النباتي، والمعلبات، والحليب المعقم)، والصناعات الانشائية (كالاسمنت، والطابوق، والموزائيك و...الخ)، والملابس (كالنسيج، والتريكو، والموديلات الحديثة و...الخ)..وربما أمكن اعتبار كل هذه الصناعات، خطوات تقدمية بالنسبة لمنكوبين من أمثالنا، عانوا القحط والفقر لعدة قرون. فالمقحوط الذي أمضى عمره يأكل الخبز واللبن في الريف، عندما يتذوق الساندويش في المدينة، سيذهب بعدها إلى الحلاق والخياط، ثم إلى صباغ الاحذية، ثم إلى المبغى، أما الأحزاب والجمعيات فممنوعة.. وكذلك النوادي وماشاكلها من مراكز الاجتماع..أما المساجد فهي مما طواه النسيان ولم يعد لها ذكر، وإذا لم تكن كذلك، فيكفيها محرم ورمضان، وعوضاً عن كل هذا هناك دور السينما[2]، والتلفزيون، والصحف، التي تحشو

---

(١) «تشير الاحصائيات الدقيقة إلى أن ايران هي السادسة عشرة في العالم، من حيث عدد صالونات الحلاقة ومراكز التسريحات ففي طهران ٢٢٠٠ صالون حلاقة رجالي ونسوي بترخيص، و ٢٥٠٠ صالون بدون ترخيص، وبمقارنة هذه الارقام بما في لندن حيث يوجد ٤٢٠٠ صالون رجالي ونسوي، وفي موسكو التي تضم ٣٩٠٠ صالون، يمكن أن نفهم الدرجة التي بلغها أهالي طهران في السنوات الاخيرة، من حيث اهتمامم بظاهرهم» نقلاً عن مجلة فردوسي الاسبوعية، ص٢، الثلاثاء ٢١ خرداد ١٣٤٢ [١١ حزيران ١٩٦٣م].

(٢) «أضحت دور السينما الايرانية في عداد المخدرات والسجائر، وصارت ملجأ للهاربين من القلق، والبيت، والعائلة، والمدرسة، والكبت الجنسي، وباقي أنواع الحرمان، في طهران فقط يتردد الناس على دور السينما ٣٣ مليون مرة في العام، ويدفعون لذلك ٥٠٠ مليون ريال...» نقلاً عن مجلة قضايا ايرانية ـ آذر ١٣٤٢ [أواخر عام ١٩٦٣م]، ضمن مقال بعنوان «ماذا يريد الناس والسينما من =

كل يوم أذهان الآلاف من المواطنين الشرفاء بحركات هذا النجم السينمائي أو ذاك!

ومن أين يجب تأمين طعام كل هؤلاء؟ من القرية طبعاً..ولكن القرية أُخليت، والأبقار ذبحت، والقنوات معطّلة، والبرغي رقم ٥ في مضخة البئر العميق مكسور، ومحراث الجرار ينخره الصدأ، وإذا قدمت طلباً للشركة فلن تصل قطع الغيار في أقل من سنة..وبالتالي لا يمكن إشباع جميع المواطنين في المدينة بالحليب الاميركي المجفف أو القمح الاسترالي! والمفارقة الاخرى؛

هي أن الحياة البشرية بصورة عامة تحتاج إلى الأمن، سواء في المدينة أو في القرية..وقد مرَّ بنا أن أغلب القرى في طريقها إلى أن تُهجر، ثم إن القبائل الرُّحَّل تمر في تجوالها السنوي بغالبية هذه القرى، وبالكثير من المدن، وترحال القبائل يبيد الأراضي الزراعية، ويستغلها للرعي، ويخرِّب القنوات، ويلقي فيها الكلاب الميتة، ويسرق الدجاج، ويبث القلق، ويلغي الأمن، ولو اقتصرنا على هذه الظاهرة فقط، نكون في مدننا الصغيرة غير آمنين، فكيف بنا في الأرياف؟! ولهذا السبب أيضاً تنعدم الثقة بين الناس في بلادنا، وتنتشر التقية والازدواجية، والتحصن من مصائب الزمن داخل جدران عالية من التبن أو الاسمنت.

وإذا كانت جدران المدن في الماضي تلغي الحاجة إلى الجدران العالية حول المنازل، فاليوم حينما تهدّم جدران وبوابات المدن، يضطر الناس إلى إحاطة بيوتهم بالجدران العالية..ومثل هذه الجدران لاتوجد في الواقع الخارجي وحسب..وإنما في داخل كل واحد منا جدران شامخة لايحطمها شيء.. جميعنا مسجون داخل سور حصين من التشاؤم

= بعضهما؟»، وفي هذا المقال عبارات من «كتاب ايران» وهو تقرير قدمه ١٦ متخصصاً أميركياً حول ايران عام ١٩٥٧، فقد ورد حول قضية السينما:«في الأفلام يجد الايراني المتماهي مع الغرب تلك الحضارة الحديثة التي وعدوه بها في التعليم والتربية المعاصرة، لكنه محروم منها في الحياة..فالسينما بالنسبة له تعني الهرب من مجتمع زاخر بالفشل إلى عالم حالم تتحقق فيه مثله الغربية..».

والسلبية وعدم الثّقة والتوحد.

من ناحية أخرى أشرت إلى أن كل مدني أو قروي يقطن المدن، إما أن يكون هارباً من الإقطاعي أو فارّاً من القبيلة، أو متجنباً الطرق التي تشن عليها القبائل أثناء ترحالها، غاراتٍ خفية. فهدفه المهم أن يرتّب لنفسه في المدينة مكاناً آمنا، وهو بذلك ينسى أن هذا الأقطاعي حينما يتسلم زمام الأمور بعد عشر سنوات ويؤسس السلسلة الفلانية (راجع حكومة القبائل لاحكومة العوائل) سيُهدي المدينة التي لجأ هو إليها، أو القرية التي حفرت قناتها توّاً، لاقطاعي آخر، لتبدأ الكرّةُ من جديد، وكانت آخر هذه التقسيمات الاقطاعية ما شهدناه في زمن المشروطة.

ومع وجود نظام «الإقطاع» هذا، سنبقى بالطبع رازحين تحت تبعاته، ومنها انعدام الأمن، والضياع، والتشاؤم، واليأس من الغد..وكل هذا يحدث في عصر لم تعد فيه الآله اكبر الاقطاعيين وحسب، بل وتستلزم الأمن، ورفع الحدود والجدران، وبساطة الناس (والأفضل أن أقول سذاجتهم) والطاعة، والثقة بالآخرين، والاطمئنان إلى المستقبل.

ومفارقة أخرى؛

حينما تجتاحنا الماكنة وتستقر في المدن والقرى، فإنها ستفضي إلى بطالة العاملين في الصناعات المحلية، وتلغي طواحين القرية، وعجلات الغزل اليدوية، وتقضي على حياكة السجاد والبسط اليدوية.

فبعدما كان للسجاد، والبسط، والكاشي، والطرق على النحاس، والأحذية الريفية، أسواقها المتواضعة في إيران والخارج، ستكون إحدى إنجازات الآلة القضاء على تلك الأسواق، وتعريض صادرات السجاد لشتى الأخطار والتحديات.

وهذا في الواقع بداية الغيث، إذ عندما تدخل الماكنة إلى الريف، وقد دخلت، سنتعرض لمعضلات جديدة، أنا بنفسي شاهدت الطواحين الهوائية ما بين قائن[1] وكناباد[2]، قد

---

(١) من مدن محافظة خراسان (شمال شرق ايران). «المترجم»

(٢) إحدى مدن محافظة خوزستان (جنوب غرب ايران). «المترجم»

عطلت عن العمل، وكأنها دور ضيافة أثرية سقطت عن الاعتبار، أو حرّاس عجزة صرفهم النعاس عن حماية قراهم ومصالحهم. وفي دزفول[1] وحدها، شاهدت مايقارب المائة طاحونة عاطلة كلها عن الانتاج. فالماكنة حينما تطأ أقدامها الريف تلتهم كل مظاهر الاقتصاد الريفي والرعوي، وكل الصناعات اليدوية والمحلية. وهل أفضل من هذا؟ فهكذا لاتتلف كل هذه الأحداق والأيدي والصدور الشابة البريئة أمام أعمدة الحياكة من أجل تجميل قصور الأشراف. وبهذا فإن من أهم ايجابيات دخول الآلة إلى القرية، ليس إلغاء نظام الإقطاع والرعية، والقضاء على ظاهرة الحل والترحال، والحالة الحلزونية (حمل البيوت على الظهور) وحسب، وإنما إلغاء الحِرَف اليدوية والمحلية أيضاً، وحتى لو كانت هنالك برامج ومشاريع لدعم هذه الحِرف، فإنها في هذه الحالة سترفع من قيمتها وعائداتها. فمع وجود برامج داعمة، يمكن زيادة الأجور، لأن بالإمكان والحال هذه، استقطاب زبائن جدد لهذه الصناعات.

ومفارقة أخرى؛

هي أن أدوات الحياة البدائية كالمحراث، والكرسي، والكالة[2]، والفوانيس النفطية، والمناجل، وعجلات الغزل، وأعمدة الحياكة، تحمل معها نمطاً بدائياً من التفكير. وكنماذج لهذا النمط يمكن الاشارة إلى انواع الخرافات، والتطبيل على الطسوت[3]، والطلاسم والتمائم، للبراءة من الأمراض والآفات، وإفاضات الحاجة كلثوم و...الخ. وحينما تحل الماكنة لابد من زوال هذه الطريقة من التفكير. ولكن لاتتصوروا أن الأمر سيحصل بهذه السرعة، لأن هؤلاء المخرفين والكلثوميين، هم ذاتهم الذين توافدوا على المدن، وصاروا

---

(١) إحدى مدن محافظة خوزستان (جنوب غرب ايران). «المترجم»

(٢) نوع من الاحذية البسيطة المحلية. «المترجم»

(٣) إحدى الخرافات الشعبية التي كانت دارجة في ايران وعدة بلدان في المنطقة، حيث يضرب الناس على الطسوت عند الخسوف أو الكسوف، ويرددون أقوالاً تطلب من «الحوت» أن تلفظ الشمس أو القمر الذي ابتلعته!. «المترجم»

عبيداً للآلة، أو أصبحوا في القرى والأرياف سوّاقاً للجرارات والبولدوزرات. وقد شاهدت بأمّ عيني سائق بلدوزر يحفر في جزيرة خارك، معلقاً تميمة على مقود ماكنته العملاقة ! وسيارات الأجرة عندنا مملوءة بهذه التمائم والطلاسم. ودكاكيننا غاصة بالتعاويذ، وأشعار الزهد[1]، ولوحات «هذه الأمانة عندنا لأيامٍ معدودات».[2]

في مثل هذه الظروف، يجد المرء نفسه فجأة وقد صار مجرماً، يسطو على البيوت، ويداهم البنوك. فالبدوي جاء إلى المدينة وشمّر عن ذراعيه لخدمة الآلة، وعليه بكل خموله الذهني، وكسله في الحركة، وتسليمه أمام الأقدار، أن يعدو ويتحرك لمواكبة الآلة والتفاعل معها. هذا الرجل الذي كان حتى الأمس تحكمه المقادير، ويستخير لأبسط الأمور، ويذبح القرابين ويأكل النذور، عليه الآن التعامل مع آلة لاتفهم من القضاء والأقدار شيئاً، ولاتُحسّن من عملها ومنتوجها لأجل قرابينه وذبائحه. ولهذا عندما لاينفعه قربانه الشهري وتتابع صدماته وانتكاساته، ينفذ صبره فجأة، ويكفر بكل شيء، ويلجأ إلى الجريمة، أو يصبح متذبذباً أو وصولياً[3].

ومفارقة أخرى؛

من مستلزمات التغريب وحتمياته منح الحرية للمرأة. وربما كنّا شعرنا بحاجة البلاد إلى هذه الـ ٥٠ بالمائة من القوى الانسانية، فأمرنا برفع الحواجز، وكنس الطرقات

---

(١) كثيراً مايستعمل آل احمد في كتابه هذا عبارة (اين نيزبگذردي) والتي ترجمناها هنا بـ (الزهد)، وتعني عبارته حرفياً (لتمضِ هذه أيضاً) أو (لتمرّ هذه أيضاً) مع ياء النسبة، والمستعملة في الثقافة الشعبية الايرانية للتوصية بغض الطرف عن معضلة أو سلبية أو نقص، كما غُض الطرف عن الحالات السابقة، وتركها دون علاج، والصبر عليها، وإحتمالها حتى تمضي لحالها. «المترجم»

(٢) شطر من بيت شعري. «المترجم»

(٣) استعملت كلمة «وصولي» هنا في محل الإصطلاح «نان بنرخ روزخور» والذي يعني حرفياً «من يأكل الخبز بسعر اليوم، وهو من الامثال الايرانية، يطلق على المتلوّن كل يوم بلون جديد حسب ماتقتضيه الساعة، وماتوجبه مصالحه ومعيشته. «المترجم»

وفرشها، لتمرّ قافلة المرأة المعاصرة، وسط الضجيج والهتافات الصاخبة. ولكن هل قمنا بذلك في صورته الحقيقية العميقة؟! هل حقوق الرجل والمرأة عندنا، متساوية في كل المجالات ؟! أم أننا اكتفينا بإجبارهن بالقوة على خلع الحجاب، وبفتح أبواب بعض المدارس أمامهن؟!.. ثم ماذا؟! لا شيء. فهذا يكفيهن ويكفينا تماماً.. وبذلك مازلنا في أعماقنا نعتقد أن المرأة لا تستطيع النهوض بأعباء القضاء، ولايمكنها أن تدلي بشهادتها. أما التصويت والنيابة في المجلس، فقد افتضح أمرهما منذ زمن بعيد، ولا حقَّ حتى للرجال فيهما، بل ليس هنالك تصويت أساساً، والطلاق وقف على إرادة الرجال، ولاتعوزنا البراعة والعبقريه في تفسير ﴿الرجال قوّامون على النساء﴾، فماذا فعلنا إذن ؟ لم نسمح للمرأة بغير التظاهر في المجتمع.. والتظاهر فقط. أي الرياء. أي أننا سقنا المرأة، حصن التقاليد والعائلة والنسل والدم، إلى اللاأبالية والتحلل. سقناها إلى الشوارع، وأرغمناها على التهتك وعرض نفسها... على الاهتمام بظاهرها، والتسكع في الطرقات، والتقولب كل يوم بقالب الموضة الجديدة. فهلّا وفّرنا لها عملاً أو واجباً أو مسؤولية في المجتمع، أو شخصيه كريمة ؟! إطلاقاً ! فالنساء من هذا النوع مايزلن قلائل جداً. ومالم تتساو أجور الخدمات الاجتماعية التي يقدمها كل من الرجل والمرأة، ومالم تتحمل المرأة إلى جانب الرجل مسؤولية إدارة جزء من المجتمع (عدا واجبات البيت التي هي شأن داخلي مشترك بين الرجل والمرأة)، ومالم تترسخ المساواة بمعناها المادي والمعنوي الحقيقي بينهما، فلن تكون لنا (لسنوات من الآن) أية غاية من تحرير المرأة، سوى مضاعفة حشود مستهلكي المساحيق وأدوات التجميل (منتجات العالم الغربي).

هذا وجه آخر من وجوه التغريب.. والكلام طبعاً عن المدن.. وعن قيادة البلاد التي لامكان فيها للمرأة. أما في البادية والقرية فتتحمل المرأة عبء الحياة الأكبر، منذ قرون[1].

---

(١) في الفترة مابين الطبعة الاولى والثانية، شهدت البلاد احداثاً كثيرة، منها منح الحرية الشكلية للمرأة. فشاركت النسوة حتى في مسرحيات مجلس الشيوخ والمجالس الاخرى، لكن هذه الحريات =

ومفارقة أخرى معقدة جداً...

تسعون بالمائة من أبناء هذا الشعب مازالوا يعيشون بمعايير واعتبارات دينية. وأقصد بالتسعين بالمائة؛ جميع القرويين إضافةً إلى الكسبة والتجار والموظفين الصغار ومجمل من يشكلون الطبقة الثالثة والرابعة في المجتمع. إن هذه الطبقات ونظراً للفقر الذي تعيشه، لا تستطيع احتمال الحياة إلاّ بالإعتماد على المعتقدات الدينية. وهم مضطرون للبحث في عرصات السماء والدين والآخرة عن السعادة الدنيوية المفقودة. ومرحى لهم وألف مرحى، أحياناً يكرعون الخمرة، لكنهم بعد ذلك يطهرون أفواههم، ويقفون للصلاة بكل خشوع، ويتوبون في شهر رمضان، ويقدمون القرابين للسيد داود[1] و... الخ.

ان أياً من الحكومات التي توالت على رقابنا لم تفِ بأبسط العهود والأيمان، فالظلم والجور والإجحاف مبثوث كالسرطان في كل مكان !

ويرى جميع الـ ٩٠ بالمائة من أبناء الشعب الغيارى أن الحكومة ماهي إلاّ أداة للظلم، وانها إنما تغتصب حق إمام العصر، ولهذا يمتنعون عن دفع الضرائب، ويحتالون على الموظف الحكومي، ويتهربون من الخدمة العسكرية بألف طريقة وطريقة، ويجيبون كذباً عن أسئلة موظفي الإحصاء. ومع أن الصحف مليئة بتبريكات الأهالي الغيارى في «مزلقان جاي» للموظف الجديد بدائرة الأحوال المدنية، لكن أيّاً منهم لا يعترف بشيء إسمه الحكومة. اللهم باستثناء الجندرمة والترانزيستور. وفي بوشهر وبندر عباس[2] مايزال هنالك مثل يقول «لايصح النوم تحت جدار العجم»[3] والمراد بالعجم، الحكومة وموظفها القادم من طهران. أي ينبغي أن لايكون الإنسان خادماً للحكومة أو واثقاً

= تبقى مجرد تغطية بائسة على العيوب والنواقص التي نعيشها، حرية فارغة، مجرد كلام، مجرد رياء لخداع الاجانب. ومع هذا؛ ألاتعتقدون أنها حطمت سداً منيعاً؟!

(١) أحد الأولياء المدفونين في ايران. «المترجم»

(٢) بوشهر وبندر عباس من كبريات المدن في جنوب ايران على ساحل الخليج الفارسي. «المترجم»

(٣) نقلاً شفهياً عن صديقي اسماعيل رايين من أهالي تلك النواحي.

بموظفها ومؤسساتها. ولهذا تجد جميع المؤسسات الدينية من السقّاخانه[1] ومسجد المحلة، حتى مزارات الاولياء خارج المدينة، زاخرة بمختلف مظاهر التشكيك في شرعية الحكومة، إلى جانب مظاهر انتظار فرج المهدي الموعود إمام العصر والزمان، الذي ينبغي حقاً أن ندعو الله تعالى بتعجيل فرجه. ففي كلام الناس، وعلى الجدران، وعلى ألسنة الوعاظ، وفي الصلاة، والأذان، والمناجاة، وقصائد الشعراء، وفي احتفالات الخامس عشر من شعبان، وعلى بطاقات الأعراس، وفي كل مكان ترانا «في ظل رعاية إمام العصر والزمان».

كل هذا صحيح. لكن الحكومة لها خطابها الآخر، ودعوتها الدائمة لـ«حكومة وطنية» لها كامل مؤسساتها، ومدارسها، ومعسكراتها، ودوائرها، وسجونها، وأبواقها، وإذاعاتها. إننا حكومة تتوسل بشتى أنواع الحيل لتجبي الضرائب من الشعب، وتنتزع منه أبناءه بالقوة للخدمة في صفوف الجيش. ومن أهم مميزاتها، أنها تصنع المرتشين في كل مكان.. سفاراتها من أسوء السفارات في العالم، ولاعمل لمؤسساتها سوى التطبيل والتزمير لجلالة مَلك آخر (غير الإمام الموعود)، فتصُم بذلك أسماع العالم بمفاخره المبالغ فيها آلاف المرات، وتستعرض مدافعها وبنادقها أمام الشعب دائماً.

وبسبب هذا التعارض، ينسى الطفل في مدارسنا الابتدائية الصلاة، بمجرد أن يحفظ النشيد الشاهنشاهي باعتباره نشيداً وطنياً، وبمجرد أن يلتحق بالصف السادس الابتدائي، تراه يهجر المسجد إلى غير عودة.. وفي أول مرة يرتاد فيها السينما، يترك الدين على رف النسيان إلى الأبد. ولهذا فإن تسعين بالمائة من طلبة إعدادياتنا غير متدينين.. بل هم ليسوا غير متدينين، وانما متذبذبون في دينهم، ومعلّقون بين السماء والأرض، وغير مستندين إلى ركن وثيق.. منسلخون عن كل يقين وإيمان، لأنهم يرون الحكومة بكل مزاعمها، ومؤسساتها، وأموالها، والمساعدات الاجنبية، المدافع والدبابات، لاتستطيع حل أبسط المشاكل الاجتماعية، وأعني بها بطالة خريجي الاعداديات، ولهذا

---

(١) مواقع لشرب الماء في الشوارع والمعابر العامة، تكتسي طابعاً دينياً. «المترجم»

تتملكهم الحيرة. الراديو بجوارهم يصبُّ في أسماعهم السحر والإغراء على مدار الساعة، والسينما تستعرض لهم عوالم من هم أفضل منهم.. بيد أن هنالك واقعاً آخر، يتمثل في المحتوى الايماني والديني.. وكم يستطيع الانسان أن يصبر تحت مطرقة التفكير، ويبضع نفسه بخناجر التشكيك والشبهات، أو ينازع لإكتشاف الحقيقة في صورتها المطلقة؟ ولماذا لا يترك كل هذا ويصبح كالآخرين، ازدواجياً لا يمكن تشخيص ماإذا كان ملتزماً بالدين أو غير ملتزم.. ولايسهل إستشراف طبيعة حياته ولامستقبله.. فاللحظة غنيمة؟[1]

من المعروف في الإطار الثقافي، أن ثانوياتنا وجامعاتنا لاتخرِّج سوى موظفين، أو حملة شهادات عاطلين. لكن النقطة المهمة التي لم يلتفت إليها أحد لحد الآن، هي أن ثانوياتنا وجامعاتنا تخرِّج متغربين، وتنتج أناساً كأنهم نقوش على الماء[2]. وتمهِّد الأرضية اللازمة للتغريب. وهذا اكبر الأخطار التي تطالعنا بها جامعاتنا وثقافتنا. وسأتعرض في فصل آخر للملامح العامة للإنسان الذي تنتجه مصانع التغريب هذه. لكن مايجب التأكيد عليه الآن، هو أن نهضاتنا الشعوبية والسياسية والطائفية في التاريخ (وخلافاً لما يراه مؤرخونا الكبار) لم تحقق لنا في يوم من الأيام شيئاً ذا بال. والمراد هنا هو النهضات المغالية في طابعها القومي أو الطائفي. وإذا كانت قد حققت شيئاً ما، فهو أنها وضعت الأساس الذي شيد عليه الصفويون قبل حوالي ٥٠٠ عام بنيانهم. ففي ذلك العهد اتحدت الحكومة الوطنية والحكومة الدينية لتصبح حكومة واحدة. وفي بدايات الكتاب أشرت إلى النتائج التاريخية التي تمخض عنها هذا الزواج. ولابد أن نستحضر هنا أننا عشنا خلال الحقبة الساسانية مثل هذه الحالة السياسية التي قادت إلى ظهور ماني

---

(١) إلتفت خليل ملكي قبلنا جميعاً إلى مرض «فقدان الملامح» هذا عند الشباب. راجع «مهر كان» الاسبوعي، سنوات ٣٢ و ٣٣ و ٣٤ [٥٣ و ٥٤ و ٥٥ م]، وبعد ذلك في مجلة «علم وزندگي» سنوات ٣٨ و ٣٩ [٥٩ و ٦٠ م] ضمن مقالات بهذه العناوين.

(٢) ترجمة للمثل الشعبي الايراني الدارج «نقش برآب» والذي يطلق على الأشياء غير الحقيقية والتي لاقيمة لها وكأنها الصور التي تنعكس في الماء، فهي غير واقعية ومجرد انعكاس. «المترجم»

ومزدك، ثم إلى بزوغ الإسلام. أما اليوم حيث تمزقت تلك الوحدة، وامتاز المتنافسان القديمان بمؤسسات وتقاليد ومواضعات مستقلة، فقد تردّى الوضع عمّا كان عليه في تينك الحقبتين. وبلغ التباين بين الدين ومنافسه، أن حكوماتنا أخذت تستخدم التغريب والتشبه بالاجنبي، لتواصل مسيرها في الطريق الذي لاينتهي بنا لسوى البوار والانحطاط والإفلاس، فبمقدار ماتستند السلطة اليوم على الغرب والأجانب لترسيخ وجودها، فإن السلطة الدينية تتوسل بالماضي لتواصل وجودها[1]. وحينما ترى السلطة أن ٩٠ بالمائة من الجماهير لا يستمعون إلى سحرها، ويحتفلون ويتبادلون التهاني بميلاد صاحب الزمان، أي عندما ترى أن الدين يغتصب عناوينها الرسمية ولايعترف بها، فإنها تجد الأرض تحت أقدامها متزلزلة، ولا ترى من طريق سوى مزيد من التهالك في أحضان الغرب، والاعتماد على مساعداته العسكرية.. على المدافع والدبابات المهداة من اميركا، وعلى الصحافة الأجنبية.. وعلى الجرائد ومراسليها، وعلى رجال السياسة الغربيين، لعل ذلك يضمن لها البقاء ليومين اكثر. إن حكوماتنا تدعو للحكم الوطني في الظاهر، وتقمع في الخفاء الحكومة الدينية.[2] ومن أجل إستغفال الجماهير، تطلق مزاعم

---

(١) تبينت صحة هذا الزعم من خلال السجال الذي دار بين إذاعة الشاه والزعماء الدينيين (اسفند ١٣٤١ وفروردين ٤٢) = [٢٠ شباط إلى آذار ١٩٦٣ و ٢١ آذار حتى ٢٠ نيسان ١٩٦٣م]. ثم في المذبحة الظالمة في ١٥ خرداد ١٣٤٢ [٥ حزيران ١٩٦٣م] التي ابتهج راديو موسكو بها، واعتبرها قمعاً لحركة رجعية.

(٢) وهي من التاريخ المذكور أعلاه فما بعد تقمع الدين علناً. والحال أن الملكية من تراث القرون الغابرة. وليس هنالك مؤسستان تحتاجان إلى بعضهما كماهي الحال معهما. والمهم هو أن التعارض بين هذين المتنافسين بعد ثلاثمائة سنة من تناسي الخلافات، بدأ يظهر إلى السطح في هذه الأيام. وهذا دون ريب بداية مرحلة جديدة من سماتها أن انتشار الثقافة والمد التنويري سيسحب البساط من تحت أقدام هذين المتنافسين.. فإلى ماذا ستنتهي الظاهرة الدينية اليوم، بعد أن أفضت في زمن =

استرجاع البحرين، في حين ماتزال قضية شط العرب بدون حل منذ ٢٠٠ سنة. وكل هذا يحدث في زمن تحتّم فيه الآلة رفع جميع الحدود والحواجز، وتحطيم كل الأبواب، وتدويل وعولمة كل شيء في كل مكان. إنها تطالب بالأسواق المشتركة والحدود المفتوحة والجمارك المعطّلة. وهي ترفع علم الأمم المتحدة وتقود سيارتها إلى حيث يصل بها وقود الشركات إننا نخضع مرة أخرى لحكومة وطنية ونقيم بيننا وبين جيراننا جدراناً أطول من جدار الصين، فنقاطع العراقيين، والافغان، والباكستانيين، والروس، ونبقى نجهل أحوال بعضنا، فتأتي شركات استخراج الألماس والنحاس لتصيب بسهامها «هامر شولد» في وسط «كاتانغا»! في مثل هذا المقطع الزمني، نحاول الدعاية للحكومة الوطنية من خلال المدارس، والنشيد الوطني، ومنظمة الأمن، والمساعدات العسكرية، والاحتفال بمرور ٢٥٠٠ سنة على قيام الملكية في ايران. هذا في عصر لاتعني فيه الحدود بين البلدان سوى مناطق نفوذ الشركات المختلفة، فإلى هنا مِلكٌ لـ«جنرال موتورز»، وإلى هناك مِلْكٌ لـ«سوكوني واكيوم»، وإلى هذا الحد من ممالك «شل» و«بريتيش بتروليوم»، ومن هنا إلى هناك بلاد «بان اميركان» و «آجيب ميزاريا»!

إن الشعوب واللغات والأجناس البشرية والاديان، إن لم تكن اليوم ألعوبة بيد المستشرقين الذين سأتطرق لشأنهم في صفحات تالية، فهي في أحسن الافتراضات مواضيع مختبرية للعلماء والباحثين الغربيين.[1] ومن أجل هذا ليس هنالك في القرن العشرين مَن يستعرض عضلاته طمعاً في الصراع. لكن إذا كنت أنا والأفغاني، رغم وحدة الدين واللغة والعنصر، غير مطلعين على أحوال بعضنا، وإذا كان السفر إلى الهند والعراق

= الميرزا الشيرازي إلى اغتيال الشاه، وفي عهد المشروطة إلى خلع محمد علي شاه وتغيير النظام؟! المستنيرون هم الذين سيجيبون عن هذا السؤال.

(١) ينظم حالياً عدد قليل من الجامعيين السويديين أطلس علم اللغات الايراني والافغاني. وسواء كان هذا الخبر ساراً أو محزناً فإن الأطلس الأفغاني أُنجز، لكن الايراني مايزال ناقصاً لاسباب ليس هذا موضعها.

أصعب من اقتحام جدار الصين، فالسبب هو أننا منطقة نفوذ هذه الشركة، والافغان منطقة نفوذ تلك الشركة. في مثل هذا العصر، كلما كانت الحدود بين الشعوب مغلقة، وكلما ترسخت التقاليد العنصرية، وكلما تضاعفت عنتريات الملوك والعصبيات العمياء، ومهما انتشرت التعاليم الدينية في المجتمع أكثر، كانت طامورة الشعوب والجماهير أعمق وأشد ظلاماً. وإلاّ فأي حدود حالت دون دخول البيبسي كولا، أو وقفت بوجه سماسرة النفط، أو منعت تسرب أفلام «بريجيت باردو»، أو ضربت الحصار على مهربي المخدرات، أو حصنت البلاد من المستشرقين المشبوهين، سماسرة الاستعمار الرسميين؟!

أفضل هذه الحدود، أي اكثرها هشاشة وسقوطاً يمكن أن نلاحظها اليوم في القارة الافريقية. في يوم من الايام كانت فرنسا تسيطر على الكاميرون، وتشاد، والصحراء المركزية. وهي أقاليم موزعة على ثلاث مناطق مختلفة من افريقيا، وكان لبريطانيا أقليم خاص بها بجوار كل واحدة من هذه الولايات. وبعد أن انسحبت فرنسا وبريطانيا من القارة السوداء، لم تجد الحكومات المستقلة الافريقية حدود بلدانها سوى حدود المستعمرات الاجنبية القديمة. وهذا ماأدّى إلى سحق الكثير من الأقوام والأجناس والأديان الافريقية، واحتراقها بنار الحكومات المستقلة ذات الحكم الذاتي في افريقيا..ولندع هذا الحديث إلى غيره.

ربما نتذكر جميعاً كيف استخدم زعماء القوم، التيار الديني، أي حكومة الدين المستترة، لصالح الأهداف النضالية في قضية تأميم النفط، ولأقولها تلميحاً؛ إن قادة النضال آنذاك كانوا بمستوى أن يستفيدوا من مكانة الزعماء الدينيين في المجتمع، بحيث يستطيع حتى الأمّي البسيط تشخيص العملاء في جسد الحكومة، وهم يهدرون البترول تحت أقدام الشركات الاجنبية، ويشهرون السلاح بوجه ابناء الشعب. وهذا أهم درس على المستنيرين والقادة أن يستمدوه من تلك الحادثة[1].

---

(١) أريد أن أستعين مرة ثانية بالباحث الفرنسي «رينيه غروسه» في كتابه «وجه آسيا» ص١٣٢، =

وكآخر وأخطر مفارقة يفرزها التغريب:

أقول تلميحاً أيضاً: إننا نقع في منطقة من العالم، تحدث في شمالها وقائع كبرى، نبقى نجهلها بالإجبار، ولانتأثر منها، وحتى حين نتأثّر، فإن ذلك يحدث بشكل سطحي، الغرض منه تأخير الحادثة. والحال أن كوبا على بعد حوالى ثلاثين كيلومتراً من اميركا ذاتها، تتأثر بتلك الأحداث وتتفاعل معها، ولا تنطبق السماوات على الأرضين، وربما لهذا السبب كانت جدران حدودنا عصية إلى هذا الحد، وحكومتنا تصر على تقوية وتمتين هذه الجدران يوماً بعد آخر، معتمدة على مظاهر التغريب المختلفة، وموغلةً في العبودية للانسان الأشقر، من دون أدنى التفات إلى اعتبارات الحكومة الدينية الداخلية (التي تعد جداراً داخل جدار، وحكومة داخل حكومة)، وربما تصوروا أن الطريق الوحيد لصد هذه الاخطار المجاورة، التشبّث بالعصبيات والجمود والأمية والأحقاد القديمة. والحال أن مصير الحكومات والبلدان والحدود العالمية، تتعيّن اليوم على طاولات التفاوض بين الدول الكبرى، أما حكوماتنا هنا فقانعة بحراسة حدود الشركات، ولهذا السبب أيضاً نجد حكوماتنا، بالرغم من قمعها للدين وترويجها للانحلال والتغريب، غالباً ماتداري الدين وعلماءه، لأنها بحاجة إلى خداع العوام وتضليلهم.

وعلى كل حال، فهذه كلها تخبطات يائسة، ونحن بجوار هذه الاحداث الكبرى إذا لم نحرّك ساكناً، فحتى لو أفترضنا أن حدودنا وثغورنا كانت محصّنة تمام التحصين،

= حيث يقول:«في النهضة التي شهدتها ايران ضد شركة النفط، أحرزت في وقت واحد تأييد.وإعجاب افغانستان وباكستان والدول العربية، وهذه هي المرة الاولى التي ينضوي فيها التشيع إلى الوحدة الاسلامية بعدما كان سداً أمام تعاون الشعوب المسلمة، والسبب هو أنه قد ولّى ذلك الزمن الذي كان فيه الملوك الصفويون الشيعة يتحالفون مع الاوروبيين لصد السلطان العثماني خليفة أهل السنة»، وأنا أقول: إن كيد الاوروبيين عاد إلى نحورهم، وعلى كل حال فهل هذا خبر مفرح بالنسبة لنا نحن آسيويي الشرق الاوسط، أم هو نذير خطر لشركات النفط التي لايمتلك الفرنسيون أسهم تذكر فيها؟ ومهما يكن من أمر فقد ذكر غروسه بشيء من الوضوح ما أشرت إليه تلميحاً.

وحتى لو تحايلنا على المحافل الدينية لنمنع الدين من نخر هذه الجدران من الداخل، فإن مستوى الماء في هذا المستنقع سيرتفع يوماً ما، طبقاً لقانون «الأواني المستطرقة»، ليَلتَهِمَ السيل كل قصورنا الورقية..وليس هذا الخطاب، خطاب تهديد أو إرهاب، فقد ذكرت في بداية الكتاب إلى أين انتقل مركز هذا التهديد والارهاب، بل هو خطاب التجانس مع المجتمعات المتقدمة..عذراً إذا كنت أتكلم بتحفّظ.

(٨)

كيف نُبْطِلُ السِّحْرَ؟

والآن، ها نحن أمة تقف وجهاً لوجه إزاء الآلة، لتخسر قبالها آخر ماتبقى لها من الارادة. وتتحول إلى شتات يرضخ لكل مايأتيه من الخارج...فماذا يجب أن نفعل؟ هل ينبغي أن نبقى كما كنا مجرد مستهلكين، أم نغلق أبواب الحياة بوجه التكنولوجيا ونهرب إلى قعر الاعراف البالية، والتقاليد الوطنية والدينية، أم أن هناك طريقاً ثالثاً؟

أن نبقى مستهلكين فقط، ونستسلم لهذا القضاء المعاصر، هو الطريق الذي سلكناه لحد الآن، وانتهى بنا إلى مانحن عليه اليوم..إلى التغريب، والأكل من فتات مائدة الغرب، والانبهار به، وانتظار أن يأتي الغربيون كل بضع سنوات، فيمنحونا اعتماداً أو مساعدة، نشتري بها صناعاتهم، ونعيد الكرة كلما تلفت تلك الصناعات، صحيح أنه الطريق الأسهل، والذي يحقق لنا كسلنا وخمولنا وبطالتنا، ويتجانس وانعدام الكفاءة عندنا، ولكنه لو كان يجدي شيئاً، لماعانينا كل هذه المعضلات والمتاعب، ولما كنا دوماً عرضة للإفلاس، أو (على الأقل) لم تكن هنالك حاجة لمثل هذه السطور.

أما أن ننكفىء إلى داخل جحورنا إلى الأبد، فهذا مالم يخطر حتى على بال المجانين، ونحن أمة تسعى للتطور على أية حال، وإذا كنا نعاني قلقاً بخصوص أنماط الحياة والتفكير، فلأننا نريد خلع الجلد القديم عن أجسامنا والتمظهر بجلد قشيب.

ولنفترض أن الأمر ليس كذلك، وأن بامكاننا البقاء داخل قوقعة التقاليد، والعودة إلى أدوات الحياة البدائية (كما هو حال غالبية قرانا)..فكيف إذن فَرَضَتْ علينا مصالحنا السياسية والاقتصادية، المشتركة مع باقي المجتمعات البشرية، أن نمنح نصف أراضينا لمعاول وحفارات الشركات الاجنبية؟ ثم إلى متى يمكن الجلوس على قارعة الطريق

والتفرّج على مرور قوافل الزمن، تجري بكل جديد وضروري؟!

حتى آل سعود برغم كل تخلفهم وعصبياتهم الجاهلية، وبقائهم على نظام العقوبات الدمويّة القاسية، نراهم استسلموا لتحوّلات الآلة، مما يعني أن طريق العودة إلى الوراء مسدود أساساً، وإمكانية المراوحة في نفس المكان منتفية.

أما الطريق الثالث، فهو أن نحبس مارد الآلة في القمقم، ونسيطر عليه ونستخدمه كما كنّا نستخدم المواشي والانعام، فتكون الآلة قفّازة ننطلق منها إلى أبعد مسافة ممكنة، إذن لابد من صناعة الآلة وامتلاكها، من دون الوقوع في أسرها أو الرضوخ لسلطانها المستبد، فتكون الآلة بذلك وسيلة لاهدفاً، أما الهدف فهو القضاء على الفقر، وتوفير الرفاه المادي والمعنوي لجميع المواطنين.

عندما كنا نركب الخيل، كانت لنا مراتعنا الممرعة الخضراء، التي نربّي فيها أجمل الخيول من أندر السلالات. ثم كانت لنا أختامنا الحديدية الساخنة، نختم بها الخيول كعلامة للامتلاك والحيازة البشرية، وكانت لنا اصطبلاتنا التي تستريح فيها الخيول وتتكاثر، ثم كانت لنا دور الضيافة التي يستريح فيها مسافرونا وخيولهم..وكانت هناك مسابقات فصلية لتقوية عضلات الحيوانات..وهل الآلة سوى حصان مملوك للانسان ومعدّ لخدمته؟ وإذا لم يكن للانسان أي دور في تكوين نطفة الحصان ونشأته وخلقه، فإن نطفة الآلة، أودعها الانسان بنفسه في أحشاء الحديد والفولاذ، وهكذا فإن مانحتاجه في البداية هو الاقتصاد المتين الذي يهيىء لنا صناعة الآلة وصيانتها. وأول مميزات مثل هذا الاقتصاد أن يكون اقتصاداً مستقلاً، ثم لابد من التعليم والدراسة واتباع المناهج العلمية، ثم لابد لنا من البوتقة التي تصهر الفلزات، لتخرجها بحسب ماتقتضيه الارادة البشرية، ثم يلزمنا العمّال المتخصصون الذين يصنعون منها صوراً مختلفة، ثم المدارس التي تغذي الشباب بهذه المهارات عملياً، ثم المعامل التي تحوّل الفلزات إلى مكائن ومصنوعات متنوعة، ثم الاسواق المدنية والقروية التي تجعل الآلة والصناعات الأخرى في متناول أيدي الناس...

المهم هو أن التحكّم في الآلة يقتضي صناعتها، فصناعة الآخرين أشبه بالتميمة أو

التعويذة التي تحمل في داخلها أسراراً ورموزاً ومجهولات من عوالم أخرى مخيفة وخارجة عن ايدينا، لذلك فإن من يحمل هذه التميمة في عنقه، لايمتلكها بالضرورة، بل قد يكون مملوكاً لها، لأنه يعيش في حماها، ويخاف دوماً أن تتعرض للإهانة، أو أن ترى السماء لونها، أو أن تسحقها الأقدام..لكن الطفل الذي علقوا هذه التميمة في عنقه، إذا كبر وقاده الفضول لأن يفتحها ويرى مافيها، وخصوصاً إذا استطاع قراءتها، ومشاهدة مارسم فيها من المثلثات، والمربعات، والنجوم، وماكتب عليها من كلمات، وإذا عرف معنى هذه الكلمات (أو خلوّها من المعنى بتعبير أدق)..فهل سيبقى في قلبه خوف منها؟!

والآلة ليست سوى تميمة بالنسبة لنا نحن المتغربين، نحتمي بها من شرور الحدثان، من دون التفات إلى أن الآخرين قد علقوها في أعناقنا لإرعابنا وامتصاصنا..فالمطلوب هو أن نكبر قليلاً، ونكون فضوليين، لنفتح هذه التميمة ونكتشف اسرارها.

وبالطبع يمكن السؤال، إن الامر إذا كان بهذه السهولة، فلماذا لم يفكّر فيه عقلاء القوم لحد الآن؟، وإذا كانوا قد فكروا فيه فلماذا لم ينتقل من حيّز التفكير إلى دائرة التنفيذ؟! في الإجابة عن هذين السؤالين أكتفي بجوابين فقط، وعليكم أن تحدسوا الباقي.

الأول هو أن الرعب والحرمة من المبادرة لفتح هذه التميمة ماتزال تعشعش في قلوبنا. ونحن نعلم أن «الحرام» و «التحريم» كلمات مستخلصة من «الحرمة» و«الاحترام»، والرعب من الآلة بالضبط كالرعب من التميمة، فإذا كان من المحرم علينا فتح التميمة، فحرام علينا فتح الماكنة والتعرف على اسرارها، والله وحده يعلم هل هذا الرعب هو السبب في التغريب، أم أن تغربنا هو سبب رعبنا من الماكنة؟!

إننا مانزال نعيش في زمن علاء الدين والأربعين حرامي. نقف خلف الجدار ونشاهد من فتحات الخوف أن اللصوص يهتفون برمز معين ثلاث مرات، فيتزحزح الجدار الصخري الهائل، وتظهر في داخل الغار كنوز عظيمة! لكن أقصى همّنا هو أن نقلّد حركات اللصوص وقراءاتهم، فقد تعلمنا الرمز بصعوبة، وأخذنا نكرره كالببغاء، فيتزحزح الجدار، لنجد أن الكنوز التي كانت خلفه قد سرقها النصابون!

والواقع أننا متى ماتخلصنا من هاجس الكنوز والرموز، واهتممنا بسبب حركة هذا

الجدار وأسراره وآلية تأثير تلك الرموز في الجدار، نكون قد اتبعنا المنهج العلمي وأصبحنا مؤهلين لاكتشاف طلاسم الآلة.

إن راهننا اليوم هو أن نستخدم الماكنة من الصباح إلى المساء، ونطبخ فيها طعامنا كل يوم. لكننا نخاف منها، كما يخاف الطفل من أمه حين تضع على رأسها قدراً وتصيّر من نفسها جنّية لتخويفه. والحال أن هذه الجنية ليست سوى القِدر الذي يحمل طعام الطفل كل يوم، والأم التي تحتويه بحنانها وحجرها الدافئ، وبسبب هذا الخوف من الآلة والتقنية، نرى طلبتنا في الخارج لايختارون من الفروع الدراسية سوى الطب، وعلم النفس، والعلوم الانسانية، وربما كان السبب هو أن الارضية لعمل التقنيين في بلادنا غير مهيّأة، وبفعل هذا الخوف أيضاً، يعمل الكثير من مهندسينا الزراعيين، موظفين في البنوك، وكم من خبراء الكيمياء يعملون مدراء حكوميين، وكم من خبراء المعادن يشتغلون بالمقاولات، صحيح أننا نحشو أذهان أبنائنا في المدارس لسنوات عديدة بمعادلات الفيزياء والكيمياء والرياضيات، ولانعير أدنى اهتمام للأدب والفلسفة والأخلاق، بحيث إن عقول طلبة المدارس اليوم، أضحت مخازن للمعادلات والقوانين والنظريات العلمية، ولكن ماالنتيجة من كل هذا؟ فالفرضيات والمعادلات في أذهاننا لاتستتبع أية تجربة واقعية، والافكار في المختبرات لاتتجسد كممارسات عملية، لذلك نجد أنفسنا مضطرين لمراجعة المختبرات الاجنبية لتحليل أية حجارة أو تربة أو مادة كيمياوية، ومن العجيب حقاً أن نكون دقيقين إلى آخر حد في الفنون الوطنية كحياكة السجاد والكاشي والمنمنمات والحفر على الخشب، بينما نحن على العكس تماماً فيما يخص التقنية والآلة، ألا تعتقدون أن هذا الخمول في التقنية والمهارات المعاصرة، جاء نتيجة الثقة المتزايدة بدوام ذخائرنا النفطية، وبالآلات التي نحصل عليها مقابل أثمان النفط؟ والغريب أن يحاول أحد قادتنا التنظير لهذه الحالة وفلسفتها، ليقول إننا مادمنا بلداً نفطياً، والأجنبي على استعداد لأن يقدّم لنا مقابل النفط كل شيء، فلماذا نتعب أنفسنا بإنشاء المعامل والصناعات الثقيلة، ونصدّع رؤوسنا بما تتطلبه من تدريب المتخصصين، وتحمّل الفشل في بداية الطريق، والخوض في مشكلات العامل ورب العمل والضمان والتقاعد و...الخ؟!

والواقع أننا نسلك هذا السبيل، أي أن هذه النظرية الحديثة، كانت مطبقة عملياً في بلادنا منذ زمن بعيد، وهي إحدى أسباب تغربنا، أو هي إحدى نتائجه المهمة...

ثم إننا إذا كنا دقيقين في فنوننا التقليدية، ولسنا كذلك في الصناعة، فلأن تلك الفنون انتقلت إلينا من جيل إلى جيل عبر قرون متمادية، ولقّنها الآباء للأبناء، والاساتذة للتلاميذ، فتوفرت بذلك أرضية صالحة لازدهارها، وتحولها إلى تقاليد راسخة في المجتمع.

أما الآلة، فهي ظاهرة حديثة، وليست تقليداً دارجاً في بلادنا، ولايتوفر لها في مجتمعنا اساتذة وورشات عمل وصفوف دراسية. ومن الطبيعي والحال هذه أن نستعين بالخبراء الاجانب عند بناء السدود، أو حين نشوب حرائق في آبارنا النفطية (أي آبارهم النفطية)، لأنهم بالتالي أمهر منا وأقدم تجربة. لكن المؤسف حقاً، أننا لانستعين بالخبراء الاجانب في مثل هذه الحالات الاستثنائية وحسب، بل وفي أغلب الحالات الاخرى أيضاً. إذ مانزال من أجل تشييد مصنع السكر او الإسمنت أو النسيج أو الخيوط أو البلاستيك، نأتي بالمكائن كاملة من اوروبا أو اميركا، ونستورد مع المكائن عصابة كبيرة من البشر، فيها من العامل البسيط إلى المهندس ورئيس المهندسين. فنمنحهم هنا الرواتب الهائلة، ونستضيفهم ثلاث أو أربع أو عشر سنوات، في إحدى نواحي البلاد..وليس عليهم هناك سوى التبذير والإسراف، من أجل أن تبقى بوتقات الإسمنت مشتعلة، أو أن تتحول عصارة السكر إلى اللون الابيض، أو تخرج ألياف الصوف متناسقة، وإذا أردنا أن نكون دقيقين في النظر للمسألة، لن نجد أية غرابة في الأمر، إذ ليس فينا متخصصون نستعيض بهم عن الأجانب، وحتى لو كان هناك أمثال هؤلاء المتخصصين فإننا سنبقى عاجزين عن استخدامهم، لأن الذين يبيعوننا الماكنة، يثبّتون ضمن عقد البيع أنهم لايضمنون عملاً أمثل للمصنع مالم يشيده خبراؤهم، وهذه من حتميات الاقتصاد المتخلف المصاب بالتغريب! وكأن لسان حال الأجنبي يخاطبنا؛ إذا كنتم تستطيعون أن تصنعوا شيئاً، فاصنعوا بأنفسكم، لتشيدوا بأنفسكم..أما إذا صنعتُ أنا شيئاً، فعليَّ أن أنفع خبرائي بما صنعت، وأبعثهم في نزهات وسياحة إلى الجنوب الحار..ليكتسبوا هناك تجارب جديدة، وخبرات أعمق، ورؤية أحذق، ومعرفة أدق بالبلدان المستهلكة للآلة.

وأما السبب الثاني الذي يمكن اعتباره إفرازاً لما ذكرناه أو مكملاً له؛ فهو أننا مادمنا نشتري صناعات الغرب، فإن البائع لايحلو له خسران هذا الزبون الطيّع، ومادمنا مجرد مشترين (أو مستهلكين)، فمن الطبيعي للمُصنّع أن يعمل باتجاه الإبقاء على هذه المعاملات ذات الاتجاه الواحد، ويحول دائماً دون اضطراب العلاقة بين الصانع والمتبضّع، وهكذا فمن حق الغرب «إنصافاً» أن لايسمح لنا (أي لايشجعنا) أن نصنع الآلة وأن يحول دوماً دون ذلك، إنه الغرب ذاته الذي تتظاهر حكوماتنا من أجله بالديمقراطية، وتخلط بين النساء والرجال في محافلها لترضيه، إنه الغرب ذاته الذي يهلك ملوكاً ويستخلف آخرين، ويبقيهم واقفين على أرجلهم، ويمدهم سراً وعلانية بأنواع المعونة، ويقيم لهم مؤتمرات المستشرقين، ويعدد مناقبهم في صحفه وإذاعاته باستمرار، لأنه يعرف شدة السحر الذي تبعثه شهادات الغرب في آذان الأمة.

واضح أن من مصلحة إقتصاد الدول الصناعية، أن نتخلف ونتأخر في وضع اليد على التكنولوجيا، وهذا ماتقول به حتى منظمة اليونسكو، بل وتعمل من أجله، وكذلك منظمة «فاو»، وحتى منظمة الامم المتحدة.

ومن هنا بالذات تنبع كل إخفاقاتنا ومشكلاتنا..من أن الغربيين أرغمونا على رعاية مصالحهم الاقتصادية. وإذا كانت انظمتنا السياسية في القرنين أو الثلاثة الماضية، مجرد ذنب تحركه السياسات الغربية، فلأن اقتصادياتنا عموماً كانت تابعة لإقتصادياتهم. وأتصور أن خير مثال على ذلك يتجلّىٰ في قضية البترول. هذا بغض النظر عن فترة «مصدّق» بين ١٩٥١ و١٩٥٣م التي اضطررنا فيها إلى تصدير حتى الفاصوليا. وفي تلك الفترة القصيرة كان أساس اقتصادنا يقوم على تدبير شؤون البلد بدون أي مراهنة على النفط، وهو قرار صائب تماماً، ويمكن العودة إليه في أي وقت قادم. لكن، مادام النفط يتدفق، فسيبقى الواقع كما هو، لأن هذه المادة تحقق دخولاً كبيرة، وتشجع على جعل أصحابها طفيليات اتكالية[1]. أجل إنه النفط الذي يستخرجه الغربي ويكرره ويستولي

---

(١) راجع الجدول في ص١٠٨.

عليه، ليفتح لنا في مقابله حسابات مصرفية في بنوكه، ويودع فيها كل عام ٤٠ مليون ليرة، لنشتري بها صناعاته، ونحن بحكم هذه الاعتمادات مرغمون على الشراء منه فقط، فأربعون بالمائة من استيرادنا يأتي من اميركا ومن يدور في فلكها، و٤٠ بالمائة من بريطانيا ومن لفّ لفها، والباقي من فرنسا وهولندا وأمثال هذه الدول، فنحن ملزمون مقابل مايمتصونه من وقود بلداننا أن نستورد صناعاتهم، ونستورد تبعاً لها علماء اللغات والآداب والرسم والموسيقى و...الخ.

ولهذا فبامكان «موريسون نودسون» ان يستورد كل مايريد من اميركا..من البلدوزرات، وحتى الأسلاك والبراغي، وأن يشتري الـ«آجيب مينراريا» من ايطاليا، والـ«جون مولم» لمد الطرق من بريطانيا، والـ«آنتروبوز» من فرنسا، والأنكى من ذلك مايجري في هذا الخضم من معاملات سرية، فـ«جون مولم»، أفتضح أمره ولملم بقايا ماء وجهه وفرَّ إلى غير عودة، ولكنه لم يتركنا وحالنا، بل مايزال يبث الدعاية في مجلة «تايم» لصالح رئيسة المنظمة الذي فتح أمامه أبواب بلادنا[1]. ومن هو رئيس جون مولم في طهران؟ إنه سماحة «بيتراوفري» المستشرق الانجليزي المتخصص باللغة الفارسية، والانسان الأنيق المحبوب، وأستاذ اللغات الشرقية في جامعة كمبردج وميشيغان، في شتاء عام ١٣٤١ [١٩٦٣م] ذهبت للقائه في كمبردج، كان يريد أن يراني، وقد سجّلت سكرتيرته المصونة لقاءنا في مفكرة برامجه. أخذتُ نسخة من الطبعة الاولى لهذا الكتاب وسرت اليه، فاستقبلني وتجاذبنا أطراف الحديث وأهديته الكتاب..وكان مما قلت له: أتعلم أن إدوارد براون حينما صار ادوارد براون لم يكن رئيساً لجون مولم في طهران، فأخذ يبكي وقال:«لقد كان ثرياً موسراً في حين كنت فقيراً معدماً» وما إلى ذلك من الكلام، وعندها وجدت أن الناس في كل الدنيا صغار بنفس المقدار.

---

(١) مجلة «تايم» الاميركية ـ بتاريخ ٢٨ شباط ١٩٦٤ ـ ص ٢٠ العمود الاخير، حول السيد ابتهاج.

جدول الصادرات والواردات خلال العقد ١٣٣١ ـ ٤٠ [١٩٥٢ ـ ١٩٦١م] نقلاً عن
(Iran - Almane - 1963 - P298) طبعة طهران.

السنوات	الصادرات		الواردات	
	الوزن بالاطنان	القيمة بالريال	الوزن بالاطنان	القيمة بالريال
١٥٢ ـ ١٩٥٣ (١٣٣١)	٣٥٤/٠٧٩	٥/٨٣١/٥٢٨	٢٣٢/٢٣٦	٥/٠٣١/٣٩٤
١٩٥٣ ـ ١٩٥٤	٤٤٣/٧٦٤	٨/٤٢٥/٦٢٢	٤٢٤/٤٤٥	٥/٤٢٤/٢٦٦
١٩٥٤ ـ ١٩٥٥	٤٩٠/٤٧٨	١٠/٢٨٨/١٧١	٥٠٣/٢٢٦	٧/٢٢٥/٠١٥
١٩٥٥ ـ ١٩٥٦	٥٠٧/٨٧٣	٨/٠٣٣/٧٢٦	٦٣٧/١٣٢	٩/١٢٥/٤٣٩
١٥٦ ـ ١٩٥٧	٤٦٣/٥٢٩	٧/٩٣٠/٦٩٠	٧٤٤/٨٧٦	٢٠/٩٨١/٢٢٨٨
١٩٥٧ ـ ١٩٥٨	٤٣٦/٦٤١	٨/٣٥٢/٩٢٢	٧٤٣/٧٨٤	٢٥/١٢٩/٣٤٢
١٩٥٨ ـ ١٩٥٩	٤٤٥/٣٩٨	٧/٩٤٠/٦١٥	٩٨٦/٠٩٢	٣٣/٤٥٨/٢٦٠
٩٥٩ ـ ١٩٦٠	٣٩٧/٢٣١	٧/٧٠١/٠١٧	١/٢٠١/٩٥٠	٤١/٦٣٠/١٣٥
١٩٦٠ ـ ١٩٦١	٤٤٦/٣٠٧	٨/٣٥٩/٨٧٠	١/٩١٣/٥١٤	٥٢/٦٥٧/١٣٩
١٩٦١ـ١٩٦٢(١٣٤٠ هـ ش)	٥٥١/٣٨٤	٩١/٥٩٣/٤٥٠	١/٦١٩/٢٣٤	٤٧/١٧٠/٧٠٧

بامكانكم ان تطرحوا الاعداد بأنفسكم، فأنا أخجل من ذلك، وبدل هذا أنقل لكم خبراً عن مجلة «البنك الوطني الايراني» العدد ٢٤٥ ـ بقلم السيد خوش كيش أحد الخبراء المصرفيين، يقول فيه: «خلال فترة تمتد لمايقارب الـ٣٢ عاماً، كان يعمل في ايران ١٢ بنكاً لكل منها عدة فروع، وكان خمسة من هذه البنوك متخصصة، ولكن ابتداءً من ١٣٣٥ حتى ١٣٣٩ [١٩٥٦ ـ ١٩٦٠م] (فترة حكومة الأبواب المفتوحة) أي خلال أربع سنوات فقط، تأسس ١٤ بنكاً آخر لكل منها فروعه وممثلياته وموظفوه..وكانت مهمتهم دفع أجور العمال الاجانب الذين نشتري نتاجاتهم! وخلال ست سنوات من ١٣٣٣ حتى١٣٣٩ [١٩٥٤ ـ ١٩٦٠م] ارتفعت إستيراداتنا من سبعة مليارات إلى ٥٢ مليار و ٦٠٠ مليون ريال، أي مايعادل ٨ أضعاف تقريباً.

هذا الشخص ذاته نشر مؤخراً كتاباً أسماه «ايران الحديثة»، يقول فيه:«صدر مؤخراً في ايران كتاب حول داء التغريب، وقد شاءت الاقدار أن يمنع، وربما كان الذين يفكرون مثل صاحب الكتاب أقلية بين الايرانيين المتعلمين، لكن التاريخ أثبت أنه لايمكن غض الطرف عن أية نهضة تنويرية في إيران مهما كانت صغيرة في بدايتها»[1]. أجل إنهم يراقبون الأمور بكل دقة، ولشركات فورد و روكفلر مراكزها الثقافية، ولها مساعداتها ودعمها للمشاريع الثقافية التي لصالحها بشكل مباشر أو غير مباشر. فبهذه الأموال يتأسس «مركز ايران» ومستشفى وجامعة شيراز الضخمة، وللقارئ أن يزور تلك الجامعة ليرى أيَّ محفل للأرسطوقراطية أقاموا هناك؟! وكيف قرروا الانجليزية لغة رسمية في كلية الآداب، وهم بجوار حافظ وسعدي؟! وأي مرصد أسسوا لمتابعة الأقمار الصناعية الاميركية؟!

وكيف استوردوا معداتهم وأجهزتهم من اميركا بالكامل؟! وكيف أن «فورد» و «روكفلر» تبذل الأموال لـ «فرانكلين» في طهران، لتأليف الكتب المدرسية. إذهبوا وانظروا[2] أية شركة عملاقة للنشر أسسوا، وكيف احتكروا إصدار الكتب المدرسية، ليحطموا قدرات كل الناشرين الايرانيين؟!

كنا في سفرة إلى فيروز آباد وكازرون وشيراز،[3] بصحبة المهندس سيحون وفرخ غفاري والمهندس مقتدر، وكان ذلك في النيروز من عام ١٣٤١ [أواخر آذار ١٩٦٢م]. وسمعنا هناك أن معالي «غير شمان»[4] يواصل تنقيباته في شابور بكازرون. فقررنا انتهاز الفرصة للقاء به. لكنه لم يكن موجوداً حين ذهبنا إليه، أو أنه كان نائماً ولم يوقظوه.

---

(1) Modern Iran. By peter Arery. Ed. Ernest Benn- London 1965.p.468

(٢) راجع «فوضى الكتب المدرسية» في «ثلاث مقالات أخرى» بقلمي.

(٣) مناطق في محافظة فارس (جنوب غرب ايران). «المترجم»

(٤) أحد علماء الآثار الفرنسيين المعروفين، الذين عملوا في ايران. «المترجم»

إلاّ أن خيامه وعدته كانت منتشرة في أطلال شابور، وعليها علامات الشركات النفطية الاجنبية. فماذا يعني هذا؟! معناه الواضح أن التنقيبات الاثرية في شابور صنيعة التنقيبات النفطية، وهكذا يريد معالي غير شمان أن يثبت بأية طريقة ممكنة أن خارك كانت منطقة مسيحية! وما إلى ذلك من الترهات.(١)

وعلى هذا المنوال يهاجر النفط وتأتي الآلة وكل مستلزماتها، من مستشرقين ومتخصصين وكتب وافلام وآداب. فمَن هو المنتفع مِن كل هذا ياترى؟! إنها الشركات الاجنبية بالدرجة الأولى (والتي تُعفى أرباح رساميلها في الخارج من الضرائب)، والسماسرة بالدرجة الثانية. ومن هم هؤلاء السماسرة؟ حاولوا أن تحدسوا بانفسكم، فضلاً عّما أسلفته أنا... وهكذا يكون لدينا وزراء ونواب مجلس وحكومة. وحكوماتنا تتضعضع بفعل هذا التبادل التجاري، فتسقط هذه الوزارة وتتشكل تلك الوزارة. والغرب يُحرِّك سياسيينا بهذه الطريقة، فإما يزلزل الأرض تحت أقدامهم، وإما يشجعهم ويربت على اكتافهم. وبهذا يضطر رجال السياسة عندنا (ولهم الحق) أن يسمروا أسماعهم وأبصارهم على ماتجود به «رويتر» و «يونايتد برس» و «تايم» اكثر من إصغائهم لغرفة التجارة في طهران، أو لجنة الاهداف الثقافية، أو لجان مدينة بيرجند(٢). لو كان ثمة لجان في تلك المدينة. وحينما يكون اقتصاد البلاد رهينة بيد الآخرين إلى هذه الدرجة، وهؤلاء الآخرون هم صنّاع الآلة، فمن الواضح أننا سنبقى دائماً زبائن محتاجين. ولحسن الحظ ماتزال أقساط السيارة أو الجرار أو البلدوزر غير مستوفاة بتمامها حينما تتحطم

---

(١) راجع «جزيرة خارك» بقلمي، وكذلك الكراس الذي حرره غير شمان عن هذه الجزيرة. ولنتذكر أن وجود النفط في خوزستان اكتشفه أحد هؤلاء المستشرقين - الآثاريين، أي «دمرغان» الفرنسي الذي جاء إلى ايران للتنقيبات في شوش حتى قبل «دارسي» ونشر نتائج حفرياته في مجلة «المعادن» بباريس، فأثارت ضجة كبيرة. وراجع «خمسون عاماً من النفط في ايران» بقلم مصطفى فاتح.

(٢) مدينة نائية في شرق ايران. «المترجم»

السيارة، أو تعطل عن العمل، والشركة المُصنِّعة لاتضمن التصليح لأكثر من خمس سنوات[1]. والأغرب من ذلك عندما تضطرب هذه العلاقة بنحوٍ من الأنحاء، في مكانٍ ما من العالم. عندها سيحرر مراسلو «رويتر» و «يونايتد برس» الأوراق الاولى من الملف، ثم يرتفع جعير الصليب الأحمر الدولي بإصابة اثنتين من ممرضاته بجروح، ثم يحزم الأجانب هناك أمتعة الهروب، ثم يرفع البابا في روما يديه بالدعاء لينجلي الكرب عن تلك الناحية، ثم تضطرب قيمة الأسهم في بورصات لندن ونيويورك. ثم تبدأ «تايمز» و «نيويورك تايمز» بنشر مقالات ذات ١٥٣ وجهاً لتتحف المسؤولين المحليين بنصائحها المخلصة، ثم تنفصم العلاقات السياسية، ثم تتدفق جموع المرتزقة، ويتحرك الأسطول السابع في البحر الأبيض أو الخليج الفارسي، أو مياه الصين، أو سواحل افريقيا. هذا ماجربناه مرات عديدة في تأميم النفط، وفي قناة السويس، وفي كوبا، والكونغو، وفيتنام.

وللإنصاف فإن سياستنا واقتصادنا لم تكن عاطلة تماماً في هذا المضمار. فمتخصصو الاقتصاد المتغربون يتناقشون فيما بينهم، والمستشارون الاجانب يجيئون ويذهبون، وفجأة تتأسس مصانع «جيب» و «فيات» ومصانع البلاستيك، ومصنع البطاريات العسكرية، الذي مايزال رجال الجيش في السجن جراء اختلاساتهم منه.. وكل هذا يحدث، بفخر، واعتزاز، وتشريفات، وأشرطة ثلاثية الألوان، ومقصٌ وورود، وتشكيلات فارعة. ولكن ماهو واقع الأمر؟ الواقع هو أن الشركات لم يعد ينفعها أن تصدر

---

(١) «الفيلسوف اللبناني شارل مالك الرئيس السابق لجمعية الأمم المتحدة، إتهم أصحاب الرساميل الغربيون بانهم لايمنحون الشعوب النامية سوى الحاجيات المادية، وقال أيضاً إن الطرق والسدود والتقنية وابتسامات الحكام هي كل مايفرض على الأمم المتخلفة. فلا أهمية للفكر والحرية والسعادة والحقيقة. هدفهم الرئيسي عالم من التقنية الدقيقة، وليس عالماً جديراً بالحياة البشرية، فضلاً عن أن يكون عالماً إلهياً» عن مجلة «تايم» الامريكية، بتاريخ ايلول ١٩٦٣ ص ٧٧، من تقرير محادثات المؤتمر الدولي الثالث عشر للادارة، الذي شارك فيه. ٤٢٠٠ خبير من ٨٤ بلداً في «مانهاتان».

لنا الأقمشة والبطاريات والأدوات التافهة. فالذي ينفعها هو تصدير الآلات الثقيلة. ثم إن الشركات الاجنبية إذا استطاعت تصدير الآلة بشكل مجزّء وعلى صورة قطع غيار، فستخفف من رسوم الجمارك التي تدفعها، وستنخفض كلفة التعليب والنقل، كما أن تكاليف إعداد ونصب هذه القطع في بلد مثل ايران أرخص طبعاً من بلدان اوروبا واميركا. ولهذا تزدهر مصانع تجميع سيارات «جيب» و «فيات» واجهزة الراديو والبطاريات، وباقي الصناعات الوسيطة الهجينة في البلدان النامية. ويجب أن لاننسى أن هذا النشاط هو على كل حال خطوة إلى الأمام بالنسبة للبلدان المتخلفة. وحتى لو لم تكن خطوة صحيحة ومدروسة، فهي صالحة على أقل تقدير للتبجح والمفاخرة في المحافل الداخلية والخارجية. ويمكن تبعاً لها، تقديم تقرير رسمي في نهاية كل سنة، يتضمن نسب زيادة عدد العمال والرساميل الوطنية والأجنبية[1]. وضمن هذا الإطار ذاته نعقد الندوات والمؤتمرات ونبرمج للخطّة الثانية والثالثة، ونواصل تبعيتنا للخبراء والمستشارين الأجانب.

ولابد من الالتفات إلى أننا إذا كنا بحاجة إلى خطة ثانية وثالثة، وإذا كان البنك الدولي يواصل ضغوطه، والرأي العام الغربي (أي مدراء الشركات) لايرضى عن حكومة في ايران إلاّ إذا كانت لها خططها المدونة الفارعة، فذلك لأن أرباب الصناعة الغربية يحرصون على معرفة مقدار ماتستقبله الاسواق الايرانية من صناعاتهم خلال السبع أو الخمس سنوات القادمة، فتخطيطهم وتفكيرهم ليس عشوائياً كتخطيطنا وتفكيرنا. وإنما يحسبون لكل شيء حسابه بمنتهى الدقة، وكلنا يعلم أن الانتاج الفائض يسبب أزمة، ويوقظ غول البطالة من سباته، ويزيد من خطر تغيير الأنظمة. ثم إن سعادة المسيو ديغول له آماله وطموحاته،[2] ومالي المستر مك ميلن لم يبلغ بعد سن التقاعد،

---

(١) في الجدول ص١١٣ أدرج عدد العمال والمؤسسات الصناعية والرساميل الموظفة فيها، نقلاً عن «Iran - Almanac» سنة ١٩٦٣م ـ طبعة طهران.

(٢) تذكروا أن الطبعة الاولى لهذا الكتاب صدرت في مهر ١٣٤١ [٢٣ أيلول إلى ٢٢تشرين الأول

والبريزدنت كندي مايزال في ريعان شبابه، ولهذا يريد الغرب أن يعرف كم يستطيع أن يمتص هذا الزبون الطيّع، خلال فترة الخطة الثالثة؟ وكم يستطيع زيادة أسهمه في بترول الشرق الأوسط، ليصدِّر إليه بعد ذلك الثلاجات والراديوات والطبّاخات الكهربائية؟ وكلنا يعلم أن هناك لجان عمل وندوات تشرف على هذا الإجحاف، عبر ما تقوم به من تداولات ثقافية وصناعية مع المستشارين الغربيين[1]. والايرانيون يشاركون بالطبع في هذه المؤتمرات واللجان، وأقصد بالايرانيين عينة مثقفينا، وبعبارة أدق، عينة متغرّبينا. ولكن كيف وبأي شكل تحصل هذه المشاركة؟ وأستميحكم العذر إذا تجاوزت بعض الحدود، إلاّ أن غالبية الايرانيين في هذه المؤتمرات لايبدو أنهم يتجاوزون حدود المترجمين في مشاركتهم. لأنهم إذا تجاوزوا هذا الحد، وأبدوا آراءً من عند أنفسهم، فإنها لن تقبل أولاً.. وسيُسلَبون حق التحاور والتداول مع الكبار ثانياً. وإذا كانت سياساتنا واقتصادياتنا تبعاً لسياسات واقتصاديات الغرب، كما رأينا، فأحد أسباب ذلك أن غالبية مثقفينا ومتنورينا (اولئك الذين استطاعوا الالتصاق بجهاز قيادة البلد)، ليسوا في أفضل الحالات، وفي أضخم مهماتهم، سوى مترجمين للمستشارين الغربيين. إنهم مجرد كتاب ومترجمين لآرائهم ومخططاتهم. فهل ترانا نجهل كم لدينا من الأرياف، أو الأراضي الصالحة للزراعة؟ وكم عندنا من الأنهار الميتة؟ وكم هنالك من القنوات المطمورة؟ وكم هو عدد العاطلين عن العمل، أو الأميين، أو الذين تعوزهم المدارس والخدمات الصحية؟[2]

= ١٩٦٢].

(١) ليس في ايدينا إحصائيات رسمية، ولكن المعروف أن ثلاثين ألف خبير ومهندس ومتخصص أجنبي يعملون حالياً [١٣٤١ هـ ش - ١٩٦٢م] في ايران.

(٢) كمثال أورد بعض الاحصائيات، ففي الوقت الحاضر (١٣٤١ هـ ش - ١٩٦٢م) لدينا بدل ٩٥٠٠ طبيب نحتاجهم ٥٩١٥ طبيباً فقط. وبدل ٣٨ ألف متخصص ولادة ومساعد طبيب ١٠٠٠ شخص فقط. وبدل ١٩٠ ألف سرير في المستشفيات ١٩ ألف سرير فقط. وعلى الصعيد الثقافي لدينا بدل ٩٥٠٠ =

الولايات والمحافظات	عدد الوحدات الصناعية	عدد العمال	الرساميل (بالريال)
آذربيجان الغربية	١٥٢	٢٦٧٦	٩٠٢/٤٧٣
كرمانشاه	٣٦٦	٤٠٦٢	٨٤٤/٣٧٣
خوزستان	٢٧٢	٣٠٤٤	١/٤٦٥/٠٢٥
فارس	٣٤٧	٤٦٤٢	١/٩٨٧/٨٣١
كرمان	٢٠٨	١٩٦٣	٦٨٢/٠٩٣
خراسان	٨٤٣	١١٠٦٩	٣/٢٧٨/٠٨٧
اصفهان	٨٩٩	٢٤٠٠٦	٥/٨٤٢/٨٣٨
سيستان وبلوشستان	٨٩	٣٠٤	٦٢/٠١٠
طهران	٢٨٤٤	٤٨٥٥٦	٢٢/٢٩٧/٢٧٤
جيلان	٨٥٦	٧٦٥٩	٢/٨٠٢/٢٣٣
مازندران	٨٨٣	١٦٥٠٤	٤/٦٢١/١٨٩
آذربيجان الشرقية	٣٩٣	٦٢٢٩	٧٢٨/٣٦٣
المجموع	٨١٥٦	١٣٠/٧١٤ عاملاً	٤٥/٥١٣/٧٨٩ ريالاً

أي أن نسبة العمال إلى كل السكان هي ١٣٠ ألفاً إلى عشرين مليون نسمة!

= مدرس حائز على شهادة الليسانس في مختلف الفروع العلمية ٤٢٠٠ مدرس فقط. ومن مجموع ٥٠ ألف حاضرة في البلاد، تتمتع سبعة أو ثمانية آلاف منها على أحسن التقادير بوجود المدارس. والخبر العجيب أنه على الرغم من كل هذا الفقر الثقافي، أغلقت الحكومة عام ١٣٤٢ [١٩٦٣م] جميع المعاهد العليا والتمهيدية في البلاد، بذريعة أن المراكز التعليمية المسائية تكلّف مصاريف إضافية. وبهذا أغلق ٤٢ معهداً في ايران.

هذه القضايا على الأقل لا تحتاج إلى التوسّل بين الحين والآخر بالمستشارين الأجانب. وليت عالج هذا التوسل شيئاً من مشكلاتنا. إن المراهنة على المستنيرين المتغربين، الذين يشاركون السلطة إدارة البلد، هو الذي يمهّد للمستشارين الغربيين أن يتصرفوا معنا بنفس الأسلوب الذي كان يسلكه سفراء بريطانيا وروسيا مع اتابك وامير كبير.[1] هذا لو كان متغربونا جديرين بالقياس بتلكم الشخصيات العظيمة، وإذا كان عدد محدد من السفراء، يفرضون آراءهم على الساسة الايرانيين في تلك الآونة، فإن المستشارين اليوم أرتال تتبع أرتالاً. وإذا كان اتابك وامیرکبیر هم الذين تُفرض عليهم آراء السفراء آنذاك، وقد كانا رجلين متمرسين محنّكين، يستندان إلى رصيد ضخم من التجارب والمعايير والتقاليد الشرقية، ويمتازان بالتزام راسخ بالمعتقدات والآداب والأعراف المحلية، فإن المعنيين اليوم بأوامر المستشارين الغربيين جموع كبيرة من المستنيرين المتغربين، الذين ليست لهم حنكة اتابك أو أمير كبير، ولاحتى غيرة الحاج ميرزا آغاسي، الذي لا أدري لماذا اشتهر بعدم الجدارة[2].هكذا يجري تطويع الأمم وامتهانها، لتغدو مِزقاً متروكةً لأقدار الآلة، ولقيادة المستنيرين المتغربين، وماتتمخض عنه المؤتمرات والندوات والخطط الخمسية، وتصبح رهينة المساعدات والقروض والاستثمارات في الصناعات الوسيطة. إلى هنا تحدثنا بما فيه الكفاية عن قدر الماكنة أو الماكنة ـ القدر. والآن لنرى أي صنف من البشرِ هُم أولئك القادة المتغربون؟ وإذا جاءت بعض الآراء شمولية عامة، فللقارئ أن يفرز من يراهم استثناءً.

---

(١) اتابك أحد أشهر رؤساء الوزراء في زمن الدولة القاجارية أواخر القرن الماضي وبدايات القرن العشرين. وأمير كبير هو المصلح الايراني المعروف والصدر الأعظم في زمن ناصر الدين شاه. «المترجم»

(٢) دافع عبد الله مستوفي في «سيرتي» ص ٤٥ حتى ٥٠ عن هذا الرجل، واعتبر أن «قائم مقام»، وماكان يحمله من أغراض ومقاصد، هو السبب في هذه السمعة.

(٩)

نِمْرٌ مِنْ وَرَق !

المتغرّب (الذي يشارك في جهاز إدارة البلاد)، إنسان معلق في الهواء.. ذرة متسكعة في الفضاء الخالي.. أو هو غثاء طافٍ على سطح الماء.. إنه إنسان منقطع عن عمقه الاجتماعي والثقافي والتراثي.. وهذا لايعني كونه حلقة وصل بين القديم والجديد، ولاخطّاً فاصلاً بين الماضي والحاضر.. وإنما هو أعجوبة ليست لها أية علاقة بالماضي، ولاأدنى وعي بالمستقبل.. إنه لايمثل حتى مجرد نقطة على خط مستقيم واضح.. وانما قد يكون نقطةً مفترضةً في اللامكان، بالضبط كتلك الذرة المتسكعة في الفضاء.

وقد تسألون؛ كيف إذن وصلت هذه الأعجوبة إلى مستوى قيادة الشعب؟! وأجيبكم؛ بقدر التكنولوجيا، وبقضاء السياسة الداخلية، التي لامفر أمامها سوى مجاراة السياسات الأكبر. ففي البلدان النفطية، لايرتفع إلى السطح، إلاّ ماكان وزنه أخفّ من كل شيء والمتغرب بطبيعته غير قادر على أن يغور في البحار ليستخرج اللآلىء والدرر. ونحن في إطار نزعة التغريب، والأعراض الناجمة عنها، إنما نتحدث عن هذا الغثاء الراكب موج الأحداث، إذ ليس على الرجل العادي من حرج، فلا أحد يصغي لكلامه، أو يطلب إليه رأيه، وإنما يتّجه كيفما يوجهوه، ويتشكّل بالشكل الذي ينشأ عليه[1]. وإذا توخينا الدقة، وجدنا

---

(١) أشكل عليَّ البعض تجاهلي جهاد الشعب ونضاله في الاحداث السياسية منذ عهد

=

أن سبب وخامة اوضاعنا الحالية، وارتهاننا بيد القادة المتغربين، هو أننا حرمنا الناس العاديين من المشاركة في تقرير مصيرهم.. وزهدنا في التواصل معهم واستشارتهم عند إدارة الأمور. ومقابل كل هذا اكتفينا بطاعة المستشارين والخبراء الأجانب. وليت مشكلتنا كانت مقتصرة على هؤلاء المتغربين الذين قضوا فترات مختلفة من حياتهم في الغرب، إذن لهان الخطب. لكنني أزعم، (وأقولها مغلفةً بألف غلاف) أن ماحدث هنا هو الذي أدى إلى وقوع مقاليد الأمور في أيدي السفهاء من كل صنف، والمحبطين المطرودين عديمي الإرادة من كل جماعة.. فأدنى التجار اعتباراً يسيطرون على الأسواق وغرفة التجارة، وأتفه المثقفين يشرفون على شؤون الثقافة في البلاد. وأشنع الصرّافين إفلاساً يديرون البنوك، وأقل الناس كفاءَة أو أفظعهم حماقة يشغلون مقاعد النيابة في المجلس، وأضل الناس يقودونهم إلى مالايعلم عاقبته إلاّ الله. وأكرر أن بإمكانكم استثناء كل من ترونه استثناءً في هذا المجال. لكن القاعدة في هذه البلاد هي تمكين عديمي الشخصية المنقطعين عن جذورهم، إن لم نقل تمكين الأراذل والمنحطين. فصاحب الحق وقائله، والذي يفكر ويعمل بشكل سليم، ليس له مكان في هذا الجهاز. وبحكم التبعية للغرب، ينبغي أن يقود الناس في هذه المعمورة من يكون أسهل قياداً، فيشترط فيه أن لايكون أصيلاً ولا أصولياً، وليست له أية جذور أو أقدام ثابتة في هذه الأرض. ولهذا فإن قائدنا المتغرب يحاول دائماً الرفع من نفسه، لهشاشة موضع أقدامه، ولأن أموره كلها غير واضحة، ولأنه عاجز عن اتخاذ موقف قبال أية قضية أو مشكلة.. إنه مصدوع دوماً، وتراه كلّ آنٍ في مكان.. ليست له إرادة من نفسه.. طيّع تماماً لأمواج الأحداث، لايقارع شيئاً..

= المشروطة وحتى الآن. والواقع أنني لم أغض الطرف عنها لكنني مررت عليها بصمت، لأن قيادة هذا النضال (بكل ما اشتمل عليه من السجون والاعدامات والنفي) لو كانت صحيحة، لكان حالنا الآن أفضل مما هو عليه بكثير. وبالطبع ليس على الناس من حرج في كل هذه الهزائم، وانما القيادة الخاطئة هي التي تسببت في هذه العواقب.

ويمر على أعتى الصخور بكل ليونٍ وملق.. ولذلك لاتهدده أية أزمة أو حادثة بخطر.. إذا سقطت هذه الحكومة فالحكومة التي بعدها.. وإذا لم يتسنَّ في هذه اللجنة ففي ذلك المؤتمر.. وإنْ لم يتيسّر في هذه الصحيفة ففي مؤسسة الاذاعة والتلفزيون.. وإذا تعذرت هذه الدائرة ففي تلك الوزارة، وإن استعصت السفارة، فهنالك الوزارات.. وحتى لو تغيّر الوضع (في أسوء الافتراضات)، وتبّدلت الحكومات في ظاهرها، ترى القائد المتغرب سيبقى أمامك راسخاً كأنه جبل أحد، فهو يعلم اين يعيش من العالم، ويدري أن الزمن زمن إحصاء الأنفاس على الشعب، ويدري أن الرياح لها في كل يوم وجهة جديدة، ويعلم متغيّرات القوة والنفوذ بدون أية بوصلة أو مقياس. ولذلك تراه موجوداً في كل مكان. في الحزب، في المجتمع، في الصحيفة، في الحكومة، في اللجنة الثقافية، في المجلس، في اتحاد الاقطاعيين. ولأجل أن يكون في كل مكان فهو مضطر لأن يكون مع الجميع. ومن أجل أن يكون مع الجميع لابد أن يكون شعبياً صاحب أدب وأخلاق، وأن يتجنّب الحماقات، ويبقى مستقيماً منكّس الرأس، وهادئاً يحرر المقالات ضد «الغوغائية»[1]. ولابد له أن يكون ملمّاً بالفلسفة، وأن يتحدث عن أهمية الحرية وضرورتها. ولهذه الأسباب، أو لمجرد النزوة التي تراوده لعرض مواهبه، وابراز شخصيته، يفكر أحياناً أن يقوم بعملٍ ما. ولأنه غرق وسط أمواج الأحداث، فما أن يتحرك بخطوة، حتى يفوت الأوان، ويعود للجلوس على بساط المسكنة، يتأمّل ماتلقّنه من دروس قاسية، تمنعه من التفكير مرة أخرى في الأعمال الاستعراضية.

المتغرب إنسان متذبذب، لا يعتقد بأي شيء، ولكنه في الوقت ذاته ليس عديم الايمان بأي شيء.. إنه إنسان إلتقاطي لايفكر إلاّ بالساعة التي هو فيها[2]. كل الاشياء متساوية

---

(١) راجع مجلة «سخن» خرداد ١٣٤٠ [٢٢ أيار حتى ٢١ حزيران ١٩٦١م].

(٢) في الأصل الفارسي (نان به نرخ روز خوراست) أي «يأكل الخبز بسعر اليوم» وهي كناية =

بالنسبة إليه.. المهم، أن يعبر هو وحماره على الجسر، ولايهمه بعد ذلك أن يبقى الجسر أو يتحطم!.. لا إيمان له ولا منهاج ولا أهداف ولا عقيدة، لا بالله ولا بالإنسانية.. لا يفكر بتغيير المجتمع.. ولايعنيه التدين أو عدم التدين. فلايمكن حتى القول إنه بلا دين. وانما هو متذبذب. أحياناً يقصد المسجد، كما يقصد الحانة أو السينما، لكنه في كل مكان مجرد متفرّج، بالضبط كما يذهب ليتفرج على لعبة كرة القدم، إنه خارج الملعب دائماً، وليس على استعداد لأن يعطي من نفسه شيئاً على الإطلاق، حتى بمقدار دمعة في رثاء صديق، أو خشوع اثناء مناجاة، أو تأمل في ساعات الوحدة.. وهو بالطبع غير متعود على الوحدة، بل يفرّ منها فراره من الأسد. ولأنه يخاف من نفسه، تراه موجوداً في كل مكان، ويدلي بآرائه في كل الميادين (هذا إنْ كانت له آراؤه حقاً)، لاسيما إذا كان الإدلاء بالرأي موضة دارجة. وآراؤه دائماً تصب في صالح من يأمل منهم منافع اكبر.. لاتسمع منه إطلاقاً صرخةً أو اعتراضاً أو إشكالاً أو مناقشة. فهو رزين دائماً، ويتكلّم بكل ثقة، ليبرر كل شيء ويعتبر نفسه متفائلاً.

والمغترب يركن إلى الراحة، ويغتنم كل لحظة، من دون أن يكون لهذا الاغتنام بُعده الفلسفي البناء.. إذا كانت سيارته ووسامته على مايرام، فليس هنالك مايعكر عليه صفو الحياة. وإذا كانت هموم الابناء والخبز واللباس والقوت، قد شغلت «سعديّاً» يوماً ما عن السير في الملكوت،[1] فإن المتغرب لاهمَّ له سوى قصعته، لأنه يروح في دربه ويجيء في دربه. فهو لايخلق المتاعب لنفسه، ويرفع كتفيه إلى عنقه[2] بكل سهولة. ولأنه يحسب لشؤونه ألف حساب، ولايرفع قدماً أو يضعها إلاّ لمنفعة، ويرى كل أمر من الأمور خاضعاً

= في الثقافة الشعبية الايرانية عن الانسان المتذبذب المتلوّن الذي تراه كل حين في شأن، بحسب مقتضيات الساعة. «المترجم»

(١) إقتباس من بيت شعري لسعدي الشيرازي. «المترجم»

(٢) علامة اللاأبالية. «المترجم»

لمعادلة معينة، فلاتعنيه أمور الآخرين أبداً، ناهيك عن أن يعيش همومهم.

الإنسان المتغرب لايحمل تخصصاً في الغالب.. لايجيد شيئاً ويجيد كل شيء. ولأنه يعرف القراءة والكتابة، وله اطلاعه على بعض الكتب، فهو يجيد أن يطلق الكلمات الرنانة أينما حلَّ، ليثبت بها جدارته. وربما كان صاحب تخصص، لكنه حينما يجد أن تخصصاً واحداً لايمكنه أن يفعل شيئاً في هذا البلد، يضطر لمزاولة أعمال أخرى. بالضبط كالعجائز الثرثارات اللاتي يعلمن عن كل شيء شيء بفعل تمادي السنين وتراكم التجارب.. الانسان المتغرب أيضاً يعلم شيئاً بسيطاً عن كل شيء، ولكن بطريقة متغربة تنفعه في ساعته فقط، وتفيده للتلفاز، واللجنة الثقافية، والمؤتمرات، والصحف الواسعة الانتشار، وإلقاء المحاضرات في النوادي.

الإنسان المتغرب عديم الشخصية، شيء بلا أصالة. هو ومنزله وكلامه لا يعني أي شيء، وغالباً ما يكون نائباً عن كل شيء. وليس هذا بمعنى الـ «كوسموبوليتان» أي من يكون العالم كله وطنه، إطلاقاً، إنه بلامكان ينتمي إليه، وكيانه مزيج فوضوي من انعدام الشخصية والشخصية الفارغة من المميزات. ولأنه يشعر بالذعر دائماً، فهو يمارس التقية. ورغم مجاملاته وحسن تعامله، لا يثق بأحد. ولأن سوء الظن هو المهيمن على زماننا، لا يفتح قلبه لأحد أبداً. وربما كانت الميزة الوحيدة لشخصيته، والتي يمكن لمسها وملاحظتها، هي الخوف.

وإذا كانت شخصية الانسان الغربي، ضحية تخصصه، فالمتغرب لاشخصية له ولاتخصص له خوفه فقط.. الخوف من الغد.. الخوف من العزلة.. الخوف من أن يبقى مغموراً لا يعرفه أحدٌ.. والخوف من افتضاح حقيقة المخزن الخالي، الذي يثقل رأسه باعتباره دماغاً[1].

---

(١) للوثوق من صحة هذا الكلام راجع «لاننسى ايران» بقلم صديقي العزيز محمد علي

=

المتغرب، إنسان متميّع[1] متشبه بالنساء (أفميني = Effemine)، يداري نفسه كثيراً، ويرتب شكله وهندامه دائماً، بل وقد يلقط حواجبه أيضاً. يهتم غاية الاهتمام بأحذيته وملابسه وبيته. تراه وكأنه طالع للتوّ دائماً من علبة الألوان، أو قادم من صالون المكياج. سيارته تتبدل كل عام إلى الموديل الأحدث. وبيته الذي كان في يوم ما يحتوي على إيوان وقبو وحوض وسقيفة، تجده الآن يتغيّر كل يوم إلى شيء عجيب.. فيوماً يشبه الفيلات على ساحل البحر، بشبابيك كبيرة وأضواء الفلورسنت[2]. ويوماً يأخذ شكل الكاباريه، فتراه مغسولاً بالأضواء والألوان الصارخة. وفي يوم آخر يصطبغ كل جدار بلون معين، وترتفع المثلثات بألوان مختلفة من كل سطوح الدار. وفي زاوية يوضع الراديوغرام «هاي فيدليتي»، وفي جانب آخر التلفاز، وفي زاوية أخرى البيانو للمحروسة، وفي مكان آخر هناك سماعات «استري يوفونيك»، أما المطبخ وباقي الزوايا فمليئة بـ «فرغاز»[3]

=اسلامي ندوشن. منشورات مجلة «يغما» اسفند ١٣٤٠ [٢٠ شباط حتى ٢٠ آذار ١٩٦٢م].

(١) حول هذا «التميع» أو «النزعة الاستعراضية» راجع «احتلال الحضارة الثقافية» بقلم فخر الدين شادمان ـ ط طهران ـ ١٣٢٦ [١٩٤٧م].

(٢) لاحظوا هذه العبارات من إعلان تجاري ملون كبير في صحيفة اطلاعات (١٩ أرديبهشت ١٣٤٢ ـ ص ١٢ ـ ٩ أيار ١٩٦٣م) حول مميزات المدينة الفلانية الحديثة في ضواحي طهران:

ـ الآلية الخاصة لهذه المدينة الصغيرة ومزاياها المدهشه تنقل إلى داخل البلاد حقاً جانباً من اسلوب العمارة في اوروبا واميركا. فالفيلات الحديثة لهذه المدينة الاصطيافية تسحر المعجبين بالحضارة الغربية والمتربين هناك، بحيث تشعرهم دائماً أنهم يعيشون في اوروبا أو اميركا..» وهل أبلغ من هذا؟!

(٣) اسم شركة ايرانية لتوزيع الغاز السائل، ويريد هنا بـ «فرغاز» قناني الغاز التي تستعمل للطبخ والتدفئة، واليوم فإن هذه القناني في طريقها إلى الانقراض، لأن غالبية المدن الايرانية تتمتع بشبكات أنابيب الغاز الطبيعي. «المترجم»

والغسالة الكهربائية وما إلى ذلك من المكدّسات. وبهذا فالإنسان المتغرب من أوفى الناس لاستهلاك المنتوجات الغربية. وإذا استيقظ يوماً وعَلِمَ أن جميع الحلاقين والخياطين وصباغي الأحذية والمصلّحين قد أغلقوا محلاتهم، فسيتمدد على القبلة ويموت كمداً.. هذا فيما لو كان يعلم تجاه القبلة. فوجود هذه المشاغل والصناعات الغربية أهم لديه من وجود أي مدرسة أو مسجد أو مستشفى أو معمل. وبسببه عادت عمارتنا وأبنيتنا اليوم بلا أية هوية[1]. ومدننا مزيفة إلى درجة مقرفة، وبسببه بدت شوارع المدن وساحاتها مضاءة بأنوار الفلورسنت الوقحة وكأنها صالونات حلاقة، وبسببه تطبع كتب الطبخ وطرق المعدة، تحت عنوان «طريق القلب»،[2] لتحتوي شروحاً وتفاصيل طويلة عن أطعمة عجيبة محشوة بالقشطة واللحم، بحيث لايمكن حتى تذوقها في مثل هذا المناخ الجاف،..وهي بالتالي ليست سوى جسر إلى استهلاك الطباخات الغازية المصنوعة في الخارج. وبسببه أيضاً يهدمون أطواق الأسواق[3]. ومن أجله يخربون دور الإمارة

---

(١) أردنا ذات مرة أن نشتري بيتاً لأحد الأصدقاء. وكان في «دروس» بيت مستنسخ طبق الأصل عن الكنيسة التي بناها «كوربوزيه» بأسلوب حديث، والمعروفة باسم «نوتردام دوهو» (Noter - Dame duhout) ولم يكن يعوز البيت سوى برج الكنيسة.

(٢) اسم كتاب بمزاعم كبيرة وثمن باهض، بقلم أو ترجمة السيدة يوسفي ـ منشورات ابن سينا.

(٣) راجع «كلمات مع الحلاقين» بقلمي في مجلة «انديشه وهنر» ـ آبان ١٣٣٧ [٢٣تشرين الأول إلى ٢١ تشرين الثاني ١٩٥٨] . وحول نفس الموضوع مقالة «كيف هدموا دور الضيافة الصفوية في اصفهان» بقلم عبد الحسين سپنتا في عدد فروردين ١٣٤٢ [٢١ آذار إلى ١٩ نيسان ١٩٦٣م] في مجلة «ارمغان»، وفضلاً عن هذا يروي صديقي العزيز تقي فداكار عن ذكريات طفولته أن منارة «شهرستان» في إصفهان التي كانت تقوم بجوار =

الأثرية.[1] ولأجله يتأسّسَ مجلس بكل تلك الضخامة والبهرجة. ولأجله أيضاً مايتمتع به العسكريون من مزوّقات وملوّنات، وكأنّ على أكتافهم وصدورهم حانوتاً كاملاً من الخرز الملون.

قبلة المتغرب أفواه وأيدي الغربيين.. لايهمّه مايحدث في عالمنا الصغير هذا.. إذا كان صدفة من أهل السياسة، فهو يعلم بأبسط الميول اليمينية، واليسارية لحزب العمال البريطاني، ويعرف الشيوخ الاميركيين أفضل من معرفته بوزراء بلاده، ويعرف عن المحلّل السياسي في «تايم» و «نيوزكرونيكل» اكثر مما يعرف عن ابن عمته الساكن في خراسان، ويعتبرهم أصدق من البشير النذير.. لأن لهم تأثيراً في شؤون بلاده أعمق مما لأي سياسي أو محلّل داخلي.

وإن كان من أهل الأدب والبلاغة، فلايهمه إلاّ معرفة الفائز بجائزة نوبل الادبية لهذا العام، أو الحائز على جائزة «غونكور» و «بوليتزر».

وإذا كان من أهل البحوث والدراسات، فيمنح ظهره للوسادة، متجاهلاً الكم الهائل من القضايا المحلية الجديرة بالدراسة والتحقيق، ويكتفي بمتابعة مايقوله ويكتبه

= نهر «زاينده رود» على الطريق إلى يزد، والتي كان لها سلّمان، وتمتاز بأهمية كبيرة من الناحية التاريخية والمعمارية، هدموها في اوئل عهد رضا شاه، ليبنوا بأحجارها مقراً عسكرياً في خرائب حديقة فرح آباد باصفهان. ولمن تعود فائدة هذا العمل؟ للجنرال «غلوروب» السويدي الذي كان آنذاك رئيس القوات في إصفهان أو ماشابه ذلك. يقول إنهم شمّعوا المنارة من إحدى جوانبها، وهدموا أساس ذلك الجانب، ثم لفّوا أعمدة الشمع بالأغطية وسكبوا عليها النفط وأحرقوها، وحينما احترقت الأعمدة، انهارت المنارة من ذلك الجانب، وقضي الأمر!

(١) سيراً على المثل الدارج «كل من جاء أرسى بناءً جديداً»، وقد هدموا «دار الإمارة» ليبنوا، لا في محلها، بل بعيداً عنها، وبابتكار المهندس فروغي ها، بنك «بازار» الوطني.

المستشرقون حول قضايانا المختلفة.

وأما إن كان من عوام الناس، ومن هواة المجلات الاسبوعية المزوقة، فقد ذكرنا مايتمتع به من مؤهلات !

وعلى كل حال، إذا كان فى الماضي بإمكان آية قرآنية، أو حديث نبوي من ست كلمات أن يسكت جميع الأفواه، ويُجلس كلّاً في مكانه، فإن تصريحاً بسيطاً من أحد الأجانب اليوم، يخرس جميع الأصوات. بل لقد بلغت الفضيحة في هذا المجال حداً تمكنت معه، حتى تنبؤات الفوّالين والمنجمين الغربيين أن تحرِك العالم بأسره بين عشية وضحاها، وتتركه يهيم على وجهه في خضم عات من الاضطراب والهلع.

وهكذا انتقل الوحي المُنزل، من الكتب السماوية، إلى الكتب الاجنبية، أو إلى أفواه مراسلي «رويتر» و «يونايتد برس» وباقي شركات صناعة الأخبار المزيفة وغير المزيفة ! صحيح أن التعرف على المناهج العلمية وتقنيات صناعة المكائن وأسس الفلسفة الغربية لاتتأتّى إلاّ عبر مطالعة الكتب الأجنبية والغربية. ولكن المتغرّب لايهمه أن يعثر في تلك الكتب على أسس الفلسفة الغربية، وانما يفتش فيها عن أحوال الشرق، فهو يأخذ مواصفات نفسه من المصادر الغربية !

ومن هنا اكتسب الاستشراق، هذا الطفيلي النابت على شجرة الاستعمار الخبيثة سطوته القاهرة على عقول وآراء المثقفين في البلاد المتغربة. فالمتغرب عوض أن يراجع المصادر الغربية لمعرفة ركائز الحضارة الغربية وحسب، تراه لايفعل ذلك إلاّ لمعرفة ماهو شرقي ! كتيارات الفلسفة الاسلامية، أو آداب الرياضات عند الهندوس، أو آلية انتشار الخرافات في اندونيسيا، أو الروح القومية عند العرب.. وفي أي موضوع شرقي آخر، تجد المتغرب لايعتمد إلاّ كتابات الغربيين معياراً ومرجعاً. وهكذا لايعرف المتغرب نفسه إلاّ عن طريق المستشرقين. فهو بنفسه يعتبر نفسه جماداً صغيراً، ويضع نفسه تحت مجهر المستشرقين ليعتمد على ماتراه أعينهم، ولايتجرّأ أن ينظر إلى نفسه، ليرى ماهو عليه، ومايشعر به شخصياً، ويختبره بمجساته بصورة مباشرة. وهذه أفظع

مظاهر التغريب،[1] أن تعتبر نفسك لاشيء، وتفقد ثقتك بالذات، وبسمعك وبصرك وفؤادك، وتُسلِّم زمام كل حواسك لأي كاتب بائس سطّر شيئاً أو قال كلاماً عن الشرق، ليقال إنه مستشرق.

بل إنني لا أفهم أساساً، كيف ومنذ متى أصبح الاستشراق «علماً»؟! فقد نقول إن الغربي الفلاني عالم باللغات الشرقية، أو باللهجات الشرقية، أو بالموسيقى الشرقية، أو نقول إنه عالم بالمجتمعات الشرقية أو التاريخ الشرقي.. ولكن مامعنى القول إنه عالم بالشرق[2] أو مستشرق ؟! فهل تراه عالماً بكل خفايا الشرق، أم ترانا نعيش في زمن أرسطو ؟! هذا ماأسميه طفيلياً نابتاً على شجرة الاستعمار. والجميل أن لهذا الاستشراق المرتبط باليونسكو، تشكيلاته، ومؤتمره المنعقد كل سنتين أو أربع سنوات، وله أعضاؤه ومحافله وكبكبته و... الخ.

المأساة هي أن شخصياتنا المهمة، خصوصاً من لهم في السياسة والأدب كليهما باع (وهذه واحدة أخرى من أعاجيب السياسة في بلادنا المتغربة؛ أنْ يكون السياسيون من الأدباء المرموقين، والأدباء من السياسين الكبار) هم في الغالب تلامذة هؤلاء المستشرقين الغربيين. لأن الواحد منهم وجد له خلال إقامته في الغرب، المستشرق الذي يتتلمذ عليه.. المستشرق الذي لم يكن له في بلاده أي تخصص أو مهارة أو حرفة أو ذوق،

---

(١) كآخر نموذج لهذه الحالة راجع مقالة «في حضرة عارف ايراني» بقلم «ياريبكا» في العدد الأول حتى الثالث من مجلة «راهنماي كتاب» ـ فروردين إلى خرداد ١٣٤٢ [ربيع ١٩٦٣م] وهي مقالة غاصة بالتمجيد لكشوفات الشيخ شمس العرفاء وكراماته و... ولنعلم أن يان ريبكا هذا كان خلال عهد السنوات العشرين، مترجماً للمتخصصين التشيكيين (اشكودا) في ايران، ثم كتب تاريخاً لآدابنا الفارسية !

(٢) الأصل الفارسي لكلمة المستشرق هي «شرق شناس» والتي تعني حرفياً العالِم بالشرق. «المترجم»

فعمد إلى إتقان لغة شرقية، ليدخل في الخدمة الخفية أو العلنية لوزارة خارجيته، وليتمَّ تصديره إلى بلدان العالم الثالث تبعاً للآلة، أو بصحبة المهندسين والتقنيين، لترافق صفقات بيع المنتوجات الأجنبية بمن يترنّم بالأشعار الفارسية، ويبعث السرور في خاطر هذا الزبون الوفي، فيظل يتبجح بأن الأجانب يتكلمون الفارسية بطلاقة.

ولكن، ماذا يفعل المستشرق في غمرة الحاجة الماسة إلى تطويع الماكنة ؟ إنه يوظف جلَّ مساعيه، لشرح الملا صدرا، ويبدي آراءه في العقيدة المهدوية، أو يبحث في مناقب الشيخ «پشم الدين كشكولي» ! ثم تُعتمد هذه النظريات على علّاتها في بلداننا، لامن قبل المتغربين وحسب، بل كثيراً ماسمعنا في المساجد ومن على المنابر (وهي آخر المعاقل في مواجهة الغرب والتغريب) من يستشهد بأقوال «كارلايل» و «غوستاف لوبون» و «غوبينو» و «ادوارد براون» وكأنهم آخر البراهين الممكنة لإثبات نزاهة فلان، أو صحة الممارسة الفلانية، وصواب المذهب الفلاني.

ومن المناسب جداً، القول إن الغربي بوسائله الجامعية وبحوثه ومكتباته الثرّة، يتبع المنهج العلمي، حتى في معرفة اللغة والدين والأدب الشرقي، ويتحرك بحرية اكبر ويتوفر على رؤية أعمق في مادته الدراسية... وبالتالي يمكن اعتبار آرائه ونتائجه راجحة على آراء ونتائج الشرقيين أنفسهم، الذين يفتقرون إلى الأسلوب العلمي والوسائل والأدوات المساعدة في البحوث. وربما كان امتلاء متاحف ومكتبات وجامعات العالم الغربي بمسروقات العالم الشرقي، عاملاً مساعداً آخر يوفر للباحث الغربي سبلاً أوضح وأدوات أجود لمعرفة حيثيات الشرق. ولهذا ينبغي البحث عن الكثير من مصادر الشرق في الغرب.. وربما كان ذلك بسبب أن الشرقي لم يبلغ تلك العوالم بعد، وربما لأنه لايزال يكابد مشكلات الخبز واللباس والحاجيات اليومية، وربما لأن فرصة البحث في اللاهوت والناسوت لم تتوفر بعد.. وألف ربما أخرى.. ولكن، كيف بنا، عندما يكون للغربي رأيه وللشرقي رأيه، وكلاهما استخدم منهجاً واحداً ولكن بعينين ونظرتين ولغتين مختلفتين؟ ألا توافقونني أن المتغرب يفضل في النتيجة رأي المستشرق على الشرقي؟ أنا بنفسي

شاهدت ذلك مراراً.

وكنقطة أخيرة أقول إن المتغرب في هذا البلد لا يعرف قضية إسمها النفط. ولايشير إليها من قريب أو بعيد، لأن ذلك ليس في صلاح معاشه ومعاده. ولعله لايأكل في بعض الأحيان إلّا من هذا النفط، بيد أنه لايدوّخ رأسه برائحته إطلاقاً. فلا كلمة ولاحديث ولا إشارة ولامناقشة أبداً. إنه مهزوم أمام النفط شر هزيمة. ولو أمكنه لكان من خدم النفط وسماسرته. فهو يكتب عنه في المجلات (راجع مجلة كاوش)، ويخرج الافلام حوله (شاهِد «موج ومرجان وخارا») لكنه يتجاهل الحقائق دائماً، ويخادع نفسه، لأنه بالتالي ليس إنساناً مثالياً، ولاتأسره الأخيلة المجنّحة، وإنما يتعامل مع الواقع فقط، والواقع في هذه البلاد، أن يتم تصدير النفط بسلام!

(١٠)

مجتمع فوضى

والآن، لنلقي نظرة إلى طبيعة مجتمعنا المتغرب الذي يديره هؤلاء القادة اقتصادياً واجتماعياً. لاحظنا كيف أن مجتمعنا رهين جهاز مبعثر غير متناسق، وأسير فوضى صاخبة يسببها اقتصاد التدجين، والوضع الريفي، والمدينة الفتية الرازحة تحت سلطة القوى الاقتصادية الاجنبية الكبرى. وبذلك فإننا أشبه بمتحف حي للتشكيلات الاجتماعية الحديثة والقديمة.. إذ مايزال حوالى مليون ونصف المليون من أهالي بلدنا بدواً رحلاً. وهذا ماتقوله الاحصائيات الرسمية، أي الاحصائيات المعبوث بها. ويجب الاستفهام من وزارة الدفاع، أو دائرة البدو التابعة للبلاط، عن البدو الذين يتجاوز عددهم الثلاثة ملايين نسمة في ايران[١]. والذين لاتربطهم بالأرض أية رابطة، وانما يتسببون في تخريب كل

---

(١) وفقاً لإحصائيات عام ١٩٦٢ [نوفمبر ـ تشرين الثاني] يشكل أهالي البادية ١٥ بالمئة من كل السكان في ايران. أما الباقي فـ ٢٥ بالمئة يسكنون المدن، و ٦٠ بالمئة يقطنون القرى. وبسبب بعض المؤثرات التاريخية، فقد ارتبط الاقطاع والنظام القبلي في ايران مع بعضهما بعلاقة تكاملية متينة، وكانت القوة القبلية هي الوحيدة التي تستطيع التأثير في النظام الاقطاعي. وليس من الصدفة أن جميع السلالات الملكية في ايران انحدرت من القبائل. وحتى خلال فترة المشروطة وملابساتها شارك شيوخ القبائل (قبائل بختياري) والاقطاعيون الكبار (سبهسالار تنكابني وغيره) في الأحداث بشكل رسمي مباشر ـ نقلاً

=

مايمرون به من عمران، حيث تتلف أعمارهم في الرعي. و٩٥ بالمئة منهم يجسدون الفقر والبؤس والتسيّب بكل معانيه، إذ تراهم يلهثون في البراري عاماً كاملاً خلف أبسط متاع الدنيا، وأعني به «الماء». فمن المصايف إلى المشاتي، ومن المشاتي إلى المصايف، بحثاً عن الحد الأدنى من أسباب العيش والبقاء. ومع هذا ففي قبضة شيوخهم مفاتيح كل القلاقل السياسية في البلاد، فهم رسمياً المحامون عن حياض الوطن، والمحبون للشاه، والآخذون في مقابل هذا، انواع الامتيازات والأجور والمكافآت... يشاركون في التشريفات، ويبعثون برقيات التهنئة في كل مناسبة، ويهددون بالثبور كل من تحدثه نفسه بإعمار مناطق نفوذهم. فالشيخ «باشت» مايزال يبتز شركة النفط أموالاً طائلة كل سنة. والشيخ «حيات داودي» له إدعاءاته الضخمة لتسليم جزيرة خارك إلى الكونسرسيوم النفطي، وله الحق في ذلك.. والشيخ «قشقائي» يتربع على عرش الطاووس في سويسرا، متحيناً الفرصة ليعود إلى أيام عزّه ومجده (وقد شاهدنا في نيروز ١٣٤١ [آذار ١٩٦٢م] كيف هدّم رجال الحكومة قصوره ونسفوا كيانه). وإذا كان البختياريون ساكتين، فلأن الكثيرين منهم أصبحوا متنفذين من بعد المشروطة، وتبوّءوا مواقع مهمة في مجلس الاعيان، والرئاسة، ومديرية الأمن، وغيرها من المراكز الحساسة.

من أجل البدء بأي مشروع في هذا البلد، ينبغي أولاً توطين البدو الرحل. ولايمكن أن يحصل ذلك بالطريقة التي اتبعناها لحد الآن. أي باستخدام القوة والإكراه. وإنما يمكن أن نخلص إلى نتائج أفضل باتباع خطة مدروسة دقيقة، تتمثل بتحديد مقدار المياه والأراضي الزراعية اللازمة لكل نسمة، وتوفير الأدوات الزراعية الحديثة لكل جماعة وقبيلة، وشراء مواشيهم الفائضة. وحث افراد القبيلة أنفسهم على المشاركة في بناء بيوتهم المستقبلية، وتأسيس مراكز للصحة والثقافة والميكانيك في كل قرية حديثة التأسيس.. وباختصار،

= عن سنوية «صداي ايران» (صوت ايران) ـ ص ٤١٩ ـ عام ١٩٦٣ ـ والتي تصدر بالانجليزية في ايران: Iran Almanac - 1963 - Pub. By Echo of Iran

مالم تنقلب أعمدة الخيام إلى أسس بيوت قروية، ومالم يتعرف الرجل والمرأة في البادية على الزراعة ويجلس أبناؤهم تحت سقوف المدارس، فستبقى كل خطوة إصلاحية في هذه البلاد؛ إما كاذبة، أو مجرد ادعاء صبياني. وفي مثل هذا الوضع الوخيم، لا تتجاوز برامج حكوماتنا للبدو، سوى تركهم لحالهم، كي يهلكوا بفقرهم وأمراضهم المزمنة، ويواصلوا هلعهم السنوي من الجفاف، وبمرور الزمن لن يبقى لوجودهم أي أثر!

مر بنا أن ستين إلى سبعين بالمائة من الايرانيين الغيارى يقطنون الريف. وقد تحدثنا عن الريف بعض الشيء في هذا الكتاب وفي كتب أخرى من قبيل «أورازان»[1] و «سكنة الأكواخ في بلوك زهراء»[2]. وأهم مايجدر قوله هنا حول القرى الايرانية، أنهاتضمر وتضمحل يوماً بعد آخر، لتنتفخ وتكبر المدن الهجينة. وقد أسلفت القول إن تضخم المدن هذا، أشبه بنمو الغدد السرطانية، فهو يهجم علينا من كل حدب وصوب، من دون أن يكون هنالك أي تخطيط مسبق لما تحتاجه المدن من الماء والكهرباء والطرق والأزقة وخطوط الهاتف والمجاري.. وإنما نجتث الناس من جذورهم في القرى والأرياف لنزرعهم عنوة في المدن. والواقع أن هذه المدن لاتختلف أبداً عن تلك القرى، سوى أن العمل نادراً مايتوفر في المدن، وإذا توفر فبصورة موسمية وفصلية. أما في الريف فلايتوفر أي شيء. وبهذه التغييرات الزائفة التي بدأوا يلعبون لعبتها منذ عشر سنوات، ليضخموا طبقة الملاكين الصغار، لم تزدد الأمور إلّا سوءاً. ولو كنّا قد ضخمنا طبقة الملاكين الصغار قبل مئتين سنة، لكانت لدينا اليوم حياتنا الدستورية الحقيقية. فقد بات واضحاً أن تقسيم الأملاك والأراضي بهذا الشكل، لأجل خلق طبقة ملاكين صغار، أضحى أسلوباً قديماً أكل الدهر عليه وشرب. لأن توزيع الأراضي بهذه الطريقة، يعد اليوم اكبر عقبة في طريق الزراعة المُمكننة. فلا الماكنة تطيق الأراضي الصغيرة، ولاصاحب الأرض الصغيرة قادر

(٢،١) كتابان للمؤلف، الأول؛ اسم منطقة، والثاني «تات نشين هاي بلوك زهراء» يعني «سكنة الأكواخ في بلوك زهراء» أو «فقراء بلوك زهراء» «المترجم».

على توفير المكائن الزراعية الحديثة. ونزعتنا الفردية المتأصلة فينا، لاتسمح أبداً بأن يبادر القرويون للاجتماع والتضامن والاستثمار المشترك، عبر شراء الآلات الزراعية لقراهم.. وأحاول اختصار الكلام في هذا المجال، لأترك القول الفصل لصديقي حسين ملك، الذي قدّم خططاً دقيقة جداً لشؤون الزراعة، في عدة اعداد من مجلة «العلم والحياة»، وأذاعها على الملإ في الوقت المناسب[1]. على كل حال مالم ينحسر كابوس الخدمة العسكرية عن الأرياف، ومادامت إغواءات المدينة تعكّر صفو النفوس القروية، ومازال الخوف من عبور البدو الرحل قائماً، فلن تقوم للقرية في بلادنا قائمة. ومالم تمتد الطرق إلى القرى، ويضيء التيار الكهربائي بيوت القرويين.. ومادام لكل ثلاثين أو أربعين قرية، مركز واحد لتصليح الجرارات الزراعية، فلن تكون لنا زراعة ممكننة. ومازال هناك ملاكون صغار، ومالم يتم افتتاح صف دراسي لتعليم الميكانيك في كل مدرسة قروية، فستبقى الماكنة أجنبية على القرية، وإذا دخلت الريف فلن تعمل إلّا على الخراب والتشاحن والنزاعات.

وأما المدن.. هذه الأورام السرطانية، التي تتضخم يوماً بعد آخر، بكل قبحها وبشاعتها، فهي تطالب دائماً بمزيد من الصناعات الغربية، وتوغل يوماً بعد يوم في الانحطاط والفظاظة والانقطاع عن الجذور. في كل واحدة، أربعة شوارع، وتماثيل في وسط الساحات، بحسب ماتفيده الأوامر الادارية.. سقوف الأسواق مهدمة، والأحياء متباعدة عن بعضها.. بلا ماء، ولاكهرباء، ولاهاتف، ولاخدمات اجتماعية، ولامراكز تجمع، ولا مكتبات.. المساجد خرائب، والحسينيات مهدمة، والتكايا خالية.. وليس هنالك احزاب، أو

---

(١) راجع «علم وزندگي» [العلم والحياة] أعداد عام ١٣٣٨ [١٩٥٩] العدد الرابع والخامس والسادس (المخصصة بتمامها للاصلاح الزراعي) وكذلك العدد العاشر من هذه المجلة ـ آبان ١٣٣٩ [٢٣ تشرين الأول حتى ٢١ تشرين الثاني ١٩٦٠م]. وكان هذا قبل البدء بتوزيع الاراضي بالطريقة الحالية.

منتديات، ولا أماكن للترفيه.. وفي أحسن الحالات هناك دار أو داران للسينما ليست سوى أماكن لإثارة الاعضاء السفلية، ولاتصلح إلّا لتبديد الوقت، أو التسلية الفارغة.

إن دور السينما عندنا لاتعلم الانسان شيئاً، ولاتساعد على أي تحوّل فكري بنّاء، بل يمكن القول بكل جرأة، إن كل سينما في هذه البلاد ليست سوى صندوق، يضع فيه كل مواطن تومانين أو ثلاثة أسبوعياً، بهدف أن يربح المساهمون في «متروغولدن ماير» الملايين فوق الملايين[1].

إن الذي يصنع أفكار أبنائنا في المدن، إما هذه الدور السينمائية، أو الاذاعة الحكومية، أو الصحافة المزوقة. وهذه كلها تسير باتجاه الـ«كنفور ميسم» أي جعل جميع الاشياء شيئاً واحداً.

فالمنازل كلها متشابهة، والأزياء موحدة، والحقائب والأواني والأقداح والمظاهر العامة كلها على نسق واحد، والأسوء من كل هذا أن يتوحد أسلوب التفكير، فهذا أكبر خطر تهددنا به المدن الجديدة.

وإذا كان الكنفور ميسم (التوحيد) الفكري والحياتي، ضمن ظروف المجتمع المتطور الصناعي، خطير إلى درجة أنه يجعل الانسان خادماً للآلة، فإن خطره يبدو مضاعفاً بالنسبة لنا، نحن المقتصرين على استهلاك الآلة، فهو يجعلنا عبيداً مملوكين للآلة تماماً، ثم إن الغربي الراضخ لخدمة الماكنة، يعيش حياة ديمقراطية على الأقل، فالأحزاب السياسية إحدى إفرازات الآلة هناك، أما نحن، فأين هي احزابنا؟!

والمدارس عندنا تقلص من تجمعاتنا الدينية بشكل مستمر، ثم إننا ممتحنون بحكومة من

---

(١) «يدفع اهالي طهران ٢٣ مليون تومان شهرياً لدور السينما. وصاحب السينما يجني من كل فيلم سبعة أضعاف سعره الأصلي» هذه بداية مقالة في مجلة «خواندنيها» [المقروءات] ـ العدد ٩٦ ـ ٣٠ خرداد ١٣٤١ [٢٠ حزيران ١٩٦٢] نقلاً عن مجلة «روشنفكر» [المستنير] .

نوع حكومات عهد دقيانوس، والطامة الكبرى تحلُّ بنا يوم نريد أن ننضوي في خدمة الماكنة، وننمسخ كلنا بفضلها إلى شيء واحد. عندها لن تبقى لنا أصول ولا فروع ولا أي شيء آخر..

في مثل هذه البلاد ينبغي أن لا تكون الأجهزة الكبرى الصانعة للأفكار، كالتلفاز مثلاً بيد الشركات (فإيران ليست اميركا)، ولابيد الحكومة (لأن ايران ليست من البلدان المطوقة بجدار من حديد)، في بلدٍ نامٍ مثل ايران، لابد أن تصب مثل هذه الاجهزة في مصلحة المجموع، وتوضع تحت تصرف المجتمع، وتدار من قبل نقابات الكتاب والمثقفين المنتخبة، بعيداً عن أية أغراض مادية أو دعايات شخصية.

منذ فترة والكل يتحدث عن خطر الملكيات الكبرى للأراضي، وعن خطر الملكيات الضخمة غير المنقولة..هذا من دون أن يلتفت أحد إلى أن ملكية الأراضي الواسعة لم تعد تنفع شيئاً في وقتنا الراهن، حتى يهتم الشعب كله، من الشخص الأول في البلاد وحتى أبسط المواطنين، بتقسيم هذه الاملاك، وتشتهر هذه الممارسة خطأً، بأنها المفتاح السحري لحل جميع مشكلاتنا.

والحال أن الخطر الحقيقي اليوم، يكمن في الملكيات المنقولة الكبرى..أو المال، والأسهم، والاعتمادات المصرفية، والرساميل المودعة في البنوك الاجنبية، والقدرات الفردية الهائلة في المشاريع الصناعية.

إنه خطر الشركات الوطنية والمساهمين الكبار، خصوصاً اولئك الذين يتولون الصناعات الثقافية، إن صح التعبير، يجب أن نفكر في خطر هذه الظواهر ونضع الخطط لتأميمها أو جعلها إشتراكية.

أما من الناحية السياسية، فإننا نرزح تحت راية حكومة مستبدة لاأبالية، بكل مالها من ظواهر هجينة، كالحرية التي ليس لها حضورها في أوساطنا، إلّا كزينة سطحية، مستبدة من حيث لايوجد أي مفر منها، ولاأي أمل أو حرية أو حقوق في ظلال رايتها. ولاأبالية، بلحاظ إمكانية التنفس في أجوائها على كل حال، إذ إنها تسمح بالصراخ في البئر دون

ضجيج كما ترون. ولعل السبب في ذلك أن المواطن العادي، حتى لو ارتدى ثياب الشرطة، أو عمل في مؤسسات الرقابة، لكنه يبقى في أعماقه ذلك الانسان اللاأبالي غير المتعصب، والذي لم يتحول لحد الآن تحت وطأة الآلة، إلى حجارة صمّاء، أو برغي، أو صامولة في الأجهزة المعقدة، والويل لنا يوم نخسر هذا أيضاً، ونفقد آخر معالم التأخر والبداوة في شخصياتنا!

وعلى كل حال، فالقوات المسلحة هي المسيطرة على كل شيء في هذه البلاد، وبيدها القرار الأخير في كل قضية، وهي المستفيد الأول من كل المزايا الحكومية، وبحسب الظاهر فإن ٣٠ بالمائة من الميزانية، وفي الواقع ٤٥ بالمائة من كل ميزانية البلاد، تصرف على القوات المسلحة، مضافاً إلى المساعدات الخارجية، التي تمنح بدون مقابل للقوات المسلحة فقط، على مرأى ومسمع من البؤساء والمحرومين، ومن ناحية، فقد كانت عملية التشريع في البلاد مصابة بالفتور والخور، قبل عدة سنوات من فتورها الحالي، فالسلطات القضائية والتنفيذية تتدخل بإسفاف في شؤون بعضها، والمؤسسات الادارية ماتزال في ارتخاء عهد البغال والأنعام. هذه كلها أعراض، أما السبب الأصلي فهو أن هذا الجسد الضعيف لاطاقة لها بهذا الرأس الكبير[1]. وحينما نسأل لماذا كل هذه القوات الجرارة؟

---

(١) تصاعدت في الآونة الأخيرة، حدة النقاش حول القوات المسلحة [١٣٤٠ - ١٩٦١] لتمتد حتى إلى الصحف الواسعة الانتشار، وربما كان ذلك بسبب إجبار خارجي، راجعوا مقالتي «تقييم دور الجيش» بقلم داريوش همايون في اعداد ١٩ خرداد [٩ حزيران] و١٦ تير ١٣٤١ [٧ تموز ١٩٦٢م] من صحيفة (اطلاعات).

وداريوش همايون هو أحد بضعة أشخاص يمثلون بقية ماء وجه (اطلاعات). وهذه عبارات من مقالته الاولى:«إن تشكيلات الجيش الايراني قياساً إلى امكانيات ومصالح البلاد أكبر بكثير من أن تبقى بعيداً عن حركة التنمية العامة في المجال الاقتصادي =

يجيبون إنها للدفاع عن الحدود، وتوفير الأمن، ووحدة الأراضي، ولكن ماذا يقول الواقع؟! أما الحدود فرأينا كيف انها منتهكة أمام نفوذ الشركات الاجنبية، وأما وحدة الاراضي فمرَّ بنا كيف أنها مشتتة من الداخل، ثم أين هي الهجمات، حتى يكون دفاع قبالها؟!

كل هذه العساكر وهذه الأكداس من الأسلحة، لم تفعل شيئاً، لافي شهريور ١٣٢٠ [٢٣ آب إلى ٢٢ أيلول ١٩٤١]، ولافي ٢٨ مرداد [١٩ آب ١٩٥٣م]، إن تدجيج ١٥٠ ألف شخص بالسلاح (وهذه الاحصائيات الرسمية طبعاً)، وهم من خيرة شباب هذا الوطن، وإطعامهم وتعهّدهم، للحفاظ على حكومة شخصية، وتقويتها...هذا هو المعنى الكامل والتام لكل تشكيلاتنا العسكرية.

وكبار القوم غافلون عن أن من الخطإ الجسيم، في غمرة هذه التحولات الكبرى والمشاريع العمرانية الهائلة التي تنتظرنا، أن ندفع هذا العدد من السواعد كل عام، للخدمة في القوات المسلحة، وإرغامهم على أعمال لاتساعد أبداً في الاستثمارات الوطنية، في الوقت الحاضر ينبغي أن لانخلي القرى من القوى العاملة بذريعة الخدمة العسكرية، ونأتي بهم إلى المعسكرات، ليتعلموا فنون الحرب مع العدو المجهول.

لا يمكن وضع يد على يد وإرغام ٣٠٠ ألف ساعد مفتول كل عام (في أقل تقدير) على حمل

= والاجتماعي، ولاشك أن الاعتبارات الدفاعية مهمة في مكانها، ولكن دور الجيش بصورة عامة دور داخلي.. وفي آخر المقالة «...إن القوى العاملة ووسائل القوات المسلحة في بلد مثل ايران عناصر لايمكن غض الطرف عنها في مشاريع البلاد العمرانية...».

ومن مقالته الثانية:«إن الجيش الايراني بما يقارب الـ١٥٠ ألف رجل مدجج بالسلاح، ومايبتلعه من ميزانية الوطن وعشرات الآلاف من الرجال الذين يدخلون ويخرجون سنوياً من صفوفه، ليس مؤسسة اجتماعية منفصلة يمكن تخصيصها لمهمه صيانة الامن والاستقلال وحسب...أو لم نفهم لحد الآن أنه بدون المراهنة على المعادلات الدولية للدفاع، لايمكن النظر بجد لجهازنا الدفاعي؟».

السلاح. وإتقان مهارات لم تنفعنا بعد محاصرة هرات في أية واقعة من الوقائع، هذا في الوقت الذي تعتبر فيه التعبئة الجماهيرية اليوم من الخطط الدفاعية الرئيسية، التي تعتمدها حتى الدول الصناعية المتقدمة.

في العصر الذي يتحدد فيه مصير الحكومات والحدود في العالم، على طاولة المفاوضات والتحاور، يبدو من المهزلة بمكان، التحدث عن مدى المدفعية المهداة لنا من الدول العظمى، أو استعراض الدبابات في ساحات المدينة، أو تدريب فرق المظلّيين والكوماندوز..لأن هذه لم تعد تنفع إلّا لتفريق وقمع مظاهرات الشباب الجامعي، أو كبح أصوات طلبة المدرسة الفيضية[1]..والقضاء على هذه القلاقل الصغيرة، لايحتاج أبداً لمثل تلك القوات والاسلحة.

لننظر إلى اليابان أو المانيا، اللذين تمكنا بفضل نزع السلاح الإجباري، بعد الحرب العالمية الثانية، أن يعيدوا بناء اقتصاديهما المنهارين، ويبلغا بعد أقل من عشرين سنة مرتبة التنافس الحقيقي مع الدول الفاتحة، ولو كانت أي من هاتين الدولتين تريد أن تهدر القسم الاعظم من قدراتها الانسانية والاقتصادية في ميدان التسليح كما كان حالها قبل الحرب، هل كانت اليوم ستتوفق إلى مثل هذا الازدهار في الاقتصاد والسياسة؟ في مثل عصرنا الراهن، حيث لاتسوية لمشكلة الجزائر، بعد ثمانية أعوام من الحرب والدماء، إلّا عبر التفريط بنفط الصحراء، مقابل الحصول على الاستقلال، ماذا تجدي الدبابات والجيوش الجرّارة سوى الاقتتال الداخلي؟!إن فرنسا بكل هيبتها وطائراتها ومظليها، لم تستطع في نهاية المطاف أن تقمع عشرة ملايين جزائري، ونحن نريد بـ١٥٠ ألف جندي أن نواجه من؟!

إن صلاحنا أن نكتفي من القوات المسلحة بالشرطة والدرك، وإن لم يكن بالامكان في

---

(١) من أشهر المدارس العلمية في قم، التي شهدت صدامات دامية بين طلبة العلوم الدينية وقوات الشاه. «المترجم».

الوقت الحاضر، تنفيذ مثل هذه الاطروحة الجريئة، فلابد من تبديل جميع المعسكرات إلى مراكز لتعليم الحرف والمهارات التي تحيي الأرياف، ففيها يتعرف جنود اليوم وقرويو الغد على الفنون والتقنيات والتعليمات العامة والتخصصية اللازمة[1].

---

(١) مابين الطبعة الاولى والثانية لهذا الكتاب، أسست وزارة الثقافة وبحملة إعلامية واسعة مايسمى بـ «جيش المعرفة». وخلاصة المشروع أن يؤخذ بعض الجنود ممن يحملون شهادات الدبلوم (الاعدادية) بحسب القرعة، فيقضون فترة التدريب لمدة أربعة أشهر، ليلتحقوا بعدها كمعلمين في القرى بدل الخدمة العسكرية. وتدفع لهم رواتب قدرها ١٥٠ تومان في الشهر. وقد تم تنفيذ هذا المشروع لدورتين أو ثلاث لحد الآن. وفي كل دورة التحق ألفان إلى ثلاثة آلاف من «جنود المعرفة» بالقرى، تشيعهم استعراضات صاخبة. والمشروع في ظاهره شيء مفيد، يحول دون ضياع أوقات عدد قليل من جموع خريجي الاعدادية (وعددهم سنوياً ٢٠ ألف شخص). ولكنه في الحقيقة اكبر حركة باتجاه عسكرة الثقافة في البلاد. وسواء كان مفخرة أو مذمة، فإن مبتكره هو الدكتور برويز ناتل خانلري، الشاعر الأسبق، والعضو اللاحق في مجلس الأعيان، ووزير الثقافة الحالي ! ولايؤتي هذا المشروع ثماراً طيبة مالم يخرج من إشراف الجيش إلى إشراف مراكز التعليم، وباستخدام اعداد اكبر من المتطوعين، وبشرط اعفائهم من الخدمة في الجيش. وعلى كل حال فقد كان هذا المشروع برأيي شديد الضرر للأسباب التالية:

أ ـ بهذا المشروع تم إلقاء الثلاثين بالمائة من ميزانية وزارة الدفاع التي كان من المقرر تقليصها، بضغط من السياسة الاميركية، تم إلقاؤها على عاتق وزارة الثقافة.

ب ـ الانحدار مرة ثانية بعمل التعليم إلى مستوى السخرة في الجيش، بعدما أخذ يكتسب اعتباره للتوّ، عقب زيادة الرواتب في سنة ١٣٤١ [١٩٦٢] في عهد وزارة درخشش حيث تقرر أن لا يقل راتب المعلم عن ٥٠٠ تومان.

=

ومن النقاط التي تبدو للعيان عند الإطلال على مشهدنا السياسي، تظاهرنا بالديمقراطية الغربية، من دون أن يكون لدينا أي أثر حقيقي للديمقراطية الغربية وشروطها وموجباتها. فلا أثر لحرية الكلام، أو حرية إبداء الرأي، أو حرية استخدام وسائل الاعلام والدعاية (وجميعها حكومي)، أو حرية نشر الرؤى المعارضة لرؤية السلطة الحاكمة. ومع ذلك تتظاهر حكوماتنا بالديمقراطية! وتفعل ذلك لمجرد اسكات الأجانب الذين يفترض أن يمنحونا قروضاً.

واضح أن الديمقراطية الغربية تستند إلى الأحزاب السياسية، والأحزاب إحدى نتائج الاقتصاد المزدهر، وإلّا تحوّلت إلى عصابات سياسية، كالتي نمتلك الكثير منها. فهذه العصابات المُشبّهة بالأحزاب، إن لم تكن تشريفية ومؤقتة، وإن لم تكن الغاية منها الوصول لمطامع مادية رخيصة، فإنها لاتخرج عن شكل «الفرقة» بأي حال من الأحوال. الفرقة التي تؤمن بالعمل السري، وتطلق مزاعم التضحية والاستشهاد، لأن يدها غير مبسوطة في العمل والنضال السياسي (فلا منتديات ولاصحف حرّة ولاترخيص لاجتماعات حزبية علنية ولا... ولا...) وهذه الفرق، سواء اتخذت الطابع الديني أو الصبغة السياسية، ليست سوى خلايا مقاومة قد تنفع في يوم من الأيام وقد لاتنفع. فهي منقطعة عن الجماهير، ولم تمسسها نار المشكلات العامة.. والطرق بينها وبين الناس مسدودة، وآهاتها باردة، وأهم ماتنهض به، هو أن تكون أساس حركة محتملة للسياسة الاجنبية الفلانية، التي تحتاج لعملها إلى غطاء وطني. وغالبية الانقلابات والتعاقب الساخن للحكومات في هذا الجزء من الشرق، يجري باسم هذه الفرق. هذا إن لم يكن يجري على يد العصابات مباشرة.

والمفروغ منه، هو أننا في مثل هذه الظروف، لانستطيع تقليد الديمقراطية الغربية. فلا نحن

= ج ـ إرضاء وزارة الثقافة، وهي أبعد المؤسسات الحكومية عن الروح العسكرية، لتوجيه وسطوة الجيش.

مسموح لنا بمثل هذا التقليد، ولاهو من صالحنا. فالتمظهر الفارغ بالديمقراطية الغربية، هو الآخر من مؤشرات التغريب، وإذا كان الإقطاعيون في الماضي، قد جاءوا بالمُنتخِبين عنوةً في شاحنات إلى صناديق الاقتراع، ففي السادس من بهمن [٢٦ كانون الثاني] والانتخابات التي تلتها شاهدنا جميعاً كيف وضعوا صناديق الاقتراع في المدن، عند أبواب الوزارات والدوائر الحكومية، وأصدروا تعميماً بعدم دفع رواتب الشهر المقبل، إلّا حسب تأشيرات الاشراك في الانتخابات ! فكانوا بالضبط مصداقاً لعملية حمل الاثقال إلى حيث يقف الحمار !! ورغم هذا أطلقوا الدعاية الصاخبة عن حرية الانتخابات وكثرة المقترعين !

والنتيجة هي أن الحديث عن الديمقراطية في هذا البلد، في غير محله، لأن إرادة الجماهير، وأصواتها الحقيقية لاتظهر للعيان إلاّ:

أ ـ عندما تُسلب القوى المحلية الكبرى وأصحاب الأملاك والأراضي والاقطاعيين نفوذهم وقدراتهم الواسعة، باعتبارهم حجر عثرة في طريق إبداء الناس آراءهم بحرية.

ب ـ عندما تتخلص وسائل الاعلام والنشر من الاحتكار الحكومي، وتتوفر حتى للمعارضين.

ج ـ حينما تكتسب الأحزاب، القدرة الحقيقية على العمل، وتزيد من نفوذها، وتخرج عن حالة العصابات السياسية الهابطة.

د ـ عندما يُحال دون تدخل القوات المسلحة، ومنظمات الأمن في شؤون البلاد.

في زمن ما، كان الجميع يأنّون من انعدام الحرية. ولأن آخر من تكون بيده أصوات الناس، فضلاً عن عُمدة القرية، وقوات الدرك، والحاكم، والمالك، ومدير الناحية، هو من يدفع تكاليف عَطل المُقترِع لفترة معينة عن العمل، كي يأتي نصف نهار إلى صندوق الاقتراع ثم يعود أدراجه من حيث أتى. أما اليوم، حيث تتولى منظمة الأمن مهمة ملء جميع الصناديق، وهي التي تقدّم لائحة النواب.. فماذا يجب أن نقول ؟ في مثل هذا الحال لاينفع حتى الصراخ.. فبمقدار ما انهزم مستنيرو البلاد، انتصرت منظمة الأمن، وكل مانسجوه

نكثته هذه المؤسسة الحديثة الولادة، التي تدبر الأمور بالارهاب، والتهديد، والإغراء، والسجن، والنفي، بكل هدوء وصمت، وبالشكل الذي يضمن تشكيل المجلسين (باقتي الورد هاتين) في الموعد المقرر.

ولكن لماذا يحدث كل هذا؟ لأن الناس لايعرفون شيئاً عن مفهوم الديمقراطية، وإن كانوا يعرفون، فإنهم لم يلمسوا خيراً من أي من دعاة الحرية الكثار. لذلك اختاروا الصمت والهدوء، وتسليم مصيرهم ليد أبدال المستنيرين. فما لم يترسخ مفهوم الديمقراطية في أعماق الجماهير، عبر التربية والتعليم المستمرّين، ومالم يتعرف الناس على الأسلوب الحزبي بمعناه الصحيح، فإن الحديث عن الديمقراطية في هذا البلد، لاينفع سوى أكابر القوم، ممن عبرت حميرهم الجسر، ويحتاجون لتبرير مناصبهم إلى أصوات المواطنين..

(١١)

دورُ الثّقافةِ والجامعة

ثقافياً، نشبه الكلأ الذي ينبت تلقائياً فإذا توفرت الأرض، والبذور التي قد تأتِ بها الرياح، أو مناقير الطيور، وسقطت البذور على الأرض، وساعدتها الامطار، فإنها ستنبت دون قصد مسبق. ومايشبه ذلك يمكن أن نراه في واقعنا الثقافي، إذ إنه متروك للصدفة وللأقـدار، وللنمو العشوائي. فالمدارس نبنيها كيفما اتفق.. إمـا مـن أجـل رفـع أسـعار الأراضـي المحيطة بها، أو بغية الرياء والتفاخر، أو لرد المظالم التي ابتلعها النصّاب الفـلاني فـي إحدى المضاربات السياسية، أو بفضل المساعي الصادقة لأهالي إحدى الحواضـر، أو بثلث تركة المرحوم فلان بن علّان.

وبعد أن يتم بناء المدرسة، يتصل بها غصن من أغـصـان التشكيلات الـثـقافية الهشـة، ولايحدث هذا إلّا بجهود مريرة ومتاعب جمّة، إذ ليست هناك أية خطة مسبقة لمثل هذه النشاطات، ولا أي تحديد للأماكن التي تحتاج إلى هذا النوع من المدارس أو ذاك، ولا أي تشخيص للمدارس غير الضرورية.. فالاهتمام بالكم كان دومـاً مسـيطراً عـلى العـقول الثقافية. ولكن ماهي الحصيلة الـنهائية للـثقافة فـي بـلادنا؟ إنـها كـما أسـلفت، إنشـاء المتغربين.

أو منح أوراق خالية من أية قيمة، تسمى شهادات، أو تعيين قيمة التوظيف في التـعليم، لأناس لايستطيعون سوى أن يكونوا مادة للتشكيلات الادارية، وهـم بـحاجة لشـهادة الاعدادية في كل ترقية إدارية.

ليس ثمة تنسيق أو تكامل في عمل المدارس، رغم أننا نمتلك جميع انواعها، النوع الديني،

والنوع الاسلامي، والنوع الإيطالي، والنوع الألماني.. والمدارس التي تخرِّج أنصاف الروحانيين،[1] والمدارس التي تخرِّج أنصاف التقنيين، والمدارس الحرفية، وغيرها الكثير من الأنواع الأخرى. لكن أحداً لايعلم ماهي مردودات ونتائج كل هذا التنويع في المدارس؟ أو ماذا تخرِّج هذه المدارس؟ وماذا يعمل خريجوها بعد عشرة أعوام؟ إن التنوع بحد ذاته، إذ كان بمعنى تقسيم الاعمال والمهام، وتشجيع التنوع في الأذواق والمشارب والقدرات والمدارك المختلفة لدى الناس، فهو حالة إيجابية للغاية، وأحد أرقى مؤشرات الحرية. لكن التنوع في مدارسنا ضرب من الإهمال والعشوائية، والنمو التلقائي. إنه تلك البذرة التي تنمو في كل ارض بشكل مختلف. فالمدارس الحكومية تختلف عن المدارس الوطنية، والقروية عن الطهرانية، لكنها جميعاً بنفس المناهج، وربما بنفس المعلم.. والفارق، أن في الصف الواحد من هذه، يزدحم ثمانون طالباً، في حين لايزيد عدد طلاب الصف الواحد في تلك عن ٢٥ طالباً. وليس في المناهج المدرسية أي اعتماد على التقاليد، أو أي ارتكاز على التراث، ولا أية مادة عن الأخلاق أو الفلسفة، ولا أي أثر للأدب، أو علاقة بين الأمس والغد، أو بين البيت والمدرسة، أو بين الشرق والغرب، أو بين الجماعة والفرد! فكيف يمكن للتقاليد التي شاهدنا سقوطها ميتةً، أن تؤثّر في المناهج الدراسية؟ والبيت الذي يكاد ينهار من أساسه، كيف يمكن أن يكون لبنةً للمدارس؟ ورغم هذا لدينا كل عام حوالى عشرين ألف خريج إعدادية.. إنهم المادة المستقبلية لكل المعضلات والعقد والأزمات.. وربما النهضات.. أناس بلا إيمان، ولا حيوية، ولا تطلعات. مجرد آلات طيعة بيد الحكومات.. كلهم مساومون وجبناء وعاطلون! وربما لهذا السبب ازدهرت المدارس الدينية فجأةً، ففي تلك المدارس لا يوجد على الأقل ما يهدد إيمان ودين الطلاب من ابناء العوائل المتدينة، التي لم تمسخها أنفاس التغريب المسمومة لحد الآن إلى حجارة، ولكن

---

(١) الروحاني في الثقافة الايرانية كلمة تطلق على من يرتدون لباس رجال الدين مهما كانت درجاتهم العلمية.«المترجم».

ما الفائدة إذا كان التعنّت يمسخها حجارةً بشكل آخر؟ وما الفائدة إذا كانت مشكلة التدين واللاتدين، والثقافة واللاثقافة، مشكلة المدن وحسب؟ أو أنها من مظاهر بطر المدن. إذ ما تزال أربعون ألف حاضرة، من مجموع خمسين ألفاً في البلاد، بلا أي نوع من المدارس[1]. وليت تلك التي فيها مدارس، لم يكن فيها. ففي هذه الحالة يكون البلاء واحداً على الأقل، وتكون جميع الأماكن متساوية. أما الآن فهنالك ألف بلاء وبلاء، وفي كل مكان نوع من البلاء. مشاكل الكتب المدرسية، وقلة المعلمين، وازدحام الصفوف، واختلاف الأعمار والذكاء واللغات والأديان بين الطلاب، ومدى معرفة المعلمين بأسس التربية والتعليم، ورداءة المباني المدرسية، وضحالة دروس الرياضة والموسيقى، وآلاف المشاكل الأخرى. وأهمها جميعاً؛ لاهدفية الممارسة الثقافية، وفوضوية المناهج. فلا أحد سيعلم لحد الآن ؛ لماذا يجب اجتياز المرحلة الابتدائية؟ وللوصول إلى أية أهداف؟ ولبلوغ أية مستويات ايجابية؟ وكذلك الاعدادية، وحتى الجامعة، التي يجب أن تكون إطاراً لأنشط وأفضل البحوث العلمية والصناعية والأدبية في البلاد.

وإذا أردنا التفصيل بعض الشيء عن الجامعة، يجب الإشارة أولاً إلى أن الجامعات الكبرى القائمة حالياً في البلاد هي جامعة طهران، والجامعة الوطنية، وجامعة شيراز، وجامعة خراسان، وجامعة جندي شابور وغيرها...

أما الجامعة الوطنية فهي حانوت المستنيرين المتغربين العائدين من الخارج.. وقد دعاهم لافتتاح هذا الحانوت الخاص، كثرة ماشاهدوه وسمعوه من ترهات التقاليد المتحجرة في جامعة طهران. فلم يألفوا من التوسل بمسؤولين رفيعي المستوى لتأسيس هذه الجامعة. وإنني لأجد صعوبة في إطلاق كلمة «جامعة» على هذه المؤسسة.

---

(١) يدعي «جيش المعرفة» أنه استطاع بكل ماأوتي من قوة، أن يؤسس مدارس مؤقتة في عشرة آلاف حاضرة أخرى. وهذا خبر سار، بغض النظر عن السلبيات التي ذكرتها.

وأما عن الكليات والجامعات في المحافظات، ففي وقت ما أسّس حزب «بيشه وري»[1] في آذربيجان، جامعة تبريز كعلامة على الاستقلال أو الحكم الذاتي في ذلك الأقليم، وضمن نطاق قانون اتحادات الولايات والامارات (الذي لم يعد له أي أثر يذكر)، ثم عندما أُخمدت اضطرابات آذربيجان، وجد المسؤولون أنهم لايستطيعون تهديم هذه التركة (الجامعة)، التي بقيت عن تلك الحقبة، كما هدموا باقي تركاتها، كما لايمكن الإبقاء عليها، لأنها على كل حال، إحدى آثار دعاة الاستقلال، ولم نجد من سبيل أمامنا سوى أن نؤسس جامعات أخرى في باقي محافظات البلاد.. وبذلك أصبح لدينا اليوم هذا العدد من الجامعات المنتشرة هنا وهناك. وهل أفضل من هذا؟ فقد توفرت بذلك أشغال لكل الاساتذة العائدين من الخارج. ولكن ماهي وظيفة كل واحد منهم؟ هذا مالايعلمه إلّا الله. وماهو تخصص كل واحد منهم؟ وأيهم يقوم بواجبه أفضل من غيره؟ وماهي محصلة نشاطهم؟ وماهو الفرع الدراسي المناسب لكل محافظة؟ كل هذه أسئلة لا أحد يدري متى ستُقدّم لها إجابات شافية!

وأما جامعة طهران، بماضيها، وأهميتها، وتقاليدها البالية، واستقلالها المطعون، فالمفروض أن تكون مركزاً ضخماً لأهم وأعمق البحوث والدراسات في البلاد. فهل هي كذلك فعلاً؟

الفروع الجامعية الخاصة بالتقنية والصناعة والميكانيك (كليات العلوم الصناعية) لا تخرّج في النهاية سوى حرفيين جيدين للصناعات الغربية، ولا أثر فيها للبحوث العلمية الحديثة، أو الاكتشافات والاختراعات، ولاحلول المشكلات القائمة، ولا أي شيء آخر. ليس ثمّ سوى مصلّحي ومشغّلي المكائن والصناعات الغربية، ومن يقيسون مقاومة

---

(١) حزب سياسي ظهر في منطقة آذربيجان الايرانية بعد الحرب العالمية الثانية، واستولى عليها مفتّحاً الأبواب للاتحاد السوفيتي الذي كان مرتبطاً به. وكادت آذربيجان تنفصل، لولا التدخل الاميركي الذي أنهى كل شي. «المترجم»

المواد الإنشائية وما إلى ذلك من الخزعبلات.. وإذا كان هنالك النزر اليسير من البحث العلمي، فهو خاص بمؤسسة «رازي» ومعهد «پاستور» الذي لا أدري هل اعتبرهما تابعين لكلية الزراعة في جامعة طهران، أم لوزارة الصحة، أم لمعهد «پاستور» في باريس؟ وربما امكن القول أن كلية الطب لا يعوزها شيئ على المستوى العلمي وبالقياس إلى باقي كليات الطب في العالم، لكن يجب أن أضيف فوراً، أن هذا المستوى العالمي، مدين لنسبة الوفيات العالية، في هذه البلاد. يحدثني أحد أصدقائي الأطباء، أنه حينما كان يدرس في فرنسا، شغلهم أحد الأمراض لفترة معينة، وحينما أراد الأستاذ وجميع طلبته، شخصاً واحداً مصاباً بهذا المرض، ليكون نموذجاً يتعاطون معه بصورة مباشرة، لم يجدوا رغم كل المساعي والجهود، وأخيراً تطوّع هذا الصديق، لإظهار أعراض المرض على وجهه، واكتفى الجميع بهذه المُشاهدة البسيطة. أما هنا، فلايعلم إلّا الله، كم من الجثث التي لايسأل عنها سائل، تتوفر بسخاء لكل طالب طب؟. وبهذا، فأنا على يقين من أن طالب الطب في طهران، أو شيراز، أو أية مدينة ايرانية أخرى، يكتنز تجارب في الجراحة والتشريح، اكثر مما يحمله طالب الطب في اوربا أو اميركا. وهذه نقطة ايجابية لطلبة الطب في ايران تقوم على نقطة سلبية، هي النسبة العالية للوفيات في البلاد.

أما الفروع الجامعية التي لاعلاقة لها بالتقنية والصناعة، فهي إما فروع الفنون الجميلة والآداب، والتي تدرس في اكاديمية الفنون الجميلة، وكليات الآداب (في طهران والمحافظات) أو فروع المعارف الدينية والثقافة الايرانية.. ولنعددها واحدة واحدة...

أكاديمية الفنون الجميلة بفرعيها الوحيدين؛ الرسم والعمارة، هي المؤسسة الجامعية الوحيدة التي تخرِّج الفنانين. هذا لو أمكن تخريج الفنان وصناعته. وبنظرة سريعة لجدران معارض الرسم، التي تكاد تصبح شيئاً مألوفاً هذه الأيام، وبجولة خاطفة في الأزقة والشوارع يمكن مشاهدة حصيلة أعمال هؤلاء الفنانين. وباستثناء ابداعات بعضهم، فإن ثمرة أعمال الآخرين لا تتعدّى استهلاك اللوحات والألوان والزجاج والحديد. أي استهلاك المنتوجات الغربية مرة أخرى. ويندر أن نجد بين الرسامين والمعماريين

الايرانيين من لا يقلّد الغربيين، بحيث يلاحظ على نتاجاته طابع الأصالة، والتجديد الفني، وإضافة شيء إلى ماهو موجود من الظواهر الفنية في العالم. بل وصل بنا الأمر إلى الاستعانة بالنّقاد الغربيين، لمهمة التحكيم في المسابقات المحلية[1].

وبالنسبة لكليات الآداب، فيبدو أنها خالية من أي أثر للآداب بمعناها الحقيقي والدنيوي. وليس هذا وحسب، بل حتى الأدب الفارسي المعاصر، مايزال مجهولاً أو متجاهلاً هناك. وما انفك أسلوب المرحوم عباس إقبال[2] مسيطراً في تلك الكليات. رحمه الله كان يقول إن بالأمكان معرفة الماضي إلى ماقبل مئة سنة، والحكم على أحداثه، أما بعد ذلك فمستحيل.. ونتيجة مثل هذا التعامل مع الأدب هو أننا[3] لانخرّج سوى نبّاشي قبور. ولهذا يجب اعتبار كليات الآداب، من فئة الكليات التي تتعامل مع الحقوق والمعارف الاسلامية، والثقافة الايرانية، وتعني، بالبحث والتحقيق فيها. أي أنها من نوع كليات الحقوق والمعقول والمنقول. بالضبط كتلك المدارس الاسلامية، التي مرَّ بنا ذكرها، والتي يتصوّر أصحابها أن مجرد تدريس وتبليغ الدين والتعاليم الدينية، بإمكانه الوقوف بوجه اللادينية، التي ليست في حقيقتها سوى إحدى أعراض التغريب. وكليات الآداب والحقوق والمعقول والمنقول بدورها، ظنت أن بالامكان عبر اللجوء الى العربية والآداب والعنعنات والتقاليد، التصدي لهذا الخطر الداهم. ولهذا نلاحظ أساتذة هذه الكليات، لاهمَّ لهم سوى نبش القبور، والغور في الماضي القديم، والبحث في العنعنات والأسانيد.

من ناحية، يمكن رصد ردة الفعل المباشرة إزاء التغريب في هذه الكليات، وفي هروب

---

(١) حول حصيلة أعمال هؤلاء الرسامين راجع «كتاب الشهر» إصدار كيهان ـ العددين (الأول والاخير) خرداد وشهريور ١٣٤١ [ربيع وصيف ١٩٦٢] في مقالات مختلفة باقلام سيمين دانشور. جلال مقدم، ومقالة «ندوة الرسامين».

(٢) احد الأدباء والباحثين التراثيين الايرانيين المعروفين في القرن العشرين.«المترجم»

(٣) راجع دورة مجلة «يادگار» التي كان يديرها المرحوم عباس إقبال.

كوادرها إلى النصوص القديمة، والشخصيات المعتّقة، والمفاخر الادبية الميّتة، ونبذ كل ماهو معاصر يتنفس بين ظهرانينا. ومن ناحية أخرى نلاحظ فيها أسوأ مظاهر التغريب، متمثلةً باستشهاد أساتذتها بأقوال المستشرقين، الذين أسلفنا الكلام حول خدماتهم المباركة.

يُدّرس في هذه الكليات اساتذة تقليديون، شغلهم الشاغل متابعة البحوث الادبية والحقوقية، وسبر أغوار المعارف الاسلامية والتراث الايراني. وهؤلاء حينما يشاهدون الهجمات الاوروبية، والصناعات والفنون الغربية، تجرف كل ماتمرُّ به، وتأخذه إلى الجحيم، يتصورون من باب المواجهة والدفاع، أو إثبات الذات، أنَّ أنجع أسلوب لمجابهة هذه الموجة، هو الإكثار من كتب «كليله ودمنه»..! ولهذا عجزت نتاجاتهم، خلال العقدين أو الثلاثة المنصرمة عن ترك أبسط الآثار في المجتمع. كما لم تستطع أن تفعل شيئاً قبال الجامعيين العائدين من الغرب. وأطال الله في أعمال المستشرقين، الذين صنعوا من كل «الهي نامه»[1] دائرة معارف، ومن كل «ريش نامه»[2] قاموساً يشغلون به هؤلاء الوالهين بـ«كليله ودمنه»، ويبقونهم هائمين ببحوث الماهية والعرض، والحدوث والقدم، وأصل البراءة، وما إلى ذلك... وباستثناء القليل النادر، كانت حصيلة العشرين أو الثلاثين عاماً الأخيرة لهذه الكليات، عبارة عن علماء فحول، كلهم خبراء في اللغة، وكلهم يلمُّ بشيء عن علم الرجال، وكلهم متبحرون في التراث، وكتّاب الحواشي على كتب الآخرين، وجميعهم من كشّافي غوامض اللغة والتاريخ، والقبور مجهولة الصاحب، والصحابة مجهولي القبور. وكلهم خبراء في إذاعة أسرار «النِحَل»، وكشّافو النقاب عن سرقات زيد من عمرو، واقتباسات عمرو من زيد، والمساجلات الادبية التي مرَّ عليها اكثر من ألف عام.. وهم

---

(١) إحدى مؤلفات الصوفي الايراني الشهير فريد الدين عطار النيشابوري.«المترجم»

(٢) تعبير ساخر يعني «رسالة اللحية» وهو اسم كتاب وهمي، يريد المؤلف أن يقول إنهم يستخرجون قاموساً من كل شيء وهمي.«المترجم»

جميعاً كتّاب رسائل حول شعراء القرن العاشر الهجري، الذين لايتجاوز عددهم أصابع اليدين. والأسوأ من كل هذا، أن أغلبهم أساتذة أدب، أو مدراء ثقافيون، أو قضاة محاكم. ورحم الله قضاة المحاكم هؤلاء، فقد شهدنا كيف أن بعضهم هذّب من وزارة العدل ما استطاع، ومنح استقلال القضاة معناه الصحيح، ولو أفسح الزمن لهم المجال، لميّزوا بين الحق والباطل بأدق ما يمكن التمييز. أما سواهم فما الذي أتحفونا به لحد الآن؟ سوىٰ مزيد من الانغماس في مستنقع التغريب. فكل واحد منهم يجمع حوله عدد من التلامذة، ويعكفون في مغارات النصوص القديمة، والنسخ المزيفة، والأقوال الشاذة، ويسدون على آذانهم لتكون أعطل من آذان أصحاب الكهف، وينامون نومتهم التي لا توقظهم منها، حتى أبواق السيارات. والحال أن سلطان اللغات الاجنبية، يجتاح يوماً بعد يوم مكانة لغات الأم، والحاجة إليها. فالفروع الصناعية والعلمية تسرق باستمرار هواة الفروع التراثية، بل إن الأخلاق والآداب والمعارف الفارسية والاسلامية في طريقها إلى الاضمحلال والتلاشي، كما لاحظنا في هذا الكتاب. وفي مثل هذه الظروف ينكفىء مركز الآداب والحقوق والمعارف في البلاد، أعني به كليات الآداب والحقوق والمعقول والمنقول، ينكفىء إلى شرنقة المتون القديمة، ويكتفي بتخريج أمثال «الملا نقطي».

لقد ضربت مراكز الآداب والحقوق، وعلوم التراث والاسلاميات والشرقيات على نفسها أغلال باء الزينة؛ هل يجب أن تكون متصلة أم منفصلة؟ أو الواو المعدولة؛ هل ينبغي حذفها أم لا؟ وقد تكون هذه ظاهرة طبيعية، فحينما ينتزع الإنسان من عالم الكليات يلوذ بالجزئيات. وعندما يضرب سيلٌ أو زلزالٌ بيتنا، سنبحث تحت الأنقاض، عن بابٍ، نحمل عليها أجساد أحبابنا المتفسخة إلى المقابر.

ثمة قضية مهمة أخرى، تطرح على الصعيد الثقافي والجامعي، هي ظاهرة الجموع العائدة من الغرب. وكل واحد منهم مرشح لكرسي وزاري، أو ملتصق بشكل وبآخر، بالتشكيلات الحكومية.

ولا شك أن وجود كل واحد من هؤلاء الدارسين، يعدُّ بحد ذاته غنيمة نحتاج إليها. إنه فردة

حذاء في صحراء قاحلة. ولكن لاحظوا أية خرقة بالية، سيصبح كل واحد من هؤلاء الفطاحل، بعدما يعود إلى الوطن، ويحرز لنفسه مكاناً في الدوائر الحكومية، ويثبّت لنفسه قدم صدق عند وزير مقتدر؟! عندها لن يعود أمامه ميدان حقيقي للعمل، ولاكوّة للأمل، ولن تكون لديه يد مبسوطة، ولاحيوية فاعلة، ولاحتى إخلاص في غالب الأحيان. خصوصاً وأن هذه الجماعة لاترى هي الأخرى لنفسها ولآرائها، أية قيمة في مقابل المستشارين الغربيين المسيطرين على الأمور.

وخلافاً لما هو شائع، أعتقد أنه كلما ازداد عدد هؤلاء العائدين من الغرب، قلّت قدراتهم على العمل، وتفاقم البؤس والاضطراب في الأجهزة التي يعملون فيها. والسبب هو الافتقار إلى خطّة، يجري وفقها إيفاد هؤلاء الشباب إلى الخارج، وتحديد الاختصاصات اللازمة التي ينبغي أن يدرسوها. إنما يبادر كل واحد منهم بشكل شخصي، إلى السفر لدولة معينة من هذا العالم، فيدرس هنالك أحد الفروع العلمية، ويكتسب تجربة تختلف تماماً عن تجربة الآخر. وبعد عودتهم، حيث يجب أن يكون أحدهم عضواً مبرزاً في المؤسسات الكبرى أو شخصية مهمة في وزارات الدولة وأجهزتها الحساسة، عندها يتضح للعيان عدم قابليتهم على الانسجام مع الوضع الجديد، وعجزهم عن تنفيذ المهام. فالذي درس في فرنسا، يخطّط للأمور بعقلية تختلف عن الذي درس في بريطانيا، أو ألمانيا، أو اميركا. ولكن يجب أن أضيف هنا، أنني إذا كنت متفائلاً بمستقبل حركة التنوير في ايران، فأحد أسباب ذلك يعود إلى تنوع أساليب الدراسة، وفي اختلاف البلدان التي يؤمّها الطلبة الموفدون إلى الخارج. ففنى الجو التنويري في ايران ينبع من هذه الخصوصية، ولنا أن نلقي نظرة على الجو التنويري في الهند، لنرى كيف يغلب عليه الطابع الإنجليزي، بسبب الأكثرية الأوكسفوردية التي تكوّنه.

وعلى كل حال، فالكلام يطول حول العائدين من الغرب، والأفضل أن ألخصه في بضع نقاط:

النقطة الاولى: هي أن غالبية هؤلاء الشباب، في الظروف الحالية للبلاد، يشبهون إلى حد

بعيد، زهور المحمدي والنرجس التي نستورد بذورها وشتلاتها من هولندا، ونزرعها في مزاهر طهران، ثم حينما تنضج نشتريها باثمان باهظة لنهديها لهذا الصديق أو ذاك. ومع أن هذا الصديق يضعها في مكان مشمس ملائم، ويسقيها ثلاث مرات في اليوم إلّا أن أعمارها لاتطول لأكثر من أسبوع. وزهور مجتمعنا أيضاً، تذبل بسرعة، وإن لم تذبل، فهي عادة ماتتلوّن بلون الجماعة، لتفقد كل طاقتها التغييرية. وخلافاً للدعاية المكثفة الرامية إلى استقدام هؤلاء المتخصصين، أعتقد أنه مالم تتوفر الأجواء المناسبة لعملهم في الداخل، فإن عودتهم لن تنطوي على أية مصلحة. وهنا يطرح السؤال؛ من هو المسؤول عن توفير مثل هذه الأجواء؟ وهكذا ترون أن القضايا المتعلقة بهذه الظاهرة كثيرة ومتشعبة. وحسب تصوري أقول باختصار: إن الذين يستطيعون توفير هذه الأجواء وسط هذا الزمهرير القاتل هم الذين تكوّنوا في هذه البوتقة، وتعوّدوا على مناخ هذه الثلّاجة.

النقطة الثانية: هي أن أغلب هؤلاء الشباب، وبفضل طبيعة المجتمع والحياة في الغرب، عاشوا هناك مقداراً من الحرية، وكانت لهم حيويتهم ونشاطهم داخل الاتحادات الطلابية، وكان أغلبهم متحمسين، وممتلئين بالطاقة، وأصحاب آراء وفعاليات وتظاهرات وإصدارات...الخ. لكنهم ما إن يرجعوا إلى الوطن، ويستمسكوا بالعروة الوثقى،[1] حتى يذهلوا عن كل تلك العوالم. وربما كانت سنوات مرحلة الشباب هي السبب في هذا النشاط والغليان، بحيث تنقضي هذه الحالة بانقضاء سني الشباب. لكن ألا تتصورون أن السبب الرئيسي لهذه الردة، هو أن حكوماتنا لاتحبذ مثل هذا السلوك ولا تفسح المجال لمثل هذه الحريات؟ ومهما كان السبب، فأنا شخصياً أعرف الكثير من هؤلاء الشباب، ماإنْ عادوا، حتى ركن كل واحد منهم إلى زاوية مكينة، وقنع بنصيبه من المسروقات، وكأنهم لم يكونوا يوماً مامفعمين بالحيوية والعمل للحرية. أما الزوجة والأطفال والمعيشة، فقد كانت دوماً ذرائع للركون إلى الراحة، وخصوصاً إذا كانت الزوجة أجنبية.

---

(١) في الأصل الفارسي عبارة تهكمية ترجمتها: (ويقبضوا على ذيل بقرة).«المترجم».

والنقطة الثالثة: هي المسألة بالذات، مسألة أن يعود عدد ملحوظ من هؤلاء الشباب بزوجات غربيّات، أو تعود بعض الشابات الايرانيات بأزواج غربيين. ألا ترون أن هذه بحد ذاتها مشكلة تضاف إلى المشاكل الجمّة التي نعاني منها؟ إذ إننا نرى اليوم العائلة الايرانية ذات الدم الواحد، والتقاليد والأمزجة المتطابقة، تشكو من التفسخ والانحلال، فكيف بالعوائل المكوّنة من أمزجة مختلفة؟!

إن هؤلاء الشباب أشبه بالحمامة ذات العشّين. إنهم المنتجات الأولى لمصانع التغريب. وهم يستنفدون جزءاً كبيراً من طاقتهم في حل المشكلات الداخلية لعوائلهم المركبة، وهذا لا ترك لهم رمقاً لحل المشكلات الخارجية التي يعاني منها مجتمعهم.

وهؤلاء الشباب عموماً لايشذون عن فئتين أو ثلاث:

أ ـ أبناء العوائل الفقيرة، الذين أوصلوا أنفسهم بصعوبة إلى العالم الغربي ليدرسوا. والزواج من الأجنبي أو الأجنبية بالنسبة لهؤلاء وسيلة للانقطاع عن الحسب والنسب، وليس عملية ترفيهية يختارها هذا العائد من الغرب. وإنما هو سُلّمٌ للوصول إلى طبقات اجتماعية أرقى. والعواقب الوخيمة لمثل هذه الزيجات أوضح من أن ندلل عليها.(١)

ب ـ الذين يختارون زوجاً أو زوجة غربية، بسبب القيود والتقاليد المتحجرة المُبهِظة، التي تحكم مشروع الزواج في ايران. وهؤلاء بعد أن يعودوا باختصاصهم وشهاداتهم ومعلوماتهم ولغتهم الاجنبية، ويرون أن تلك القيود قد تحطّمت، يشعرون أن زواجهم من نساءٍ أجنبيات كان عبثاً. وتتضح لهم عواقب هذا الوضع، بعد المقارنات التي سيجرونها.

ج ـ الذين يفقدون بكارتهم في الغرب (سواء كانوا إناثاً أو ذكوراً) ويبدأون علاقاتهم الجنسية مع نساء أو رجال من الغرب. هؤلاء عندما يعودون إلى الوطن، إما أن يكونوا من

---

(١) وهنالك كلام دارج بين العوام عن هذه الظاهرة، وهو أن مَن يتبوّأ منصباً معيناً وتكون لديه زوجة غربية، يكون واضحاً للجميع أنه لم يتبوّأ هذا المنصب إلّا لأن زوجته غربية. حتى لو كان ذلك الرجل متحلياً بمنتهى الكفاءة.

النوع المتمرد على كل الاعتبارات والالتزامات، أو أنهم سيدركون عندها أية ورطة وقعوا فيها.

وسواء كانت حالة الشاب الايراني العائد بزوجة أجنبية، إحدى هذه الحالات المذكورة، أو حالات أخرى محتملة، فإنه يكون قد استجاب لأحد الظروف التالية:

- إما أنه تزوج الأجنبية، لأن أجواء هذه الأجنبية، أو تلك الأجواء الأجنبية، قد تقبلته واحتضنته في داخلها (بسبب قلة الرجال مثلاً، كما في المانيا بعد الحرب، ولذلك فإن اكثر الاجنبيات المتزوجات من ايرانيين المانيات)، وهذا يعني الانصهار في الأجواء الاجنبية، وبواسطة إمرأة أجنبية، والانقطاع عن الأجواء المحلية، ومن ثم خسران الوطن بشكل دائم لطاقات هذا الانسان وتخصصه. ومثل هذه الخسارة ملحوظة، باستثناءات أقل، على الفتيات الايرانيات المتزوجات من رجال أجانب.

- أو بسبب أن الشاب الايراني الدارس في الغرب، يريد أن يعوّض عن عقدة الحقارة التي تنتابه، حين يقارن بين ايران والعالم الغربي. أو لما يراه في أجواء مجتمعه من تقاليد وأعراف و...الخ.(١)

وبهذا ألا يبدو الزواج من غربية أو غربي، من أبرز اشكال التغريب؟ وإذا كان الأمر كذلك،

---

(١) أدركت هذه الحقيقة حينما صدر كتاب «الحظر Les Quarantaines» بقلم فريدون هويدا في باريس (باللغة الفرنسية عام ١٣٤١ [١٩٦٢م]). وفيه يذكر أن شاباً جميلاً من الشرق (يحاول هويدا في ذلك الكتاب أن يصور نفسه لبنانياً أو مصرياً، ولايختلف الأمر كثيراً) يعيش في داخله حالة التناقض الحاد بين عالمه الشرقي وعالم الغرب. ولايستطيع الانتصار على ازماته النفسية، وشعوره بالخجل والحقارة، إلّا حينما يظفر بفتاته الغربية، التي هام بها منذ سنوات. والنقطة المثيرة في الكتاب هي أن إحساسه بالحب لايتفتح هو الآخر، إلّا بعد الوصال ! أما قبل ذلك، فلم يكن بطل الكتاب ليجرؤ على الاعتراف بهذا الحب حتى لخفايا نفسه!

أفلم يحن الوقت، لرسم خطّة مدروسة تتناسب واحتياجاتنا العلمية والصناعية، لإيفاد شبابنا لغرض الدراسات العليا، إلى الهند أو اليابان فقط دون كل البلدان الغربية، ولمدد طويلة قد تصل إلى عشرين عاماً؟ وإذا كنتُ أحدد هذين البلدين دون غيرهما، فذلك لكي نعرف كيف تكيّف أبناء ذلكم البلدين مع الآلة، وكيف اقتبسوا التكنولوجيا (وخصوصاً اليابان)، وكيف عالجوا المشكلات التي نعاني منها حالياً؟ وهكذا، يبدو أنْ لاسبيل إلى خدمة البلد ثقافياً، إلّا عبر خلق التوازن بين تشرّق العائدين من آسيا وتغرّب العائدين من اوروبا واميركا.

(١٢)

وَبَاءُ الآلة

العوامل المهمة في تكوين الفترات الانتقالية التي تمر بها المجتمعات، وماتستصحبه من أزمات وقلاقل، هي من ناحية تقدم العلوم الطبيعية، ومن ناحية أخرى، تطور التقنيات والصناعات والآلات، ومن ناحية ثالثة إمكانية الحديث عن الديمقراطية في شكلها الغربي[١]. ونحن لانتوفر من هذه العوامل الثلاثة، إلّا على مُعادِلات ظاهرية تصلح للرياء والمفاخرة وحسب. وإذا كان المفروض أن سرعة تطور التقنيات والصناعات، تستتبع أزمات اجتماعية متنوعة الأبعاد[٢]. علمنا أن وضعنا أسوأ بكثير مما نتصوّر، لأننا مانزال في بداية الطريق، وقد نضطر في المستقبل أن نسير دروباً يستغرق سيرها مائتين عام. فمِرجل أزماتنا أقسىٰ لهيباً مما في الكثير من البلدان الأخرى.

وبالرغم من هذا، لنفترض أننا استيقظنا غداً، ووجدنا أنفسنا كسويسرا أو فرنسا أو أميركا (ففرض المحال ليس بمحال)، فكيف سيكون حالنا عندئذ؟ أفلن نكون مصابين بالأزمات التي يعاني منها الغرب، منذ آماد طويلة ولحد الآن؟ فماذا سنفعل حينها مع هذه المشكلات الجديدة؟

قبل أن أشير إلى نماذج من هذه المشاكل، أؤكد أن القصد هو التنبيه إلى مانعانيه من

(٢،١) «أهداف الثقافة الايرانية» من منشورات مركز الابحاث ونشر الوثائق الثقافية ـ وزارة الثقافة ـ ط بهمن ١٣٤٠ [شباط ١٩٦٢م] طهران. وهي المجموعة التي كان المقرر أن ينتشر «نزعة التغريب» ضمنها، وحالة دون ذلك الحوائل.

مشاكل مضاعفة، والتدليل على الطريق الطويل الذي يمتد أمامنا، والهوّة السحيقة التي يجب أن نردمها.

تتمثل إحدى أزمات الحضارة الغربية، في بيانات التحذير الدائمة التي يجب أن تطلقها الليبرالية ضد النزعات الفاشية. ففي فرنسا هناك معالي ديغول والأزمة الجزائرية، وهناك أيضاً اليمينيون المتطرفون، من عسكريين وغير عسكريين، بقيادة الشقاة المتطرفين في «الفرقة الأجنبية»[١]. وهؤلاء يصبغون بين يوم وآخر، شوارع باريس والجزائر بدماء أنصار حل الأزمة الجزائرية. وفي ايطاليا والمانيا، هناك بقايا ذوي القمصان البُنيّة. وفي اميركا ظهرت تشكيلات «برج سوسايتي» الجديدة، الذين يعتبرون حتى ايزنهاور شيوعياً! وفي بريطانيا هناك نهضة استقلال اسكتلندا. وفي كل مكان آخر، ثمة دودة من نفس الشجرة، تنخر فيها بلا رحمة. وهذه «الفرقة الأجنبية» بحد ذاتها، إحدى المشكلات في القارة الأوروبية. ونعلم جميعاً أن أي شقي، أو مجرم، أو منفي، أو على الأقل مغامر من البلدان الاوروبية، حينما تضيق به سبل العيش، ولايستطيع البقاء في بلاده، يضطر إلى التطوّع في هذه الفرقة. وقد يلتحق بوظيفة ما، في شركات الذهب والعاج والألماس، الناشطة في غابات افريقيا. (راجع «السفر إلى آخر الليل» بقلم الكاتب الفرنسي الراحل لويس فرديناند سلين)[٢]. وبهذا تكون الكونغو، بندر عباس[٣] البلجيكيين، والجزائر وجيبوتي ومدغشقر، جزيرة قشم[٤] الفرنسيين، وللإيطاليين الصومال وليبيا، وللبرتغاليين انغولا وموزنبيق، وللهولنديين افريقيا الجنوبية واندونيسيا.

---

(١) لژيون اترانژر.

(٢) Voyage au bout de La nuit. Par L.F. Celine. Ed, Gallimard.Paris.

(٣) ميناء ايراني كبير مطل على مضيق هرمز.«المترجم»

(٤) جزيرة ايرانية كبيرة في مضيق هرمز.«المترجم»

ولكن.. ماهي «الفرقة الاجنبية» هذه؟ إنها تشكيلة تشبه عساكر المرتزقة في العهود الماضية (Mercenaire). وماهو واجبها؟ قمع الحرية في أي مكان تقتضي الحاجة، وخدمة شركات النفط والذهب في المستعمرات التي ينبت في فم أهاليها لسان، مضافاً إلى الإرهاب والغطرسة والتهديد بأساليب مُمكننة، لصالح أي شقي يدفع أجوراً أكبر. فهذه أسبانيا عام ١٩٣٦، والجزائر، والكونغو، وانغولا، كانت كلها خلال الفترات الأخيرة مسرحاً لصولات وجولات هؤلاء الأشقياء الغربيين، حيث اصطبغت أراضيها بالدماء تحت بساطيلهم السوداء. وليست القضية ان اوربا تصدِّر لنا الأشقياء مع صناعاتها[1]. بل الأهم من ذلك هو أن اوروبا تصون أمن مدنها، ومتاحفها، ومسارحها، بقيمة سلب

---

(١) واللطيف هو أن تصدير الأشقياء يتم من الناحيتين. من الغرب إلى الشرق وبالعكس. وقد أشرنا إلى النموذج الاوروبي. أما بالنسبة لنا فرغم أن الحالة ضئيلة جداً ونسبتها كنسبة صادراتنا إلى استيراداتنا، إلّا أن الاشقياء هنا أيضاً ما إن تضيق بهم السبل، وتقرع طبول فضائحهم، حتى يلجأوا إلى الخارج بتوجيه من الأشقياء الأجانب الموجودين هنا بعناوين مختلفة (كالمستشرقين والخبراء وسماسرة الآثار والمراسلين وباقي انواع الموظفين الاستعماريين) فيذهب أشقياؤنا بعد افتضاحهم، إلى أفضل مناطق اوروبا واميركا ليبقوا هناك حتى تعود المياه إلى مجاريها، فيعودوا أدراجهم. وأنا أعرف أحد أصحاب البنوك المفلسين في طهران، هرب إلى لندن بعد إفلاسه، وافتتح مطعماً هناك. وكلكم تعرفون سياسياً مفلساً، كان لسنتين ممثل ايران في اليونسكو. وآخر كان سفيراً جوّالاً للطلبة، وأمثال هؤلاء الكثير.. ولاحظوا أيضاً أنه إذا كان تصدير الأشقياء الغربيين إلى الشرق من توابع تصدير الآلة، أو نوعاً من تنقية الأجواء الغربية من المغامرين والمرضى النفسيين، وتوفير الأمن للأهالي هناك. فإن تصدير الأشقياء المحليين غالباً مايكون مكافأة تمنحها الحكومة لهم. لاحظوا كم هو الفرق بين الحالتين. وأتصور أنه إذا كان بالإمكان الشطب على كل أباطيل هذا الكتاب. إلّا أن هذه النقطة تبقىٰ كافية لإثبات ما اشتمل عليه من مدعيات.

الحرية من الدول المستعمَرة المتخلفة. واليوم حيث تتحرر الشعوب المستعمَرة واحداً تلو الآخر، يجب أن ننتظر لنرى كيف يحيق المكر السيء بصاحبه الاوروبي؟ فمن المتوقع أن نشهد اضطرابات كثيرة داخل اوروبا. ولكن يبدو أن أنغولا وموزنبيق وافريقيا الجنوبية ماتزال مقراً وثيراً لهؤلاء المنبوذين. ثم من الممكن أن يغيّر هؤلاء ثيابهم ويعودوا في شكل مستشارين وخبراء، ليجلسوا بجانب شيوخ الكويت أو وزراء قطر، أو مسؤولي ايران...

ولكن لماذا الوضع بهذه الصورة؟ لماذا تبرز مثل هذه الأزمات في جسد الحضارة الغربية، كحجر عثرة أمام أي تغيير؟ أغلب الظن أن حب المغامرة ونزعة التمرد على القانون والمجتمع، وانواع الشقاوات الفكرية والسلوكية، هي بحد ذاتها الحصيلة الثانية لاصطفاف الناس أمام صنم الآلة. هذا إذا اعتبرنا الصناعات الغربية، الحصيلة الأولى.

والاصطفاف أحد ضروريات الآلة، إنه العلة والمعلول في آن واحد. فارتداء زي موحد قبال الآلة، والاصطفاف اليومي في المعامل، والحضور والانصراف في ساعة محددة، والانهماك في عمل واحد مملٍ طيلة العمر، تصبح جميعها بعد فترة عادات ثانوية لكل المرتبطين بالآلة. وتأتي في المرتبة الثالثة عادات المشاركة في الأحزاب السياسية والاتحادات، وهذا مايتطلب أزياءً وأفكاراً وتحية موحدة، وهي بدورها ظواهر تفرضها الآلة على المجتمع.

إذن، وحدة الزي في المعمل، تؤدي إلى وحدة الزي في الحزب أو الاتحاد، وهذه تفضي إلى وحدة الزي في المعسكر. أي أمام الآلة الحربية. وهل ثمة فرق بين هذه وتلك؟ الآلة آلة على كل حال. وكل مافي الأمر أن إحداها تصنع الحليب المجفف للأطفال، والثانية تصنع القذائف لقصف الأطفال. وهذا الاتحاد في الزي والافكار لخدمة الآلة[1]، ثم في الحزب

---

(١) وهو ما انتقده جارلي جابلين في أفلامه أشد النقد، وإذا كانت لهذا الفنان أهمية، فلأنه التفت قبل الجميع إلى خطر دفع الناس كالخراف إلى مسلخ الآلة.

والنادي والاتحاد، ثم في المعسكرات، هو الذي يقود إلى وحدة الأفكار والرؤى، كما هو الحال بالنسبة لذوي القمصان السود، أو ذوي القمصان البنيّة، الذين يقذفون بالبلدان الغربية، كل عشرين سنة، في الجحيم، ويختلقون الحروب العالمية لأتفه الأسباب.. والواقع أن الحروب بغض النظر عن انبثاقها من رحم التنمية الصناعية، والبحث عن أسواق جديدة للتصدير، إنما تكتسب مواصفاتها واعتباراتهامن الآلة، التي هي بدورها وليدة البراغماتية والعلموية والوضعية، وباقي النزعات المادية. واليوم، يعلم حتى الأطفال أن الانتاج الفائض، والقدرة على التصدير، يؤدي بأصحاب الشركات إلى الخصومة مع منافسيهم، على احتكار أسواق التصدير[1].

على صعيد آخر، ينبغي ملاحظة أن الاحزاب في المجتمع الديمقراطي الغربي، ماهي إلا منابر لامتصاص العواصف الماليخوليّة عند أناس مرضى غير متعادلين روحياً، هؤلاء المعتوهون، سلبهم الاصطفاف اليومي أمام الآلة، والنهوض في ساعة محددة صباحاً، والوصول إلى محل العمل في ساعة محددة، والحرص على أن لايفوتهم الباص، سلبهم كل فرص الاعراب عن الذات، وتحقيق الارادة الفردية..ويتجلى هذا الأمر بصورة أوضح، إذا أخذنا بنظر الاعتبار، أن الاحزاب الفاشية، وباقي الجماعات المتطرفة، تعمل بمنتهى الدقة لتلبية النزعات الشاذة لهؤلاء المرضى النفسيين. ولعل في اللون الأحمر الصارخ

---

(١) وليكن هذا المنافس من كان، فالتجارة الغربية الحرة لاتعرف صديقاً أو عدواً. وفضلاً عن قصة الدبابات التي اشتراها البلجيكيون من ساحة حرب العلمين، وباعوها بعد تصليحها للمصريين والاسرائيليين لتستعمل في حرب أخرى، لاحظوا هذا الخبر الذي أترجمه لكم عن مجلة «تايم» الاميركية:«قبيل فترة وجيزة من مراسم افتتاح فندق هيلتون في هونغ كونغ، اكتشفت اميركا أن الاثاث والخزف في الفندق، قد استورد دفعة واحدة، وبقيمة مئة ألف دولار، من الصين الشيوعية، وهذا يناقض القوانين الاميركية، التي تمنع أي اميركي من التعامل مع الصين الشيوعية...» مجلة «تايم Time» العدد ١٩ ـ تموز ١٩٦٣ ـ ص ٦٠.

لراياتهم، والعلامات والشعارات التي يختارونها، كالنسر والاسد والنمر، دلالات ذات معنى على مكنوناتهم النفسية، وهذا ما يمكن استنتاجه أيضاً من الشروط التي ينحتونها، لقبول الأعضاء في جماعاتهم، أو فصلهم منها، والطقوس التي يمارسونها.

جميع هذه أزمات حادة، تتقلّب في سعيرها المجتمعات الغربية المكننة..وتقع مهمة معالجتها على عاتق العقلاء والمخلصين منهم.

أما نحن الذين لم نخبر الديمقراطية، ولم ندرك الآلة، ناهيك عن إدراك الاصطفاف الإجباري أمامها، فمن المضحك حقاً، أن تكون لنا أحزابنا واجتماعاتنا السياسية! فعوضاً عن أن تفرض علينا الآلة الاصطفاف اليومي أمامها، وتكون لنا بعد ذلك أحزابنا واجتماعاتنا وديمقراطيتنا، ثم نصطف في المعسكرات، بدأنا المشوار بالمقلوب تماماً، أي دخلنا أولاً في الزي الموحد، واصطففنا في المعسكرات (الأمر الذي لاينفعنا إلّا في حروب الشوارع)، لنكون بذلك مستعدين لمجيء الآلة، وهذه أخف لهجة أستطيع أن أصف بها واقعنا الراهن.

في الغرب، وصلوا عن طريق الماكنة والتكنولوجيا، إلى الاصطفاف، والأحزاب، والمعسكرات، والحروب، ونحن هنا على العكس بالضبط، نتحرّك من المعسكرات والتمارين الحربية والاصطفاف لنصل إلى حروب الشوارع، ومنها إلى التحزب، ومن هناك إلى خدمة الآلة، وهذا لايعني أننا وصلنا فعلاً، وانما نريد أن نصل..

الأزمة الأخرى من أزمات البلدان والمجتمعات الغربية، هي أن الغرب عندما تعامل بروح الاستعمار مع الشرق وآسيا وافريقيا واميركا الجنوبية، كانت ظروفه آنذاك تختلف عن ظروفه حالياً. فالانسان الغربي في القرن التاسع عشر، كان يفعل مايحلو له في المستعمرات دون حسيب أو رقيب، فهو هناك الامير، وهو الملك، وهو الحاكم المطلق، وهو الكل في الكل، سفاراته كانت تمنح اللجوء السياسي لثوار الدستور في طهران. وإذا ارتفعت رايته على بيت في شيراز كان ذلك البيت آمناً وسط أتون مشتعل من الاضطرابات الدامية بين القوّامين والقشقائيين.

أما اليوم، فقد تعلّم حتى الأمي في الكونغو، دروساً عن تأميم النفط، وقناة السويس، وشركات السكر في كوبا. وأصبح بإمكانه تشخيص الأجنبي في أي زي يأتيه، ولم يعد مضطراً لتوديعه بحفاوة وإجلال. ولذلك خلع الرجل الغربي جلده القديم ليدخل في جلد جديد...وليس قناعاً آخر على وجهه لكيلا تعرف هويته الحقيقية.

في السنين الخوالي، كان الغربي بمجرد أن يضع أقدامه في الشرق، يتوّج ملكاً، وتتوّج زوجته ملكة، وأما اليوم، فهو مستشار، وخبير، وموظف في اليونسكو، ومع أنه جاء لنفس المهمات أو ماشاكلها، لكنه في هذه المرة يرتدي ثياباً مقبولة بعض الشيء، ولا يضع على رأسه القبعة الشمسية الاستعمارية (كولونيال)، ويحاول جهده مراعاة الظواهر والمشاعر..بيد أننا في الشرق لم ندرك لحد الآن أن الغربي تفهم عدم إمكانية الرجوع مائتي عام إلى الوراء في النصف الثاني من القرن العشرين.

وفضلاً عن هذا، فإن المستعمر الغربي كان يصطحب في قافلته أحياناً «غوغان» الرسام، أو «جوزيف كنراد» الكاتب، أو «جيرار دونيرفال» و«بيرلويس»، وفي الفترات الاخيرة «اندريه جيد» و«البيركامو»..وقد عشق كل واحد من هؤلاء، زاوية من زوايا الشرق، وبقوا أوفياء لمعايير زلزلت أسس المعايير الغربية في الحياة والفن والسياسة.

فغوغان أخذ معه إلى الغرب عصارة الشمس والألوان الشرقية، ليزلزل بها لوحات «فلاماند» القاتمة زلزالاً من غدا معه من البائد تقليد حتى بيكاسو ودالي. وجيد نادي بفضيحة شركات العاج والذهب في مذكراته عن الكونغو عام ١٩٣٤، ومالرو أنبأ عن حضارات «خمرز» في جنوب شرق آسيا، ليبرهن أنها الأقدم بكثير من أعمدة «فوروم» الرومانية، أو «آكروبول» اليونانية، وآخرون تعمّقوا في جوانب مختلفة من حياة الشعوب في افريقيا وآسيا واميركا الجنوبية، بعدما كانوا يجهلونها تماماً داخل السجن الاوروبي الكبير، ومن أبرز الأمثلة على ذلك ظاهرة موسيقى الجاز ذات الأصل الأفريقي، ففي إطار هذه الظاهرة، نجد الأسود الافريقي، يغنّي بأعلى صوته تحت سماء نيويورك، وهو نفس الأسود الذي انتزع يوماً ما من افريقيا لكي يستعبد في الولايات المتحدة، ولكي

يزرع القطن للأشراف الجدد.

وللشركات الموغلة في الغرب بـ«نيوجرسي» والـ«ميسي سيبي»، وهاهو الآن يزلزل بطبله وبوقه طاق «كارنفي هال»، ويكاد يصل إلى ماتحت سقوف الكنائس القوطية، التي لم تكن إلى ماقبل الحرب العالمية الثانية لتسمح لسوى «باخ» و«مندلسون» بالدخول اليها.

أريد أن أقول: صحيح أن الغرب، خلال الحقبة الاستعمارية كان يمتص دماء الشرق، وينهب عاجه ونفطه وحريره وتوابله، وباقي أمتعته المادية، لكنه تدريجياً أدرك أن الشرق، فضلاً عن متاعه المادي، ومالديه مما يملأ المتاحف والمصانع، يمتلك الكثير من المتاع المعنوي، مما يملأ الجامعات والمختبرات، وهكذا قام علم الانسان، وعلم الاساطير، وعلم اللهجات وآلاف العلوم الأخرى، في ذلك الطرف من العالم، على أساس العيّنات والمشاهدات في هذا الطرف من العالم.

واليوم غدت الخامات الروحية في الشرق وآسيا وافريقيا واميركا الجنوبية، من أهم مايشغل أذهان الباحثين الغربيين. ففي النحت، يرجعون إلى بدوية «بري ميتيف» الافريقية، وفي الموسيقى، يرجعون إلى الجاز الافريقي. وفي الأدب يقتبسون «الاوبانيشاد» و «وطاغور» و «التايويّة» و «الزن Zen» البوذي. ليظهر على إثر ذلك المفكرون والأدباء المبرزون في اوربا. فمن هو ياترى «توماس مان»؟ أم من هو «هرمان هيسه»؟ وماهو المضمون الفلسفي للوجودية؟ إن زراعة الحدائق بالأسلوب الياباني، وافتراش الموائد الهندية، واحتساء الشاي على الطريقة الصينية، أصبح اليوم جزءاً مهماً من تحذلقات الشباب في الغرب.

إن نزوع الغربي نحو القيم الشرقية والافريقية، في الفن والأدب والأخلاق والحياة بصورة عامة، هو من ناحية مؤشر لنفور وتعب الإنسان الغربي من بيئته وآدابه وفنونه، ومن ناحية أخرى، علامة على إمكانية عولمة الفن والأدب والثقافة، من أي مكان كانت، وهذه علامة إيجابية بطبيعة الحال. لكن النقطة الملفتة للنظر، أن هذا النزوع نحو الشرق بدأ يتسرب حتى إلى عالم السياسة. ويبدو أن الدور بعد الفنون الشرقية، وصل إلى اهتمام

الغرب بالأساليب الشرقية في السياسة. فالهروب من التمكنُن يقتضي هذا، والهلع من الحروب النووية يستلزمه.

نحن المتغربين، لم نتعرف على موسيقانا لحد الآن، بل ونعتبرها «طنطنة» عبثية، ونبقى نهيم في السمفونيات والمعزوفات الغربية، ونهجر الرسم الايراني والمنمنمات الفارسية لنقلد «البيانال» و «الفوويّة»، ونحكم حتى على «التكعيبية» بالقِدم والاندثار، ونترك العمارة الايرانية بتناظراتها، وأحواضها، ونافوراتها، وحدائقها، وأقبيتها، وشبابيكها، ونقفل أبواب «الزورخانه»[1]، وننسى ألعاب الصولجان، لنسارع إلى الأولمبياد بأربعة مصارعين. وهل الأولمبياد سوى تطوير لسباق «الماراثون»[2] الذي يمثل رمزاً لهزيمة أحد الأبطال في زمن دقيانوس، لاأحد يعلم لماذا قاد جيوشه كل هذه المسافات الشاسعة. لماذا لاتعي شعوب الشرق ماديها من الثروات؟ ولماذا تتصور، بسبب كون الماكنة غربية، ونحن لا نقوى على اقتباسها، أن عليها أن تقتبس كل معايير الحياة الغربية الأخرى، لتستعيض بها عن كل معاييرها وقيمها في الحياة والأدب والفن؟ لماذا يجب أن تكون علامة اليونسكو على شكل أعمدة الاكروبول اليونانية، وليست بشكل البقرة المجنّحة الآشورية، أو أعمدة معابد «كارناك» و «ابو سنبل» المصرية؟ ولماذا لاتعرض الشعوب الشرقية آدابها على المحافل العالمية، ومن ذلك أنْ تقترح ألعابها المحلية على

---

(١) تعني حرفياً «بيت القوة» وهي النوادي الرياضية التقليدية في ايران، ويوجد منها في العراق ايضاً «المترجم».

(٢) Marathon في الاصل اسم قرية في اليونان انتصر فيها اليونانيون على الايرانيين عام ٤٩٠ قبل الميلاد. وقد نقل نبأ الانتصار من هذه القرية إلى أثينا أحد الأبطال المعروفين. واحياءً لذكراه ولذكرى الواقعة، فإن سباق الماراثون اليوم من الألعاب الرئيسية في الأولمبياد. وفي المقابل أيّنا يعلم من هو «آريا برزن»، وماذا سطّر من بطولات مقابل الاسكندر المقدوني وجنوده في منطقة «تنغ تكاب» بأقليم فارس ؟!

الأولمبياد؟ وكذلك الرقص والرماية ورياضة اليوغا و...الخ.

الأزمة الأخرى من أزمات المجتمعات الغربية، أنها علاوة على إفرازها أفراداً ذوي وداعة ودماثة الغرض منهم تقديم اكبر خدمة ممكنة للآلة، فإنها تكوِّنُ أيضاً أنواعاً من البشر، يمكن تسميتهم بـ «الابطال الجاهزين»، على غرار «البيوت الجاهزة». ومن هؤلاء مثلاً نجوم السينما ورواد المركبات الفضائية. وقد تبدو هذه الظاهرة منطقية، لأنك حينما تجعل الناس كلهم من قماش واحد، بحيث لايتميز أحدهم عن الآخر بشيء، فلن يكون أمامك بدٌّ من أن تُقدِّم بين الفينة والفينة بطلاً جاهزاً، لتكسر به هذه الرتابة البشرية المبتذلة، وتمنع اليأس من أن يأخذ شكله المطلق في نفوس الناس. ولهذا عندما تطلب شركة فورد من إحدى الكليات الاميركية، عدداً من متخصصي الكهرباء والميكانيك كل سنة، فإن الإستوديو السينمائي الفلاني سيقوم بواجبه في نفس الوقت، وينتج الأبطال وفقاً للخطّة المرسومة. وإذا كان هنالك في الماضي السحيق أشخاص تصدر عنهم شجاعات معينة، فيتحولون من دون سابق موعد إلى أبطال شعبيين، يمتدحهم الشعراء، وينسجون حولهم الاساطير، ففي عصرنا الراهن، يطلب الاستوديو الفلاني من الممثلين تقليد هذه الشجاعات التاريخية والأسطورية، ليتمَّ إنتاج فيلم سينمائي، تتناوله الصحف والاذاعة والتلفزيون بشتى ألوان المديح والثناء. ويقوم الاستوديو المُنتج بتغطية إعلامية ودعائية واسعة، ويسلّط الأضواء على كل مايتعلّق بابطال الفيلم، من أحداث صغيرة وكبيرة، وزواج وطلاق، وسرقة أطفال، ومشاركة في الصراع بين البيض والسود، ومايمارسونه من رقص في الليلة الفلانية مع الملكة المُطلّقة الفلانية و...الخ. وقبل سنة أو سنتين من إنتاج الفيلم، تسمع عنه الأحاديث تلو الأحاديث في الاذاعة والتلفزيون والصحف، وتتراكم المادة الاعلامية حتى تفرض نفسها على «رويتر» و «اسيوشيتد برس» لتنتقل من هناك إلى وسائل الاعلام في طهران وسنغافورة والخرطوم. وبعدها يحين موعد قطف الثمار، فينزل الفيلم على الشاشات الفضية بكل أبّهة وجبروت، وفي ليلة افتتاحٍ واحدةٍ في خمس عشرة عاصمة في العالم.. والنتيجة: إضافةُ بطل آخر إلى صفوف

أبطال الشاشات، أي سلخ الاعتبار والأهمية عن بطل تاريخي أو أسطوري آخر!

والنموذج الثاني لهذا النوع الجديد من صناعة البشر (أي صناعة أبطال شاشات من البشر العاديين) هم رواد المركبات الفضائية، الذين لم تكن حتى زوجاتهم تأخذنهم مأخذ الجد إلى ماقبل الأمس، أو أنهم كانوا بلا زوجات أساساً. أما اليوم فإنهم أشهر من نار على علم! هذا في وقت يبقى فيه مصممو وصانعو هذه المركبات، ومكتشفو وقودها الحديث مغمورين بشكل مطلق، سواء في روسيا أو الولايات المتحدة. والسبب هو أن هوية هؤلاء العلماء، وحتى مجرد وجودهم، من الأسرار العسكرية التي تحرم إذاعتها. لكن الذي يستقلّ المركبة ليس طبعاً من الأسرار. وإنما وسيلة لتحميق الناس. إنه كوّة في هذا الانغلاق الارعن الذي قرّروهُ مصيراً للشعوب، والغرض منه تجديد الأمل في نفوسهم، وايهامهم أن أيّاً منهم كان يستطيع أن يكون مكان رائد الفضاء، وماإلى ذلك... ويحاطُ هؤلاء الرواد بكل أسباب الشهرة والدعاية، من صور وأخبار وطوابع ونداءات، ونحن ذاهلون عن أنه [رائد الفضاء] إنسان مثل باقي الناس، بقليل من الشجاعة الإضافية، وربما الحظ الإضافي.. لأننا لانعلم شيئاً عن مصير أولئك الذين هلكوا في الفضاء، فهذا من الأسرار العسكرية. ثم ألا تتصورون أن رائد الفضاء رغم كونه إنساناً مثل بقية الناس، ويتمتع بكل الحقوق الانسانية، تحوّل في هذه التجربة الفضائية إلى جماد، أو مجرد فأر مختبري؟ هذا هو الانحطاط الإنساني بعينه. والسادة أنفسهم لاينكرون أن رواد الفضاء شجعان، ومستعدون للتضحية بأنفسهم من أجل البشرية. وأنا أقول: من أجل التطور التقني. ففي زمن من الأزمان كان هناك نبي اسمه ابراهيم، أخذ ابنه المأثور للتضحية به في سبيل الله. واليوم يضحّون بالبشر في سبيل التقنية والماكنة.. ثم يتفاخرون بذلك، وبتغطية إعلامية ضخمة، جعلت الناس حتى في قرى سيبريا وآلاسكا، يتطوعون للمشاركة في هذه التضحية، أو ليس هذا هروباً من الابتذال الذي فرضته الآلة على الانسان؟ إنه آخر أنواع اجتياح الآلة لمملكة الانسان!

في بداية ظهور المركبات الفضائية، كُتبت مقالات سخيفة، جاء في بعضها، أن السيد

المسيح توقّف عن العروج في السماء الرابعة بسبب إبرة، واليوم لايقف شيء أمام عروج المركبات والصواريخ الفضائية إلى السماء السابعة ! كتابات هزيلة تحاول أن تقول إن السماوات هي الأخرى، لم تعد موطناً للملكوت. وكل مافي الوجود ينتمي لعالم الناسوت. والناسوت لو كتب له خدمة الماكنة، فسيتجاوز حتى الأفلاك، وماإلى ذلك من الدعاية الهابطة، التي يغفل أصحابها أنه حتى الكلاب والقرود ستكون أرقى من البشر في هذه الجولة اللاهوتية.

ولم تكتفِ الآلة باستخدام البشر الطيّعين في البلدان الصناعية، بل وبدأت تصنع نوعاً جديداً من البشر، على حساب ماتضحّي به منهم. وهؤلاء الجدد أشبه بالحيوانات في خضوعهم وطاعتهم، أي أنهم منسلخون عن الآدمية تماماً. وفي هذا المضمار، تطرق أسماعنا بين الحين والآخر، أخبار عجيبة، منها؛ «تزوجت رائدة الفضاء الفلانية، من رائد الفضاء الفلاني» ثم؛ «رائدة الفضاء حامل...» ثم؛ «رائدة ورائد الفضاء رزقا بطفل»... والغرض من كل هذه الأخبار الضحك على ذقون الناس، واللهو بعقولهم. إن البراغماتية والعلموية تجتاحنا إلى درجة استخدام مخلوقين بشريين، كفأرتين في التجارب العلمية ! من أجل ماذا؟! من أجل إثبات أن الإنسان يستطيع التناسل فيما وراء الجاذبية، ثم ماذا؟ هذا هو السؤال المحيّر الذي ينبغي الإجابة عنه.. لكنني أتجاوزه.

هذه هي مشكلات المجتمعات المتقدمة. أما نحن الذين لانمتلك الآلة، ولسنا مجتمعاً متقدماً، ولانعاني من تلك التبعات التي ذكرتها، ولسنا مضطرين لصناعة بشر طيّعين متشابهين، ولانحن بحاجة إلى أبطال جاهزين.. لنتأمل قليلاً في حالنا.. نقلد حركات اولئك الأبطال حين نفوز بجوائز محلية، أو عند انتخاب أعضاء مجلس الشيوخ ومجلس النواب، أو عند اختيار شاب قروي، لإلقاء قصيدة في المراسم الفلانية.. والأسوأ من هذا أننا نقرأ في بداية كل برنامج من البرامج الثقافية المدونة، أن الهدف منه صناعة إنسان متعادل، وماإلى ذلك من الخزعبلات.. والحال أنها برامج تصيح بملءِ فيها، أنها من مظاهر التغريب. ولكن هل يكفي أن نطلق تسمية دقيقة على المرض؟

إذا كان بالإمكان القول بدور لثقافتنا، فذلك رهين بالشخصيات المرموقة التي تستطيع في خضمّ هذه الفوضى الاجتماعية الناجمة عن أزمة التغريب، أن تبلغ بالسفينة برّ الأمان. إن أهدافنا الثقافية كما هي وكما ينبغي أن تكون، يجب أن لاتتلخص بجعل الناس جميعهم شيئاً واحداً، أو قماشاً واحداً لاتختلف أية قطعة منه عن القطعة الأخرى. خصوصاً بالنسبة لنا، في هذه الحقبة المتأزمة من الزمن، حيث البرزخ الاجتماعي المخيف الذي نعيشه، لا أعتقد أننا نستطيع تحمّل أعباء هذه التحولات والأزمات، إلاّ بمساعدة أناس مضحّين فدائيين مبدأيين (قد يعتبرون في عرف العامّة متمردين، معاندين، غير متزّنين) وبهذا فقط يمكن ترتيب الفوضى الاجتماعية التي مرّت بنا في هذا الكتاب.

في زمنٍ ما، كان نظام التربية والتعليم الايراني، بطابعه الأرسطوقراطي، لايخرّج إلا رجال القيادة والحكم، وهذا ماكان مشهوداً في العهد الصفوي أو القاجاري، أو العهود الأسبق. فكانت عملية التربية والتعليم آنذاك محددة بما يقتضيه الجهاز الحكومي، فلا ينالها إلّا عدد قليل من المحظيين[1]. وإذا كان هذا النظام متجانساً مع العصور الخالية، فإن قيادة البلاد اليوم، وخلافاً لمقتضيات العصر، ماتزال على ماكانت عليه في عهد شاه وزوزك، فهي في يد عوائل إقطاعية معدودة، وفي متناول الارسطوقراطيين وغلمان البلاط، وتلك المنتي عائلة المعروفة. ومثل هذه القيادة ماهي إلّا زائدة دودية للقوى السياسية والاقتصادية الاجنبية. ومن ناحية أخرى، أخذت عملية التربية والتعليم في الوقت الحاضر أبعاداً أوسع، وامتدت لتشمل طبقات كبيرة وشرائح عريضة من المجتمع، فهي اليوم، تخرّج عدداً أكبر من المتعلمين، وغالبيتهم، بل جميعهم ممن يجلسون للوظائف الحكومية، فهي بذلك تخرّج مرشحين اكثر للقيادة. ومهما أردنا القول في الخصائص السلبية أو الايجابية لنظامنا التربوي الحالي، يبقى المقطوع به هو أن هذا النظام يضاعف أعداد الساخطين يوماً بعد آخر. وهؤلاء الساخطون هم الذين درسوا في المدارس

---

(١) راجع كتاب «أهداف الثقافة الايرانية» الذي مرَّ ذكره.

والجامعات بهدف الوظيفة، أو الإدارة، أو القيادة، ووصلوا إلى ماخلف جدار القيادة، فوجدوا أن السبيل أمامهم إلى هذه القيادة مسدود، لأنهم غير مرتبطين بالقوى الاقتصادية والسياسية الأجنبية، ولاهم من تلكم المائتي عائلة، ولامن أصحاب الملايين المنقولة.

إن واقعنا الثقافي اليوم يزيد من حشود خريجي المدارس والجامعات، بغض النظر عمّا قد يعانيه هؤلاء من الضعف والنواقص. وهذا يعني اتساع الرقعة الثقافية في البلاد. ولكن من ناحية أخرى، نجد أن جهاز قيادة البلاد يتقلّص ويضمر، يوماً بعد آخر، وتزداد تشديدات أجهزة الأمن، فكيف بنا مع هذه المفارقة العجيبة؟ واضح أن زماننا زمان مضاعفة الفوارق الاجتماعية، وفي مثل هذه الظروف، تبدو تنشئة أناس متعادلين طيّعين، وكبح جماح الميول الانسانية العنيفة، من أخطر وأصعب المهمات. وهي المهمة التي تضطلع بها الثقافة، ومنظمات الأمن، والجيش، بمساعدة «جيش المعرفة» الحالي، و «جيش الصحة» القادم.

إن واجب الثقافة والسياسة في بلادنا اليوم، يتمثل في المساعدة على تشخيص التناقضات بين الاجيال والطبقات والأفكار، فبذلك نعرف على الأقل، ماهي المشكلات التي تواجهنا، وباتضاح المشكلات تتضح سبل الحل. ومهمة الثقافة أيضاً، المساعدة على تحطيم أي جدار يحجب مراكز القرار والقيادة ويجعلها احتكارية. وهذا يعني جعل قيادة البلاد ديمقراطية وإخراجها من احتكار هذا أو ذاك، أو هذه العائلة وتلك. ولاأتصور أن بالإمكان الكتابة باكثر من هذه الصراحة، إن مهمة الثقافة تحطيم وهدم أي جدار يقام بوجه التقدم والتكامل، والدفاع عن الطرف المستقبلي من المعادلة الاجتماعية، دون الطرف الآخر الصائر إلى الزوال. على ثقافتنا استخدام الطاقات الشابة الجموحة، كذراع لاقتلاع الأسس القديمة، واستخدام موادها الأولية لبناء عالم جديد.

في حقبة التحوّل التي نعيشها، نحتاج إلى شخصيات قوية، متخصصة، متشددة، ومبدأية. وليس إلى متغربين، أو مخازن علوم بشرية، أو من يجيدون كل شيء ولا يجيدون شيئاً،

أو مجرد خيّرين وصلحاء، أو طيّعين مسالمين. فهؤلاء هم الذين كتبوا تاريخنا لحد الآن، ويكفينا ماتجرّعنا.

نجاح الغرب يكمن في أنه، بعد أن أنجز مؤلفو الموسوعات مهماتهم، لم يعد بحاجة إلى مثل هذه الحشرات. بمعنى أنه بات مستغنياً عن العقول الشمولية، والمعلم الأول، والمعلم الثاني، والمخازن الجوّالة المثقلة بالمعارف الانسانية. ولذلك توزع الأعمال هناك على الأشخاص، فيظهر المتخصصون في كل مجال. لكن المتخصص الذي يتمخض عنه الغرب، فاقد الشخصية، ونحن يجب أن نبدأ من هنا بالضبط. أي علينا إنتاج متخصصين ذوي شخصية. فهل تستطيع ثقافتنا صناعة مثل هؤلاء المتخصصين؟ وإن لم يكن بإمكانها ذلك، فما هو السبب؟ وأين يكمن الخلل؟ هذا ماينبغي مناقشته ومعالجته.

إذا كان الغرب قد استعاض عن الشخصية بالتخصص، تبعاً لحتميات التكنولوجيا والرأسمالية والتمكن، فإننا وفقاً لحتميات التغريب، استعضنا عن الشخصية والتخصص كليهما، بالانتهازية والتلوّن والتغريب. وأكرر أن مدارسنا وثقافتنا وجامعاتنا تنتج المتغربين، إما عن قصد، وإما بطريقة حتميّة لاواعية، ثم تدفعهم للالتحاق بجهاز قيادة البلد. إنهم متغربون معلقون في الهواء لامكان لأقدامهم على أي أساس من الايمان. فلا أحزاب لهم، ولاطموحات إنسانية، ولاتقاليد ولاأساطير، وإنما يتخبطون في نمط من الابيقورية الحمقاء، ويخوضون في انحرافاتهم وشهواتهم الجسدية، فلاهمَّ لهم غير أعضائهم السفلية، والبهارج الظاهرية، ولايشغل أذهانهم مستقبل ولاحال. وكل من فعل الاذاعات، والصحافة، والكتب المدرسية، والمختبرات المغلقة، وتغرّب القادة السياسيين، وأخطاء العائدين من الغرب، وهيام التقليديين بنبش القبور. أما حكوماتنا فلاتستطيع بكل ما أوتيت من قوة أن تحافظ ولو على الشكل الظاهري للأمور. وإنما تعمل باستمرار على ترسيخ التعامي والتغافي، متوسلةً باسلوب جديد، لايخرج في كل حالاته عن ثلاثة انواع من الماليخوليا:

الأول: ماليخوليا العظمة. فكل إنسان صغير يرى عظمته في العظمة التي ينسبونها إليه

كذباً و إنتحالاً. وأيضاً في عظمة البهارج الوطنية، والمهرجانات المُبهِظة، وأطواق النصر الفخمة، ومجوهرات البنك الوطني، وملابس وسروج وتزويقات الفرسان. ومايلصقه القادة العسكريون على أكتافهم وبذلاتهم، وفي الأبنية المنيفة، والسدود الضخمة، التي ثمة كلام طويل حولها، وحول ماتسببه من إسراف وتبذير للرساميل الوطنية.. والخلاصة أنه يجد عظمته في كل مايملأ العين.. فمتى ما امتلأت عين الانسان الصغير، تصور نفسه كبيراً!

والثاني: ماليخوليا التفاخر بالماضي القديم، وهذا من توابع ماليخوليا العظمة، ولكنني فصلته، لأنه غالباً مايُسمع بالأُذن، ولايرى بالعين. فتملأ آذاننا المزاعم الجوفاء، والتبجحات المقرفة، وبطولات داريوش وكوروش، وعنتريات رستم، وكل ماتتشدق به إذاعات البلاد وصحافتها.

إنها ماليخوليا مسموعة. هل رأيتم عاملاً شاباً متعباً، يمشي ليلاً في زقاق مظلم خالٍ من المارة؟ إنه عادة مايترنّم في هذه الحال، ببعض الأغاني. أتعلمون لماذا؟ لأنه يخاف من الوحدة. فيضطر إلى ملء أسماعه بصوته كي يتغلّب على خوفه. ولا أدري هل انتبهتم إلى أن الراديو يقوم بنفس الفعل. الراديو مفتوح في كل مكان لمجرد أن تصدر منه التشدقات الفارغة.. التي لاهدف منها سوى ملء الآذان، ومنع التفكير.

والثالث: هو ماليخوليا إلهاء الناس بالمخاوف الوهمية، عبر اختلاق أعداء خياليين. وفي هذا السياق يتم إستنفار الإذاعة والتلفزيون والصحف، لتلهج ليل نهار بأخطار هذا العدو، فتنكفىء الجماهير على نفسها من خوفه، وتقنع بما لديها من النِعم.

ولهذه التخويفات صور مختلفة. فهي يوماً ما اكتشاف تشكيلات حزب توده، ويوماً آخر مكافحة الأفيون، ثم مكافحة الهروئين، ثم قضية البحرين، أو النزاعات مع العراق على شط العرب. وبعدها الاشاعات حول عصابات اختطاف الأطفال.. وأخيراً الرعب الذي أوجدته منظمات الأمن في القلوب...

(١٣)

اقْتَرَبَتِ السَّاعَة

والآن، حان الوقت لامتشاق القلم.. إذن لأختم الحديث بشهادات لبعض المشاهير، تشبه التنبؤات، لكنها ليست تنبؤات، وانما خاتمة حتمية للطريق الذي أُكرهت البشرية على السير فيه.

للكاتب الفرنسي الراحل «ألبير كامو» رواية ذائعة الصيت اسمها «الطاعون». ربما كانت أهم أعماله. يروي فيها قصة مدينة من الشمال الافريقي، لايعلم إلّا الله كيف ولماذا أصيبت بوباء الطاعون؟ فقد حل بها هذا الداء الفتّاك كأنه القضاء المُبرم. ومن يدري، لعله جاء من السماء تحديداً.

في البداية تهرع الفئران المصابة من جحورها مذعورةً، وتنتشر في الأزقة والطرقات، وخلال يوم واحد تتكدّس أمام كل الحوانيت، أكوامٌ هائلة من أجسادها الصغيرة. ثم يسري الوباء إلى البشر.. فيصابون ويصابون ويصابون.. ثم يموتون ويموتون ويموتون.. وعندها لاتتوقف عربات الموت عن إطلاق صفاراتها، وتُنتزع جثث الموتى بالقوة من ذويهم، ليتم إحراقها ودفنها. ويضطر المسؤولون إلى إقامة جدار حول المدينة.. ويظل كل واحد من الأهالي داخل هذا الحصار، يتخبّط لنفسه هنا وهناك. فواحد يبحث عن علاج للطاعون، والآخر يفتش عن مفر للهروب، والثالث يسعى وراء المخدرات لكي ينسى كل شيء، والآخر يلهث وراء أوطاره في الأسواق الصاخبة.. و.. الخ.

في مثل هذه المدينة الموبوءة، حيث سلطان الموت المحتّم، ومكابدات البشر اليائسة للتخلص منه، وأجواء الحزن والعزاء المخيّمة على كل مكان، يلفت النظر أن عفريت

الطاعون يبعث على تسريع خطى الناس في أي طريق كانوا فيه، فهم مسارعون في السير، سواء كان طريقهم حقاً أو باطلاً، أخلاقياً أو لاأخلاقي. فالطاعون لم يصرف أحداً عن طريقه، بل على العكس، زاد من سرعته في ذلك الطريق...

وحالتهم هذه بالضبط كحالتنا نحن المصابين بطاعون التغريب، فهو يزيد من جموحنا، بغض النظر عن هوية الدرب الذي نسير فيه.

عندما صدرت رواية «الطاعون» ذهب بعض النقاد (اليمينيين) إلى أن كامو أراد بالمدينة المصابة بالطاعون، المجتمع السوفيتي. وقال اليساريون، إنه أشار إلى إرهاصات الثورة الجزائرية.. وتكلّم الكثيرون بآراء مختلفة حول الرواية، لاأتذكرها الآن، وليست هنالك ضرورة لذكرها. لكنني بادرت إلى ترجمة الكتاب، لابدافع من تلك التحليلات المتضاربة. ولكن لاكتشاف حقيقة ماأراده المؤلف. وحينما بلغتُ بالترجمة ثلث الكتاب أدركت غاية المؤلف، بل رأيتها رأيَ العين. وعندها انطفأت في داخلي كل المحفزات لمواصلة الترجمة. وجدت أن الطاعون من وجهة نظر كامو ليس سوى التمكنُن. فهو الذي يقضي على الجمال والآداب والإنسان والارتباط بالسماء، ويأتي على كل شيء.

وظهرت بعد ذلك مسرحية الفرنسي «أوجين يونسكو» المسماة بـ«الكركدن» أو «وحيد القرن».. والتي تروي هي الأخرى وقائع مدينة، بشكان لاأباليين، يواصلون حياتهم العادية. بكل غفلة واندفاع. غير أن مرضاً خطيراً يداهم المدينة فجأةً. ولاحظوا أنه مثل الطاعون (ومثل التغريب أو الكوليرا) مرض معدٍ. ولكن ماهو المرض هذه المرة؟ إنه انمساخ الانسان إلى كركدن!

في البداية يصاب الانسان بالحمى، ثم ينكمش صوته، ليخشن بعدها باستمرار، ثم ينبت قرن في جبهته، ثم تتحول القدرة على الكلام إلى قدرة على عواء حيواني مرعب، بعدها يبدأ الجلد بالتصلب و... الخ. والوباء لايستثني أحداً. إنه يصيب ربة البيت، والبقال، ومدير البنك، والعاشق، والمعشوق، وكل إنسان في تلك المدينة، فيخرج الكل إلى الشوارع ليدمروا ما يجدونه أمامهم من التحضّر والجمال.

لم تكن ثمة حاجة لترجمة مسرحية يونسكو، بغية إدراك كلامه[1]. ومع ذلك، كنت أحلم دائماً بترجمة هذه المسرحية يوماً إلى الفارسية، وبكتابة هوامش على كل صفحاتها، تُوضّح كيف أن مواطنينا المحترمين يتجهون يوماً بعد آخر صوب الانمساخ إلى هذا الحيوان الهائل. فهذا آخر طرق الصمود بوجه التمكنن.

وفي عام ١٣٤٠ [١٩٦١م] شاهدت فيلم «البيدق السابع» للسويدي انيغمار بريغمان .. مُخرج من أقصى الشمال الغربي.. من سلالة الليالي القطبية القارسة. تجري قصة الفيلم في القرون الوسطى، في أرض مصابة بالطاعون أيضاً.. فارسٌ متعبٌ مهزوم ساخط، يعود إلى وطنه من الحروب الصليبية، لاحظوا جيداً، إنه عائد من الحروب الصليبية، التي لم يعثر فيها على الحقيقة أبداً، لأنه وجد في أراضي القدس الشريف، نفس مايراه أحفاده اليوم في الأراضي المستعمرة بالشرق وافريقيا. وهذا الفارس خلافاً للغربيين اليوم، لم تطأ رجله الشرق بحثاً عن النفط والتوابل والحرير، وإنما بحثاً عن الحق. أي أنه أراد أن يرى الله ويلمسه في الأراضي الفلسطينية المقدسة. بالضبط كحواريي عيسى الذين ظنّوا أنهم شاهدوا الله، فنفخوا أبواق البشارة المسيحية في كافة أرجاء المعمورة.

هذا الفارس السويدي الزاحف من ليالي القطب الحالكة، إلى نهارات الشرق الساحر، إنما يبحث عن الله، ولكن بدل أن تتجلّى له أنوار الله الباهرة، يداهمه شبح ابليس في كل لحظة. تارة في ثياب لاعب شطرنج، وتارة في لباس أحد رجال الكنيسة، ودائماً بملامح عزرائيل، الذي زرع بذور الطاعون في تلك الأرض، ليحصد منها أرواح الآدميين. وفي مثل هذه الظروف، حيث يعود فارسنا متعباً من البحث عن الحق، تطلق الكنيسة آيات العذاب، وتذكّر بوعيد يوم القيامة واقتراب الساعة. ومعنى ذلك أن اندحار عصر الإيمان، لايعني سوى حلول أزمنة العذاب. فإذا انقضى عهد العقيدة، بدأ عهد التجربة. والتجربة تجرُّ إلى القنبلة الذرية..

---

(١) رغم أنني قمت بذلك على كل حال.

والآن، ها أنا لاباعتباري إنساناً شرقياً، بل بصفتي مسلماً من الصدر الأول، ومن المؤمنين بالوحي السماوي، وممن يعتقد أنه قبل موته سيرى بعث البشرية في صحراء المحشر، أرى أن «ألبير كامو» و «اوجين يونسكو» و «اينغمار بريغمان» والعديد من الفنانين، وكلهم غربيون، يبشرون بهذا النشور. كلهم كئيب لمصير البشرية. فـ «أروسترات» سارتر يشهر المسدس عشوائياً في وجوه الناس في الشارع، وبطل «نابوكوف» يقود سيارته على أجسادهم. و «مورسو» في «الغريب» يرتكب جريمة قتل بسبب حرارة الشمس... هذه النهايات القصصية، رموز لمصير الانسانية المحتوم.. الانسانية التي إنْ لم تشأ التمزّق تحت عجلات الماكنة، فعليها الدخول في جلد الكركدن ! إنني أرى كل هذه المصائر القصصية أجراساً تنذر باقتراب الساعة الأخيرة، حيث غول التكنولوجيا يزرع القنبلة الهيدروجينية في طريق البشر (مالم نهيمن عليه ونعيده إلى القمقم).

وعلى أساس هذه الرؤية، أطهّرُ القلمَ في ختام هذه الصفحات، بالآية الكريمة: ﴿ اقتربتِ الساعةُ وانشقَّ القمر... ﴾.

المحتويات

جلال آل قلم و نزعة التغريب..... ٣

(١) كمُقَدّمَة..... ١٥

(٢) مَدْخَل..... ١٧

(٣) وباء التغريب..... ٢١

(٤) بِدايَات الوَبَاء..... ٣٢

(٥) مُكوِّنات السَّيْل..... ٤٥

(٦) التَّعَفُّنَاتُ الأولَىٰ..... ٥٧

(٧) كَشْكُولُ المُفارقَات..... ٦٩

(٨) كيْفَ نُبْطِلُ السِّحْرَ؟..... ٨٧

(٩) نِمْرٌ مِنْ وَرَق !..... ١٠٢

(١٠) مُجْتَمَعٌ فُوضَى..... ١١٤

(١١) دَورُ الثَّقَافَةِ وَالجَامِعَة..... ١٢٧

(١٢) وَبَاءُ الآلَة..... ١٤٠

(١٣) اقْتَرَبتِ السَّاعَة..... ١٥٦